أحمد حسن الزيات

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص

المجلد الثاني

الطبعة الرابعة

١٩٥٨

نال هذا الكتاب جائزة الدولة للأدب

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقي

مطبعة الرسالة
٣ شارع حمودة المقاول - عابدين

الفهرس

صفحة

بين الفقير والغنى ... ١
ضحية من هذا ! ... ٤
عيد الفقير ... ٨
كيف نعالج الفقر ... ١١
يا أذن الحى اسمعى ! ... ١٤
الطفولة المعذبة ... ١٧
غنى فقير ! ... ٢١
منطق الغنى ... ٢٥
رسالة الأزهر ... ٢٩
الملك غازى ... ٣٣
نفخة الصور ... ٣٧
اقتلوا الجوع تقتلوا الحرب ... ٤١
حزن المليك الطفل ... ٤٥
فى يوم وليلة ... ٤٩
فلاحون وأمراء ! ... ٥٣
هل لأغنيائنا وطن ؟ ... ٥٧
من صور الماضى ... ٦١
تكاليف الاستقلال ... ٦٥
من هذيان الحر ... ٦٩
حدثنى المرحوم الزهاوى ... ٧٣
من الأحاديث العابرة ... ٧٧

صفحة

قلت لنفسى ٨٢
حلم ليلة صيف ٨٣
جريرة النازية على الإنسانية ٨٧
السلام ٩١
بين الدين والحب ٩٣
منهاج لوزارة الشؤون الاجتماعية ٩٨
١ — الجهل ١٠١
٢ — الفقر ١٠٤
٣ — المرض ١٠٨
هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير ١١٢
جسومنا وعقولنا بين الصحة والمعارف ١١٦
لحية بيضاء ١٢٠
صاحب المعالى وزير المعارف ١٢٤
وعلى الأرض السلام ١٢٨
هل خصب الأرض يستلزم جدب القرائح ١٣٢
من مذكراتى اليومية ١٣٦
من وراء المنظار ١٤٠
أمل وذكرى ١٤٤
الحياة جميلة ١٤٨
الموظفون والناس ١٥٢
محمد محمود باشا ١٥٦
الربيع الأحمر ١٦٠
من بريد الرسالة ١٦٣
محمد الزعيم ١٦٦

صفحة

الظلام ! الظلام ! ١٧١
فقهاء بيزنطة ١٧٥
العقيدة الساذجة ١٧٨
فى سبيل الأزهر ١٨٣
الرجل المنتظر ١٨٧
قلت لنفسى ١٩١
إشعاع الايمان ١٩٢
مصطفى كامل بعد ثلث قرن ١٩٦
الفكر والحرب ٢٠٠
الحرب بين أمس واليوم ٢٠٤
فرنسا تنهار ٢٠٨
بين المهاجرين والأنصار ٢١٢
نهاية أديب ٢١٦
الشتاء ٢٢٠
خواطر مهاجر ٢٢٢
فى مخبأ الفيشاوى ٢٣٨
أمة التوحيد تتحد ٢٤٢
إنجلترا هى المثل ٢٤٦
الأخلاق وهذه الحرب ٢٥٠
خواطر مريض ٢٥٤
بين اللاتينية والجرمانية ٢٥٨
يومان من أيام الرسول ٢٦٢
العصبية داؤنا الموروث ٢٦٦
يوم الفقير ٢٧٠

صفحة

هل ابتعث الأزهر ؟ ٢٧٤
ماخلفته أثينا وروما ٢٧٨
الأمل ٢٨٢
إلى السيدة « ليلى » ٢٨٤
من البكاء إلى الضحك ٢٨٨
من أحاديث القهوة ٢٩٢
لا تقولوا أين الكتاب وقولوا أين القادة ٣٠٨
بعض الكلام فى « مى » ٣١٢
على ذكر عيد الميلاد ٣١٦
مشكلة الرغيف ٣٢٠
صحة الفقير تعويض من ثروة الغنى ٣٢٤
كيف عالج الاسلام الفقر ٣٢٨
على المصطبة ٣٣٤
بين ناخب ونائب ٣٣٨
ربيع وربيع ٣٤٢
لابد للإسلام من مؤتمر ٣٤٥
أرواح وأشباح ٣٤٩
وهذا كتاب ٣٥٣
مثل المصرية الحديثة ٣٥٧
غراب وطفل ٣٦٥
من عجائب الناس ٣٦٩
الرسالة فى عامها الحادى عشر ٣٧٣

صفحة

نهاية أستاذ ٣٧٧
الرسالة فى عامها الثانى عشر ٣٨٢
عبقرية الإسلام ٣٨٥
من مآسى هذه الحرب ٣٨٩
أبو العلاء المعرى بمناسبة عيده الألفى ٣٩٤

قارئى العزيز :

كتبت أكثر مافى هذا المجلد والحرب العالمية الثانية قائمة . فأثرها فيه شديد ، ورسمها عليه ظاهر . فإذا كنت حريصاً على استبطان معانيه وإدراك مراميه ، فأخطر ببالك أو صور فى خيالك فظائع هذه الحرب . وقد يساعدك على استحضار الحالة وإدراك المناسبة أنى سجلت فى رأس كل مقالة تاريخ اليوم الذى صدرت عنه وكتبت فيه .

المؤلف

بين الفقير والغنى

(١٦ يناير سنة ١٩٣٩)

« ياصاحب السعادة لِمَ ترضى أن أكون صاحب الشقاء ؟ أنا وأنت نبعتان من أيكة[١] آدم نمَتَا فى ثَرَى النيل ؛ ولكن مَغْرِسك لحسن حظك كان أقرب إلى الماء ، ومغرسى لسوء حظى كان أقرب إلى الصحراء ، فشبعت أنت وارتويت ، على قدر ما هَزِلت أنا وذويت ؛ لأن الماء والغذاء يطلبانك وأنت ضاجع[٢] وادع ، وأنا أطلبهما بالكدح والمَتْح[٣] فما أنال غير الجفاف أو النِّطاف ![٤] فماذا يضير المجدود[٥] أن ينضح المكدود برَشْحٍ مما يسبح فيه من فيض هذا الوادى ، وهو لهما كلبن الأم للتوأمين ، لكل منهما شطره بحكم الحياة والأمومة والطبيعة ؟ لقد ضمن الله لك حق الملك لصلاح الدنيا ، ولكنه فرض عليك بإزاء ذلك الزكاة تحقيقا لهذا الصلاح . فإذا خشيت أن تمتد عينى إلى ما لك بالحسد والشهوة ، أو يدى إلى نفسك بالعنف والقسوة ، فاكسِر نظرتى وحِدَّنى عنك بأداء ما جعل الله لى عندك ؛ وإلا كان من الإنصاف فى رأيى على الأقل أن يكون اعترافى بالحق لك ، معادلاً لاعترافك بالواجب عليك » .

ذلك ما يقوله فى مصر كل فلاح لكل باشا ؛ ولكن أغنياءنا غلاظ الأجساد والأكباد فلا يُصغون لمثل هذا العتاب الهامس ! وهم إلى ذلك يعلمون أن الله الذى أعان الفقراء بالزكاة على الفقر أعانهم عليه أيضاً بالقناعة والصبر .

---

(١) الأيكة : واحدة الأيك ، وهو الشجر الكثير الملتف . (٢) رجل ضاجع : كثير الاضطجاع كسلان (٣) المتح : استخراج الماء من البئر بالدلو (٤) النطاف : جمع نطفة ، وهى قليل ماء يبقى فى دلو أو قربة (٥) المجدود : المحظوظ . والمكدود : المتعب

فهم يثقون بالله ، ويؤمنون بالقدر ، ويعتقدون أن نصيبهم المقسوم فى السماء سيهبط عليهم فى الأرض ، أو يصعدون إليه فى الجنة . وفى ضمان هذه الأخلاق السمحة والنفوس المطمئنة مشى الغنى متأبهاً متألهاً يحاول أن يخرق الأرض ويطول الجبل ويملك على عباد الله حق الحياة والموت . ثم ينظر إليه الكادح المحروم وهو يخور من السمن ، ويختال من البطر ، ويغوص فى الحرير ، ويخوض فى الذهب ، فيقول بلهجة المؤمن الراضى :

آمنت بالله ! لو لم يستحق ما هو فيه ، لما كان الله عز وجل يعطيه ! »

وأقسم ما أعطاه الله ولكنه هو الذى أخذ . وما كان ليستقيم فى ميزان العدل أن يُعطَى الرِّى إنسان حتى يطفح ، ويُمنَعه إنسان حتى يلتهب !

أعرف فى بعض مراكز (الدقهلية) عشرين بلدة يملكها من الشرق أمير ومن الغرب باشا ؛ فليس لأحد من الأهلين فيها شبر أرض ولا جذع شجرة إنما هم أجراء أو مستأجرون سخرتهم الغفلة والاستكانة لرجلين كسائر الرجال ، ليس لبطنيهما سعة البحر ، ولا لعزميهما قوة الدهر ، ولا لنفسيهما عظمة الله ، إنما هما فمان تملأهما المضغة ، ومعدتان تكظهما (١) الأكلة ؛ ولكن لهما عينين كعين الجحيم لا تمتلىء ، ونفسين كجوف الرمل لا يروى . فهما يعصران من أجساد هذه الألوف الجاهدة ذهباً يكتنز ، وقصوراً تشاد ، وسلطاناً يُرهب ، وقطعاناً تسعى ، ومراكب تطير ، ورغائب تُبتغى ، ولذائذ تُنال ، وأوسمة تناط ، وألقاباً تكتسب . ثم لا تدركهما بهؤلاء العبيد رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة . فصاحب الآلة يوفر لها الشحم والوقود ، ومالك البقرة يهيىء لها الحظيرة والعلف ، وهما لا يتركان لفلاحيهما المساكين ما يمسك الروح ويستر البدن ، ثم يلزمانهم أن يؤدوا أجرة الأرض ونفقة الإدارة قبل أن يأكلوا . فإذا أُوف (٢) الزرع أو رخص السعر وعجزوا عن الوفاء ، سلطا عليهم النظار والمحصرين فأخذوا الدور

(١) كظه الطعام ملأه حتى لا يطيق النفس (٢) أوف الزرع : أصابته الآفة

التي يأوون إليها ، والبهائم التي يزرعون عليها ، وخلفوهم فرائس للمرض والفاقة ، لا يجدون وسيلة للطب ولا حيلة للجوع . فإذا فزعوا إلى فضل الأمير أو الباشا زمّ بأنفه[1] واستكبر أن يفتح عينيه على هذا الهوان والقذر ! ولعله ساعتئذ كان يمسح خرطوم كلبه أو يرجّل عُرف جواده ![2]

سكان هذه القرى العشرين يعيشون هم وما شيتهم في أكواخ من اللّبن[3] لا تدخلها بهجة الطبيعة ولا تعودها رحمة الله . تقوم على أقذار البرك وفوق سباخ الأرض ، وعلى ظهورها المراحيض وفي بطونها المزابل . والمالكان المدلّلان يغطّان بين الحرير والذهب ، في قصور تطاول السماء ، ورياض تنافس الجنة ، ثم لا يتفضل أحدهما فيحمل الحكومة بجاهه ونفوذه على أن تجفف لهؤلاء البائسين بركة ، أو تنشئ لأطفالهم الضاوين مدرسة . وعلة حب الباشا للمستنقعات أن نفقة ردمها على حسابه ، وحجة بغضه للمدارس أنها تشغل الأطفال عن العمل في أرضه .

ارجعوا ياقوم إلى الله فقد طبّ لهذه الأدواء واحتاط لهذه الفواجع . إن هذا الأمير وذلك الباشا يملك كل منهما مليوناً من المال تحول عليه الأحوال فيزيد ولا ينقص . فلو أنهما يؤديان زكاته كما فرض الله لكان ما يدفعانه خمسين ألف جنيه كل سنة . ولو حبسنا هذا المال الوفر على هذه القرى العشرين لما بقي فيها فقير ولا مريض ولا جاهل . وإذن تشفى الصدور من الغل ، وتبرأ النفوس من الوهن ، فتكثر الأيدي ، وتشتد السواعد ، ويزيد الإنتاج ، ويزكو الريع ، ويردُّ عليهما ما أقرضا الله أضعافاً مضاعفة . ولكن أغنياءنا أبطرتهم نعمة الله فاستغنوا بجبروتهم عن رحمته ، وبملكوتهم عن جنته ، وبعبادهم عن عباده . وكأنهم أصبحوا يرون سعادتهم في شقاء الوطن ، وعزتهم في مذلة الناس !

---

(١) زم أنفه شمخ وتكبر (٢) يرجل الشعر : يسرحه ، والعرف شعر عنق الفرس (٣) اللبن : المضروب من الطين مربعاً للبناء (الطوب الأخضر)

ضحية من هذا ؟

« الآباء يأكلون الحصرم ، والأبناء يضرسون »

(٢٣ يناير سنة ١٩٣٩)

كنت فى مكتبي مساء الأمس أتحدث إلى قصصية شاعرة جاءت تهدى إلىّ قصة للتقريظ ، وإلى قصصى كاتب جاء يقدم إلىّ أقصوصة للنشر . وكان من مطارحات الحديث أن تكلمنا فى نصيب الخيال والواقع من قصة الأديبة وأقصوصة الأديب . وجرى على الألسنة الثلاثة كلام فى روعة الواقع المحض ، وزخرفة الفن البارع ، وجاذبية الخيال الممكن . وكأنما كان يدافع عن الحقيقة مدافع من وراء الغيب فأدخل علينا فتى ذاوى الفتوة ضارع الجسم ، ألف القدر من شقائه مأساة لا يحتاج الكاتب فى سردها إلى تلفيق خياله أو تزويق فنه .

قرأ هذا الشاب ما كتبناه فى الرسالة عن بعض من عرفنا من فرائس البؤس فظن لبراءة فكره وسلامة صدره أن ما نكتبه عن هذه المآسى الأليمة يصادف من أولى الأمر استماعاً واقتناعاً ورحمة ؛ فأراد آخر الرأى أن يُسمعهم أنينه الموجع من هذا المكان القريب . ولو علم فتانا أن القدرة صفة من لا يرحم ، وأن الرأفة خُلق من لا يستطيع ، لأدرك أن كبراءنا وأغنياءنا يقرأون مآسينا للتلهى والفن ، كما نقرأ نحن ملاهيهم للتسلى والعجب . فإذا كانت لهم عيون فعيونهم من غير دموع ! وإذا كانت لهم قلوب فقلوبهم من غير شفقة . ولكنه

أخذ يستريح إلينا بذكرِ ما كابد من باطن الهم ومكنون الأسى ، فأخذت الكاتبة تنهنه عبرة سالت على الخد ، وأخذ الكاتب يعجب أن يبلغ البؤس بالناس إلى هذا الحد ، وتركا إلى أن أقص عليك فصلاً من هذه الرواية

فى المنصورة أيضاً بلد المال والجمال والشعر ، سطر الدهر المصرّف فى سجل الألم الإنسانى هذه المأساة . كان أبوه من كبار التجار فى هذه المدينة ، وكانت يداه كيدَى الخازن الماهر فى المصرف العظيم تسيلان فى الأخذ والعطاء ورقا وفضّة وكان معدوداً فى سَراة القوم، يعيش عيش المترفين المسرفين ، يطلق نفسه فى العز ، ويقلب أهله فى النعيم ، وينشئ أطفاله السبعة على كبر النفس ورفعة الهوى وبُعد الأمل . واتسق له الحال وواتاه الحظ الناهض فظن أمره قد عظم على الأيام واعتصم من الطوارق ، فأغفل المواظبة والمراقبة ، وأهمل المراجعة والمحاسبة ، فصار الداخل لا يسجَّل ، والخارج لا يحصَّل . واجتمع عليه العدوّان السخيان : التاجر المصدِّر الذى يعطى ولا يأخذ اعتماداً على الضمان ، والشارى المستهلك الذى يأخذ ولا يعطى اتكالا على الأمانة وظلت الأمور تجرى فى مجاريها اليومية ، تفرغ صناديق البضاعة ليلاً فى المخازن ، ثم توزع على الناس نهاراً فى الحوانيت ، ولا يعلم إلا الله والتاجر مافى هذا الرواج العظيم من البوار ، وما يبطنه هذا الربح الموهوم من الخسارة .

وكان هذا الفتى وهو بكر أبيه قد نجح فى امتحان البكالوريا بقسمها العلمى حين نزلت بهذا التاجر المغرور علة فادحة وأعان المريض العلة على نفسه بما انكشف له من سوء الحال وظلام المستقبل فقضت عليه .

جلس الفتى فى المتجر مكانِ أبيه الراحل وهو يكفكف عبرات العين بالصبر ، ويخفف حسرات القلب بالرجاء ، وفى اعتقاده أنه سيبنى على أساس مكين ويصعد على رأس مال ضخم . فلما خطا الخطوة الأولى تفتحت أمامه

الهُوى[١] ، وتفجّرت حواليه النوازل ، فعاد ينظر فى المخازن و يبحث فى الدفاتر فوجد الخطر الذى لا يدفع ، والقضاء الذى لا يُرد . وحاول أن يتفق مع الغرماء والحرفاء[٢] ، فلم تساعده فداحة دَينه وطراءة سنه على الاتفاق ، فاستغرق بعض الدين كل التركة ، وأعلنت المحكمة إفلاس المتجر

وفى عشية وضحاها فقدت الأسرة المدلّلة وسيلتها للعيش ومكانتها فى المجتمع، فلم يعُد لها بعد الله عائل ولا وائل غير هذا الشاب وشهادة يحملها عليها طابع الحكومة وخاتم وزير المعارف بأنه تربى وتعلم ، فمن حقه أن يمارس شئون الناس ويلى أمور الدولة . فانتقل الفتى بأسرته إلى القاهرة ، ثم أخذ يقطع السبل المؤدية إلى الوزارات كل صباح وهو فخور بشهادته مدل بكفايته ، فلم يدع باباً من أبواب الدواوين إلا طرقه . ثم ألح فى الطرق رجاء أن يصيخ إليه سمع فلم يشعر بوجوده غير السعاة والحجاب ، فاتسعوا له حيناً ثم برموا به فنهروه وطردوه . وأدرك المسكين بعد لأى أن الشهادة من غير مدد ورقة عليها مداد فأخذ يلتمس الشفاعة عند أرباب السراوة والجاه . ولكن الشفاعة فى أيامنا أصبحت حرفة لا يبذلها الشفيع إلا لمن يبذل فيها المال أو العرض . فكان الفتى كلما سمع برجل من رجال النفوذ قصده وقص عليه قَصصه ، فلا يكاد الرجل العظيم يعلم أن له أخوات فى غيسان[٣] الشباب ، وأمّا لا تزال فى ربيع العمر ، حتى تحوم نفسهُ على الخِدْر الذليل ، فتثور الحمية بالفتى فلا يجد لها متنفّسا إلا البكاء والاختفاء .

والتمس البائس السبيل إلى العمل بالفكر و باليد فلم يوفق ، وأوشك أن ينفد ثمن الحلية الأخيرة من حلى أمه ؛ وخشى أن يختم الموت على الأفواه الثمانية الذابلة

---

(١) الهوى جمع هوة (٢) الغرماء : الدائنون . والحرفاء المعاملون (الزبائن)

(٣) غيسان الشباب أوله وحدته ونعمته .

فتقدم إلى العمل (فاعلاً) فى عمارة تبنى ، فرده (المقـــاول) لرقة جسمه ودقة عظامه !

فانكفأ الطريد بالفشل والخجل إلى أسرته اليائسة الولهى ؛ وباتوا جميعاً على الطوى والجوى يخلطون البكاء بالبكاء ، ويصلون الدعاء بالدعاء ، حتى سمعوا أن كلية من كليات الجامعة تطلب فراشين ، فتقدم صاحب الشهادة مع صاحب المكنسة ، وأمله كله ألا يُذاد عن هذا الملجأ الأخير !

وها هو ذا الآن فى قسم الكيمياء ينظف لرفقائه فى الدراسة المقاعد والمناضد بأجرة فى الشهر مقدارها مائة وأربعون قرشاً يحفظ بها أربعة أغراض وثمانية أرواح ! ولعله بفضل ما تعلّم من المعادلات واللوغارتمات لا يتعب كثيراً فى حساب هذا الدخل !

عيد الفقير

(٣٠ يناير سنة ١٩٣٩)

عيد الفقير ! وهل للفقير عيد ؟

نعم للفقير عيد إذا أردنا به الشعائر الدينية والقومية . فهو يصلى العيد ، ويزور المقبرة ، ويعيِّد على آله وصحبه ، ويُسكره السرور النافر على الإلمام ببيته وقلبه ، ويجعل من المساجد والحدائق والميادين مظاهر إخلاص وشكر لوطنه وربه

أما إذا أردنا بالعيد التقلب فى وثير الفراش من غير صلاة ، والتفنن فى ذبح الكباش من غير تضحية ، والتأنق فى الزينة والثياب ، والتفنن فى الطعام والشراب ، والتبسط فى اللذة واللهو ، والتهادى بين التيه والزهو ، فذلك عيد الباشا والأمير ، لا عيد المسكين والفقير

وارحمتا للفقير قبيل العيد ! يرى متاجر الملابس واللُّعب والحلوى قد ازّينت واجهاتها البلورية بالعروض الجذابة والنماذج المغرية ، فينظر إليها نظر الراغب المحروم ، ويذكر أطفاله الغارّين[1] فى جنانه وهم يحلمون بالثوب الجديد واللعبة المسلية والأكلة الشهية والنزهة الممتعة ، ويعتقدون أن أباهم قادر على أن يجعل عيدهم سعيداً وحلمهم يقظة ، فيسكرُبه الأسى وتصيح الحسرة فى نفسه بهذه الشكوى :

— حنانيك يارباه ! هذه نعمة واسعة سابغة ، ولكن القدر لحكمة لا يدركها البصر المحدود جعلها لغيرى لذةً بالقدرة ، ولنفسى ألماً بالعجز ، ولأولادى شقاء بالحرمان . فليت القدرة تعرف الرحمة ! وليت العجز يدرك المعونة ! وليت

---

(١) الغارون : الآمنون .

الحرمان يخطىء الطفولة ! وليت الأيام تمضى إلى غايتها من غير عيد ولا موسم !

إن الأعياد مذلة للوالد الفقير ، وفضيحة للبيت البائس ! ففى الأيام الأخر يستطيع العائل المسكين أن يغلق بابه على بؤسه ، ويروض أهله على مكروهه ؛ ولكنه فى العيد لا يستطيع أن يضرب على الآذان ، ولا أن يختم على العيون ، فإن المدافع تقصف فى القلاع ، والمزامير تعزف فى الشوارع ، والناس يزيطون فى الملاهى ، والأطفال فى المراكب والمواكب يرفلون فى الوشى ويلهون باللعب ، فأولاده لا بد سائلون :

يا أبانا ! أين الثوب الذى نلبس ، واللحم الذى نأكل ، والقرش الذى ننفق ؟ أهذا العيد لناس دون ناس ، أم هو ذو وجوه شتى منها العابس والباسم ، ومنها الدميم والحسن ؟ ولم آثرتنا نحن يا أبانا بهذا الوجه الشتيم الكالح ؟

لو كان هذا الرجل فى أمة مؤمنة محسنة لأجاب بنيه بقوله صبراً يا بنى ، فعما قليل يدخل عليكم باباكم (بيرم) أو عمكم (نويل) بالألطاف والحلوى والحلل من وقفية الباشا فلان ، أو من جمعية كذا للإحسان ؛ ولكنه يجيبهم بالدمعة الباردة ، والزفرة المحرقة ، والنظرة الحزينة ، فلا يفهمون إلا أنهم أحقر من هؤلاء الأطفال ، وأن أباهم أفقر من هؤلاء الرجال أما علة هذا التفاوت وإلهنا واحد ، وأبونا واحد ، وملكنا واحد ، ووطننا واحد ، فلعلها سيأتيهم مع الأيام إذا ما خرجوا بأنفسهم إلى الحياة فرأوا المكظوظ الذى غصب رغيف الجائع ، والملفف الذى نهب كساء العارى ، والمموَّل الذى سرق نصيب المحروم

* * *

حدثنى رجل من ذوى هذه الحال أنه كان يشتغل مياومة فى مصلحة من مصالح الحكومة ، فلما قل عليه العمل استغنوا عنه ، ولكنه لسوء حظه لم

يستطع أن يستغنى عن الأكل ، ولا أن يقنع أولاده بالصوم ، فراح يطلب العمل في كل مكان ، والمعونة من كل إنسان ، فلم يجد . ودخل عليه عيد الفطر من هذا العام وليس فى يديه مايشترى به الكسى لبنيه والسمك لزوجه وكان قبل نكبته بأسبوع قد وعد الكبار بالبدل والصغار بالهدايا ، فسبحت أخيلة الأطفال فى جو من الأحلام عجيب الألوان عبقرى الصور ؛ وأسرعت ألسنتهم الثرثارة إلى إشاعة ذلك فى الرفاق والجيرة فغم على الرجل الحال ، واعتلج فى صدره الهم ، وأصبح حيران لا يدرى مايقول ولا ما يفعل . تمنى الخروج من هذا المأزق بالمرض أو الموت ؛ ولكن المرض أو الموت إذا أصبح أمنيةً الفقير امتنع كالخير وعزّ كالسعادة . فاحتال على العلة بالجوع ، فصام النهار والليل حتى هجمت عيناه وانسرقت قواه و بانت عليه نهكة المرض .

ودخل العيد بضوضائه وخيلائه على هذه الأسرة البائسة فوجدها عاكفة على سرير مريضها الموجَع ، مضرَّمة الأنفاس ، لهيفة القلب ، لا أمل لها إلا أن يعافى عميدها ويحيا فانكفأ العيد النشوان المرح خجلان عن هذا المنظر الأليم إلى مجالى البهجة والنعيم فى قصور الكبراء والأغنياء والسادة . ولولا هذه الحيلة التى أنقذت هذا التعس بالمرض من غير موت ، لأشفى به الخجل والهم على الموت من غير مرض !

* * *

تباركت يا ألله ! لقد جعلت فى عيد الفطر زكاة وفى عيد النحر تضحية فهل فهم ذوو القلوب الغلف والبصائر العُمى من شرعك العادل أن الفقير يزكى بقوّته حتى يعجز ، والمسكين يضحى بصحته حتى يموت ؟ !

كيف نعالج الفقر

(٦ فبراير سنة ١٩٣٩)

سؤال طالما وقع فى روع النبيين والمصلحين والفلاسفة ممن يملكون القول والدعوة ، ولكنه لم يدر أبداً بخلد الأمير فلان والباشا علان والبيك ترتان ممن يملكون الفعل والتنفيذ . ومن بداهة العقل أن يفكر الأنبياء والحكماء فى معضلة الفقر ، فإنهم نشأوا فى مهده الخشن ، ودرجوا فى فنائه الضيق ، وعاشوا فى مرعاه الجديب ، ورأوا بأعينهم العبرى أثقال العيش تنوء بالظهور الضعيفة فتسقط فى طريق الحياة عرضة لزواحف الرذيلة وجراثيم المرض . ومن بداهة العقل كذلك أن تبقى معضلة الفقر من غير حل يطهر الأرض من سمومه ، وينقذ الناس من همومه ، فإن أرباب الحكم والتشريع والتنفيذ هم من سلائل النعمة وكناز المال ، فلا يخطرون ببالهم الفقر ، ولا يحطبون فى حبالهم الفقير ؛ وهم يظنون إذا محا الإحسان الفاقة ، ونفى التعليم الجهالة ، أنهم لا يجدون الخدم ولا يملكون العبيد . والجاه من غير أذلاء يرمقونه زفة من غير نظارة ، والمال من غير فقراء يعبدونه ملك بلا رعية !

من أجل ذلك كان فزع الناس إلى الأقوياء من عوادى الفاقة تزييفاً على الطبع وتكليفاً بالمحال . ومن أجل ذلك كان تنظيم العلاقة بين القوة والضعف ، وبين الغنى والفقر ، عملا من أعمال الله وحده ، يرفه عليه النفوس ويرفع به الإنسانية ، ويجمّل به الحياة . فإذا حاربنا الفاقة بسلاح الاقتصاد المحض كتدبير النظام وتوسيع الموارد وتوزيع العمل ، وأغفلنا أثر الحظوظ

والميول والأحوال والأمراض فى حياة المرء ، فقتلنا الفقر بقتل الفقير ، كما يقتل الطبيب المرض بقتل المريض . إنما يحارب الفقر بسلاح الدين ليس غير وسلاح الدين فى مجاهدة البؤس أنه يجعل للفقير فى مال الغنى حقاً معلوماً لا يصح إسلامه إلا باعتقاده وأدائه : وأنه يقوى الإنسانية فى الإنسان حتى يشعر بالأخوة لكل مسكين ، وبالرحمة لكل بائس . وبقوة الإنسانية وحدها فى الدول المتدينة كانجلترا وأمريكا أوشك البؤس أن يزول ، فوجد كل مريض مستشفى ، وكل هرم ملجأ ، وكل يتيم مدرسة . وقد بلغ ما أنفقته الحكومة الإنجليزية على أعمال البر فى سنة من السنين ثلثمائة مليون جنيه ، ولا يقل ما يتبرع به الشعب البريطانى للمستشفيات وحدها عن خمسين مليون جنيه فى العام !

الدين هو الطب الوحيد لأدواء المجتمع . فإذا غرستموه فى قلوب النشء ، وقويتموه فى نفوس الشباب ، جعل من الأمة أسرة متماسكة البناء متضامنة الأعضاء ، يعين سعيدها الشقى ، ويحمل قادرها العاجز ، حتى يقطعوا مراحل الحياة رافهين لا يمسهم نصب ، ولا تجافى بينهم عدواة

مَن غير الله يستطيع أن يرقق هذه الكبد الغليظة فى هذا الغنى البطان الذى غلا فى الكبر ، ولج فى الهوى ، ودلل نفسه على ذل الناس ، وأمسك رزق الله فى خزائنه فلا يطلقه إلا لشهوة أو نزوة ؟

مَن غير الله يستطيع أن يقلب العبر على عينى هذا المغرور فيريه بالشكل والمرض والهم أن الراحة فى النفس ألذ منها فى الجسم ، وأن الجمال فى الرحمة أسمى منه فى الجبروت ، وأن السعادة فى الإعطاء أعظم منها فى الأخذ ، وأن خيرما فى الدنيا هو ما انتقل معه إلى الآخرة ؟

هيهات أن يكون فى الأرض إيمان ما دام فى الأرض فقر ! فإن أسباب

الفقر ممدودة من الطمع والشح والأثرة وهذه الخلال السوء لاتطمئن عليها نفس مؤمنة . وإن من ضلال الأفهام أو الأقلام أن نعالج الفقر على أنه ناجم من ندرة العمل فى البلد أو قلة الخير فى الدنيا ، فإن العمل ميسور للقادر ، ورزق الله موفور للحى . وإذا شكت الأمم اكتظاظ المعامل ونضوب الموارد وضيق الرقعة ، فان مصر الجديدة البكر بينها وبين هذه الشكوى أن تعمر المصانع والمعامل والمتاجر والمصارف والشركات ، وما بالقليل ذلك .

لاتطلبوا من الفقير العمل قبل أن توفروا له القدرة عليه . إنه جاهل فاشرعوا له منهل العلم ؛ وإنه عليل فانهجوا له سبيل الصحة ؛ وإنه معدم فدبروا له رأس المال . ومن بلادة الحس أن الغنى يسمعك وأنت تقرأ هذا الكلام ، فلا يظن المخاطَب به أحداً غير الحكومة ، فيشارك فى النقد ، ويسرف فى الإنكار ، ويلح فى الطلب ، لأن الحكومة فى رأيه يجب أن تلبى كل نداء ، وأن تؤدى كل واجب. والحكومة لو درى هذا المتواكل القدم لاتتسع مواردها لكل رغبة ؛ فانها لم تجب منه ومن أمثاله إلا حق العمارة والأمن ؛ أما حق الله عنده فقد وكلت أداءه إلى ضميره ؛ يعطيه متى يشاء وكيف يشاء ؛ ولكن الضمائر نامت على هدهدة الشهوات ، والعواطف قست على جفاف المادة ؛ وبين غفوة الضمير ، وقسوة العاطفة ذهب وازع الدين فلم يبق إلا وازع السلطان .

فهل يفكر أولو الأمر أن يعالجوا الفقر بما عالجه الله به فيجبوا الزكاة وينظموا الإحسان ؟ إنهم إن يفعلوا ذلك لايجدوا فى البيوت عائلاً ، ولا فى الطريق سائلاً ، ولا فى السجون قاتلاً ، ولا فى المواخير ساقطة !

يأذن الحق اسمعي!

(١٣ فبراير سنة ١٩٣٩)

أوشكت صفحات الرسالة أن تحترق لطول ما أنَّ عليها الفقر وزفر فيها الشقاء ، وأغنياؤنا — أحياهم الله — لايسمعون لأن آذانهم مبطنة بالذهب الأصم ، ولايشعرون لأن قلوبهم مغلفة بالورق المالي الصفيق . وبال الخليّ أطول من ليل الشجيّ ؛ وسمع الناعم أثقل من همّ الشقي ، ودنيا اللذة أشغل بمباهجها وملاهيها عن دنيا الألم !

لعل من القارئين من يختلج في رأسه هذا السؤال :

لماذا يمتد نفسي بهذا الأنين الموجع ، و يستمد قلمي من هذا الدمع القاني ؟ وجوابي أني نشأت في قرية من أولئك القرى المشرين التي سلط القدر عليها الباشا والأمير [1] ؛ فانشق بصري على مناظر البؤس ، وتنبّه شعوري على مآسي الجور . وعلمت حين تعلمت أن وطننا يفيض بالخير ، وديننا يأمر بالإحسان ، فأيقنت أن فقر الناس ، ناشيء من فقر الإحساس فإذا طلب الفقير حقه ، وأدّى الغني واجبه ، تلاقت الأنفس على حدود الإنسانية الكريمة . فأنا أحاول بمواصلة هذا الأنين أن أعالج وقْر المسامع وسدرَ العيون وخدَر المشاعر ، عسى أن يتذكر المترفون أن لهم إخوة من خلق الله يأكلون ماتعاف الكلاب من المآكل ، و ينامون مع الحيوان في المزابل . و يقاسون من الأدواء مالا يقاسيه

---

(١) أنظر مقال « بين الفقير والغني »

حىّ فى غير مصر . ولكنى علمت واحمرتاه بعد أشهرين مضيا فى الشكوى والإسترحام ، أن بين أبناء الذهب وأبناء التراب أطباقا من اللحم والشحم الحديد والأسمنت ترتدعنها أصوات الضارعين أصداء خافتــــة ، ثم تتجاوب هـذه الأصـداء فى أكواخ المساكين ثم تتهـافت على بريد الرســالة تهافت الأرواح الهائمة على الشعاع الهـادى تتلمس فى ضوئه الطريق إلى الله وائل الضعيف وعائل المعدم !

تمثال السائلة ،وكم تمثال لها فى مصر من لحم ودم ! !

من لنا بمن يفتح عيون السادرين على هؤلاء الأيامى اللاتى يقضين ليل الشتاء البارد الطويل على بلاط الأفاريز وقدتطرح أطفالهن على جنوبهن طاوين ضاوين لا يفهمون عطف الأب ، ولا يعرفون دفء البيت ، ولا يدركون إلا أنهم

أجساد تعرى ولا تجد الكساء ، و بطون تخوى ولا تصيب الغذاء ، وأكف تمتد ولا تنال الصدقة ؟

من لنا بمن يفتح قلوب المالكين لأولئك الفلاحين الذين اصطلحت عليهم محن الدنيا و بلايا العيش وجهلتهم الحكومة فلا يعرفهم إلا جباة الضرائب فى المالية ، وفرازو القرعة فى الحربية ، وحراس السجون فى الداخلية !

أما المعارف والصحة والأوقاف والأشغال فشأنهما شأن المترفين والمثقفين لا تعرف غير المدينة ولا تعامل غير المتمدن ؟

من لنا بمن يقول لهؤلاء المثرين المستكبرين : إن ركفلر ورتشلد لم يرفعهما إلا حب الإنسان ؛ وإن الدمرداش والمنشاوى لم يخلدهما إلا بذل الإحسان ، و إن لديهم من فضلات الثروة كربح الأموال فى المصارف ، ومكافأة النيابة فى البرلمان ، وحثالة الزروع فى العزب من التبن والقش والحطب ، ما يوفر الغذاء والدواء والعلم لألوف الألوف من بنى الوطن ؟

بالأمس كانت ذكرى وفاة المرحوم السيد عبد الرحيم الدمرداش ، وهو والمنشاوى وبدراوى سمنود من ملائكة الأرض يرفرفون بأجنحتهم النورانية على شقاء كثير من الناس . فلماذا لا يقام لهؤلاء الخيِّرين البررة وأمثالهم تماثيل فى الميادين العامة ، ليتشبه بهم الغنى ، ويترحم عليهم الفقير ؛ وليكون فى رفع ذكراهم على هذا النحو إعلان لمعنى الإحسان ، و إطراء لأريحية المحسن ، وتفريق بين من دلله الوطن فعق ، و بين من رباه الوطن فبرّ ، فلا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ولا ينبغى « أن يكون المحسن والمسىء بمنزلة سواء ، فإن فى ذلك تزهيداً للمحسن فى إحسانه ، وتدريباً للمسىء على إساءته » .

الطفولة المعذبة

(٢٠ فبراير ١٩٣٩)

في الأقوال السائرة أن الفقير كلما طلب من الله قرشاً أعطاه كرشاً . وفي ذلك حكمة للعليم الحكيم تستسرُّ دلائلها على الفطن المحدودة . فإن قوام العيش ونظام الدنيا منوطان بالسعي المرهق والعمل المَهين ، وهذان لا يقوم بهما إلا الكثرة ، ولا يحفز عليهما غير الحاجة . والغنيُّ المترف يحسب أن يديه لم تخلقا إلا لصرف النقود وقطف الخدود ورفع الكأس ، فمثله كمثل السبع من الوحش والطير : يُهلك ولا ينتج ، ويدمر ولا يعمر . فكان من صلاح الأرض أنْ يقل نسله كما يقل نسل الأسود والنمور ، ويكثر نسل الفقير كما يكثر نسل الضأن والبقر . ولكن حكمة الله ضاعت في غفلة الناس ، فبغى الغنى على الفقير حتى أصبح — وهو مصدر الإنتاج في النسل والحرث — مفدوحاً بحمله فلا ينهض ، ومكدوداً بعمله فلا يستطيع ثم نبا كوخه الجديب الضيق عن بنيه فدرجوا في أفاريز الشوارع وزوايا الطرق وعليهم هلاهل من أخلاق الثياب تهتكت على الصدور والجوانب يستندُون الأكف بالسؤال ، أو يستدرُّون الجيوب بالسرقة ، أو يأكلون ما طرح الناس من فضلات الطعام في المزابل

هؤلاء الأطفال المشردون هم الذين تراهم يطوفون طول النهار وثلثي الليل على القهوات والحانات ، كما تطوف الكلاب والهررة على دكاكين الجزارة ومطاعم العامة ، وهمهم أن يصيبوا ما يسد الرمق ويمسك الحياة فإذا أغلقت المقهوات وهجعت المدينة تساقطوا من السغوب واللغوب على العتبات وفي الحنايا

وتحت الجدُر ، فيقضون آخر الليل يتداخل بعضهم فى بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا عصفت الريح أو قرس البرد

هؤلاء الأطفال المهملون هم الذين يستغل ذكاءهم تجار الرذيلة وسماسرة الجريمة ، يسلطونهم على القلوب البريئة والجيوب الآمنة ، فيسلبونها العفة والمال ، ثم لا يكون نصيبهم من هذه الثمار المحرمة إلا الخوف والجوع والأذى والمطاردة .

من مناظر المشردين

يغرون الصبيان بالشر ، ويوزعون المخدر فى السر ، ويسرقون السابلة بالحيلة ، ويستجدُون الجلاس بالرحمة ، ويجمعون الأعقاب من الطرق ، وكل أولئك لطغمة من المتعطلين يتعقبونهم بعين النسر من بعيد ، حتى إذا أخذوا ما معهم تركوهم لأهوال الليل ، فإذا خشوا منهم نفاراً أو فراراً كدسوهم فى أقباء المنازل المهجورة ، فلا تدركهم عين الشرطة ، ولا تنالهم رعاية البر

ولا أدرى كيف سالت على قلمى كلمة البر هنا ، وهى لو كانت فى لغة

الناس لما كان كل هذا !

إن سادتنا المترفين ليأنفون أن تقع أعينهم على هذا القبح ، وتدنو أثوابهم من هذا القذر ، فهم ينهرونهم كما ينهرون الكلاب ، ويذبونهم كما يذبون الذباب ، ويفورون غضباً على الحكومة أن تسمح لهذه الحشرات أن تدب على الطرق المغسولة ، أو تحوم حول الموائد المزدانة !

شقّ الله هذه الأشداق المنفوخة ياسادة ! إن هؤلاء الأطفال الذين يحملون العُلب بالأصباغ[1] ، أذكى من أطفالكم الذين يحملون القماطر بالكتب . وإن عباقرة العالم فى الأدب والفن والعلم والحكم ، قد وُلدوا كهؤلاء فى مهاد اليتم والعُدم ، ونشأوا فى حجور الألم والفاقة ، فاضطرهم الشقاء الباكر أن يعرفوا أن لهم أذهانا للتفكير ، وعقولا للتدبير ، وأيديا للعمل ؛ ففكروا ثم قدّروا ثم عملوا ، فكان من أثرهم هذه الدنيا ، ومن سيرهم هذا التقدم أما أبناؤكم أبناء الدعة والسعة والرفاهة فانتفى عنهم العمل لقلة الحاجة ، وضعفت فيهم أداته لكثرة البطالة ، فأصبح المخ مستويا أملس كالصحيفة ، والجسم صقيلاً أملط كالديباجة ، واليد رقيقة رفافة كالزنبقة فهم تماثيل ناطقة للغباء الأنيق ، تَطعم وتنعم وتلهو على حساب الفقير الذى يعمل ولا يأكل ، والأجير الذى يشقى ولا ينال !

يالله ! ماذنب هذا الطفل الشريد الذى تتحامون مسّه وتتفادون مرآه إذا كان القدر اختار له ذلك الأب البائس الذى يتزوج ولا يعاشر ، ثم يلد ولا يعُول ؟ هل من طبيعة الحى أن يلقى أفلاذ كبده مختاراً فى مدارج الطرق تطأها الأقدام وتتحيفها المكاره ؟ هل تستطيعون أن تجدوا لذلك ، إذا وقع ، علةً غير الفقر الذى يحمل الأب فى أزمات القحط والحرب على بيع بنيه

(١) مساحو الأحذية

وأكل بنـاته ؟ فإذا كنتم تشفقون على نعيم عيشكم من رؤية البـؤس ، وتخشون على جمـال حياتـكم دمامة الفقر ، وتضنون بسلام وطنكم على أدواء التشرد ، فاقتحموا على الفقر مكامنه فى أكواخ الأيامى وأعشاش العجزة ، ثم قيدوه بالإحسان المنظم فى المدارس ، والصـدقة الجارية فى الملاجىء ، تجدوا بعدئذ أن الدنيا جميلة فى كل عين ، وأن الحياة بهيجة فى كل قلب ، وتشعروا أن روحاً عامة قد وصلت بين جميع الأرواح فأصبـح الشعب كله جسماً حياً متآلفاً متـكافلاً تتغذى خلياته بدم واحد ، وتتساير نياته إلى غاية واحدة !

غنى فقير...!

(٢٧ فبراير سنة ١٩٣٩)

قد يكون مع بعض الفقر عزاء ورجاء وسكينة ؛ ولكن فقر هذا الغنى البائس الذى سأقص عليك نبأه ألمٌ لا يهاوِن وهمٌ لا يهادن ، وحمّى لا تُقلع[1]

سأسوق إليك خبر هذا المسكين بقلمى لا بقلمه ، فإن الرسالة التى كتبها إلىَّ كلماتٌ كحسرات النادم لا تتصل ، ومقاطع كأنات المحتضر لا تبين .. على أنى سأحاول ترجمتها لك ترجمة الشعور للشعور ، لا ترجمة اللفظ للفظ ، لترى كيف يشقى المرء بخطأ نفسه أكثر مما يشقى بخطأ غيره .

قال بعد أن سلم وعظم وشكر :

« قرأت وأنا فى وحدتى السامة وعلتى القاتلة ما كتبتَ من مآسى الحياة فى الرسالة ، فراعنى أن يبلغ البؤس ببعض النفوس إلى هذا الحد ، وفى أرض الله رزق لا ينضب ، وفى يد الناس مال لا ينفد !

ولا أكذبُ الله لم أفطن إلى معنى الحرمان والإحسان إلا بعد أن نيفت على الستين وأقعدنى الكساح ، وسلبنى حريتى وثروتى وغبطتى مَن جعلت حياتى له ووضعت أملى فيه

أنا أملك ربع مليون من حر المال وخالص الذهب . وكان يخيل إلىَّ قبل أن ينكشف الغطاء عن العين أنى أسبح فى بحر أحمر لا أدرى أكانت حمرته من الذهب أم من الدم أم من الدموع ، فإنى كنت مصمت القلب لا يختلج

---

(١) أقلعت الحمى عن فلان : تركته

فيه شعور ولا ترف عليه عاطفة. فلما بلغت الشاطىء لأستجم وجدتنى على ساحل الحياة، هنا الموت الراصد، وهنا المرض المثْبِت [١]، وهنا الضمير المعذب، وهنا الوارث الحاقد الذى دفننى وأنا أشعر، وورثنى وأنا أنظر، وحرمنى وأنا أريد فاذا كان فى بؤس الفقراء مايستدرّ ماء العيون، فإن فى ذل الأغنياء مايذيب شغاف الأفئدة!

أتدرى كيف جمعت هذا المال ياسيدى؟ جمعته بالسعى الدائب، والتدبير المعجز، والربا الفاحش، والشح الدنىء، والتقتير المهلك. ثم أمات الله فى نفسى نوازع الأبوة والقرابة والإنسانية فلم تبضّ يدى فى سبيل شىء من ذلك، فنما المال واتسع وامتد حتى صرفنى عن الناس وشغلنى عن العالم. ثم حسبتنى بهذا الثراء الضخم أستطيع أن أشترى السعادة والسيادة والإيمان والجنة، فإذا بى واحسرتاه أملك مفاتيح قارون ولاأملك عصاموسى!

كان رأس مالى جنيهات معدودات ادخرتها من نفقاتى وأنا طالب بالأزهر. فلما عدت إلى بلدى استثمرتها فى الربا والتجارة، فكنت أقرض الزراع المأزومين والعمال المعوزين والتواجر الأرامل بربا قدره خمسة قروش فى الشهر للجنيه الواحد. ثم اتخذتُ من فناء بيتى قنًّا للدواجن، ومن سطحه مزرعة للبقول: فكنت أبيع الدجاج والأرانب من تحته، والفجل والكراث من فوقه. وألححت على نفسى بكبت الشهوة وقتل الرغبة إذ اعتدتُ على المال، حتى كنت أرى الفاكهة عند الفاكهانى فأتقزز، وأبصر اللحم عند القصاب فأهوع [٢]، ولكنى إذا لمحتهما فى يد إنسان تبعتهما نفسى وتحلب عليهما فمى. ثم اقتنيت العقار والضياع: أكثرها بغلق [٣] الرهان وأقلها بالشراء؛ وقمت عليها أحسن القيام بالرعاية

---

(١) المرض المثبت هو الذى يمنع من الحركة (٢) أهوع: أقىء

(٣) غلق الرهن إذا لم يقدر الراهن على افتكاكه فى الوقت المشروط

والجباية والتوفير حتى غدت غلتها سيلاً لا ينقطع عن الأهراء[1] والخزائن ثم فرضت نفقة أسرتي من الطعام والإدام على مستأجري المزارع والدكاكين يؤدونها فوق الأجرة يوماً بيوم ؛ واقتصرت في غذائي على الأبيضين : الماء والثريد ، وفي كسوتي على جلاليب من القطن للبيت والغيط ، وبدلة من الصوف للاحتفال والسفر . ثم وقع في نفسي أن حماية هذه الثروة العريضة لابد لها من لقب (بك) فاشتريته أيام كانوا يبيعون الألقاب ، بقبضة من الذهب . ثم شيّدت قصراً وبنيت دوّاراً وجعلت في رأسه دائرة . فاتسع النفوذ وامتد السلطان وصرت آمر ولا أرجو ، وأغتصب ولا أختلس ورأيت الناس يلقونني بالإجلال والهيبة لفخامة اللقب وضخامة الثروة ، فازدادت نفسي شراهة ويدي كزازة وأفرط عليّ الغنى فغطى على بصيرتي وبصري ، فلم أعرف أن ليَ ديناً له حرمة ، وزوجة لها حق ، وأولاداً لهم رعاية . وعشت لنفسي بل لمالي ، أقضي النهار له ، وأسهر الليل عليه ، حتى كرهتني أسرتي ، وحقّرتني عشيرتي ، وسئمتني حياتي وأصبت بمرض عُقام برى عظام ساقي وفخذي فلم أستطع المشي ولا النهوض .فاستولى ولدي البكر على مفاتح الكنوز وأضفى على نفسه وزوجه وأمه وأخواته الذهب والحرير والنعيم والأبهة ، وتركوني سطيحة في حجرة منعزلة لايدخلها عليّ إلا الخادم بالماء والثريد والقهوة ولا أدري لماذا استعرَتْ في نفسي اليوم شهوة الأكل ورغبة المتاع ؟ فأنا أشتهي كل شيء ، وأبتغي كل معنى . ثم أنظر في يدي الجماعة الكسوب فإذا هي معروقة كيد المسلول ، فارغة كراحة السائل وأدور بعيني في الحجرة الموحشة فأرى أطياف الذين لجمتهم في أموالهم وآمالهم تخفق على الجدران ساهمة حزينة ،

---

(١) الأهراء جمع هرى وهو مخزن القمح

فأتذكر كم مدين أغرقت ، وكم بيت أغلقت ، وكم قلب سحقت ، فتنهل مدامعى انهلالَ القطْر على خدى الغائر الشاحب ، وأتمنى لو تعود قدرتى على ثروتى فأمحص خطاياى بانفاقها كلها فى سبيل الله . ولـكن هيهات هيهات لما أرجو ! لم يبق لى منها إلا حريق القلب فى الدنيا وحريق الجسم فى الآخرة ! حتى الدواء لا أناله ، وحتى الـكفن لا أرجوه ! وكأنما أمات الله نصفىَ الساعى وأبقى على نصفى الواعى لأدرك بعينى وفكرى وخيالى مضّ الألم الذى يحسه المظلوم يغتصب ولا يُستطيع أن يدفع ، والمحروم يتشهى ولايستطيع أن يجد ، والمهموم يتلظى ولا يملك أن يموت » .

ثم يلى ذلك شكوى ضارعة من زوجه الفارك(١) وابنه القاسى ، وصهره المتعجرف ، لاتتسع لها الصفحة !

* * *

سيدى البك ! إن حالك لاتغنى فيها دمعة تذرف ولا كلمة تقال . أدع الله معى أن يتغمد خطاياك بالعفو ، وأن يقطع بلاياك بالموت . ولئن كنت فى حياتك للضعيف شقاء وللاهل حسرة ، فانك فى موتك للفقير عزاء وللغنى عبرة !

---

(١) امرأة فارك : تبغض زوجها

منطق الغنى

(٦ مارس ١٩٣٩)

لقيت أول أمس على قهوة « أتينيوس » بالأسكندرية رجلاً من نابهي النواب أعرفه معرفة لا تقرّب ولا تبعدّ هـذا الرجل ينزع بطبعه منزع الارستقراطيين في نمط العيش وأسلوب التفكير ورونق المظهر ؛ فهو يتجمل بالزينة ، ويتنبل في الـكلام ، ولا ينفك يعلك ألفاظ المثرين المترفين كالبنك والبرصة والسيارة والخيل والسباق والسهرات والحفلات والملاهي حتى لتظنه المرجع الحجة في أولئك جميعاً ونباهة هذا النائب لم تأته عن طريق الفطنة أو الخبرة أو الـكياسة ، وإنما أتته عن طريق التهويش والتهريج والسياسة . فهو في مجلس النواب جزء من كرسيه لا يتحرك ولا ينبس ؛ ولـكنه في الأمور الحزبية والأنتخابية ولاّج خرّاج ، يجذب الزعماء بالمـآدب الصاخبة ، ويخلب الناخبين بالوعود الـكاذبة ، ويدرج بالدعوى والدعاية من قهوة إلى قهوة .

قال بعد أن تبجح طويلاً بقوة أثره في توجيه المجلس وتسفيه المعارضة وتنظيم النادى وتقويم الحـكومة

— مالك وللأغنياء توغر عليهم صدور الصناع والزراع والخدم ؟

— عجيب ! وهل تقرأ الرسالة ؟

— إنما يقرأها ابني وابنتي ؛ وهما متأثران بها ومشايعان لها ، ولا يزالان يجادلانني فيما تـكتب وتطلب حتى أترك لهما الدار . فهل تريد أن يكون الناس كلهم سواء في الثروة ، وليسوا كما تعلم سواء في الذكاء والقوة ؟

— ياسيدى ما اعتقدنا ذلك ولا كتبناه . فإنا نؤمن بالغنى والفقر كما نؤمن بالقضاء والقدر والتفاوت فى الطبع والكفاية والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر فى الطبيعة ، ونظام مَسلم فى الدين ؛ ولكننا نحاول أن نُذَكر الأغنياء أن الله الذى خلقهم وخلق الفقراء قد جعل جُمعة ما بينهم وبينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة يكفل المخالصة ويضمن السلامة . فأذا تعهدوا هذه الصلة الإلهية بالبر، فمنح القادر العاجزَ روحاً[1] من قواه، ونفح الواجدُ الفاقدقليلاً من جدواه، سارت القافلة الإنسانية فى طريقها إلى الكمال الممكن غير ظلعاء ولا وانية وإذا أردنا المساواة فأنما نريدها فى الحق والواجب ، وإذا ذكرنا المشاركة فأنما نذكرها فى حدود الإحسان والزكاة .

— الإحسان يغرى بالكسل ويعين على بقاء الفاسد . والفقير فى أكثر أمره عليل الجسم أو العقل ؛ فلم لا يكون من الخير أن يُترك للحرمان حتى يذبل ويسقط ؟

— إذا استطعت أن تنفذ هذا الرأى فى أسرتك الخاصة ، استطعنا أن ننفذه فى أسرتنا العامة . فهل فى مقدورك أن تترك ابنك المعلول الذى لا يبرأ ، وأخاك المخبول الذى لا يعى ، حتى تعصف بهما المنون كما تعصف ريح الخريف بالورق الجفيف ؟

— ما أظن القلب يطيع العقل فى ذلك .

— ومن قال لك إن العقل يخولك حق الله على خلقه ؟ إن للفقير حق الحياة وليس لك عليه حق الموت . والله الذى خلق الكون خلق الفساد وجعل لكل منهما قوانين يجرى عليها فى الطبيعة . وستنالك أنت على الرغم من قوتك

---

(١) الروح : المساعدة والرحمة .

وغناك عوامل الذوىّ والبلى ، فهل تقبل من ذوى رحمك ووارثى مالك أن يدعوك فريسة الهرم والمرض ، كما يدع القطيع الحمارَ المحموم فى القفر الجديب ؟

* * *

رأى صاحبى أن هناك مدارك من فهم الحياة استعجمت على ذهنه الشارد فضمغم بعض الجواب و بيّن بعضه الآخر حين قال :

ولكننى أعلم أن الزكاة فى أوربا ليست مشروعة ولا مجموعة ، ومع ذلك تجد الفقر محمولاً والحياة آمنة فكل إنسان يعمل ، وكل حى يعيش

— لا يغرنك ياسيدى مما تعلم من ظواهر الحياة الأوربية ، فإن مدنيتها طلاء على صدوع ، وكبرياء على خضوع . ولولا قيام الأديرة بجمع الصدقة وتنظيم الإحسان ، ونهوضُ الحكومات لحماية العجز وتوفير العمل ، لرأيت البؤس كرمز الموت هيكلاً بادى العظام لا تستره أثواب ولا تحجبه أبواب

— وما قولك فى أمريكا ؟ أليست المسافة فيها بين الفقراء والأغنياء كالمسافة بين الأرض والسماء ؟ ومع ذلك لا تجد بين هؤلاء وهؤلاء حسداً ولا ضغينة

— عفواً ياصاحب العزة ! لقد عرفت القياس وأنكرت الفارق . إن أكثر المنافع فى أمريكا من فضل الغنى فكيف يبطن الفقير له الغل وهو يتعلم فى مدرسته طفلا ، ويعمل فى مصنعه رجلاً ، ويتداوى فى مستشفاه مريضاً ، ويأوى إلى ملجئه شيخاً ؟ إن صاحب الملايين فى الدنيا الجديدة هو مثل الإنسان الأعلى أثرى بالكد والإيمان والكفاية ، ودبر ثراءه على قواعد الوطنية والإنسانية والدين ؛ فكان حربا على الجهل والبؤس والشر ، وعاملاً للسلام والوئام والمحبة . أما أغنياؤنا فمثال الطمع الجرىء والشح الدنىء والصلف العاتى :

أثروا بالإرث أو بالحرص أو بالحظ أو بالحيلة ، ثم كدروا صفو الحياة على الفقير ، فهم يزاحمونه على المجانية فى المدارس ، ويغلبونه على الوظائف فى الدواوين ، ويدوسونه بسياراتهم فى الشوارع ، ويسلبونه بطماعيتهم فى المزارع ، ويصدونه عن البرلمان حتى لا يكون لغير أفواههم سميع ، ولا يصدر بغير إرادتهم تشريع

ونظر صاحبى فى ساعته ذات السوار ، ونظرت أنا إلى البحر الأبيض فإذا هو يمور ويفور ، والصيادون المساكين يكافحون العاصفة ليصيدوا لهذا الغنى المبطان لوناً من الطعام تكمل به مائدته الموقَرةُ الحافلة !

ثم افترقنا وكل منا على رأيه !

رسالة الأزهر

(٢٧ مارس سنة ١٩٣٩)

دار الرسالة والفضل لله — ملتقى مفكرى الإسلام العرب وغير العرب، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. يزورونها أول ما يزورون من معاهد الثقافة بالقاهرة، فنتناقل الحديث و نتذاكر الرأى فى موقف المسلمين اليوم من قراع المذاهب، وصراع القوى، واهتلاك الدول فى التسلح بالعلم والدعاية والعدة، واحتفاز الأمم فى التقوّى بالتعلم والعمل والإنتاج، فنتبين من وراء الحديث أن الإسلام فى غير بلاد العرب خَلْط عجيب من العقيدة السالفة، والصوفية الزائفة، والأساطير الموروثة، والتفاسير الخاطئة؛ ثم استحال هذا الخلط على تراخى الزمن وانقطاع الصلة واستعجام اللسان إلى مُرْقِد يعوق عن السعى، ويمنع من النظر، ويصد عن الفكر، ويذهل شاربيه عن حركة الوجود وسير الفلك. فالمسلمون فى ألبانيا ويوغوسلافيا من بلاد المغرب، وفى الصين وجزائر الهند من بلاد المشرق، يتميزون عن مواطنيهم بزهادة كالبلادة، وجهالة كالموت، وتوكل كالتواكل؛ ويتوهمون أن الإسلام ليس من شأنه الدنيا، وأن المسلم ليس من همه المادة، وأن ماهم فيه من رَنَق العقيدة وظلام الفكر وَخدر الشعور إنما هو روح الدين ورضا الله وطريق الجنة. ثم لايعدمون أن يجدوا مصدقاً لما يزعمون فيما يقرأون من الأحاديث الموضوعة والأخبار المصنوعة والأقوال الملفقة؛ فان من محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه، أن امتزجت به كل نحلة، وسرت إليه كل علة، وتراءت فيه كل حالة؛ فكل امرىء واجد فيه ما يلائم استعداده

ويناسب فهمه . وإذا كان ذلك حاصلاً بين العرب وهم أصحاب الدين وأهل اللغة فما ظنك بغيرهم ممن بلغتهم الدعوة مترجمة عن طريق الفرس أو عن طريق الترك بالتجارة أو بالفتح ؟

لقد عصفت بالعالم كله عواصف هوجٌ من السياسة والاقتصاد فلم تدع فيه ساكنا إلا حركته ، ولا باليا إلا جرفته ، وكان لابد للعالم الإسلامى أن يهب على دوى هذه الزعازع ، فنهض شبابه يستعدون بعدة الناس ، ويتجهزون بجهاز العصر ، ولكن شيوخه الوانين أخذوا يعوّقونهم عن الأهبة والسعى بكلام ينسبونه إلى الله والله منه برىء . ثم كان من أثر تلك الهبّة العامة ، وهذه الحالة الخاصة ، أن نفر من كل قطر من أقطار الأرض طائفةٌ من شباب الإسلام إلى مصر ليتفقهوا فى الدين ويتضلعوا من اللغة ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، فيكونوا شهادة صادقة لحقيقة الإسلام ، وقدوة صالحة لنهضة أهله .

* * *

ومصر اليوم وقبل اليوم هى بفضل الأزهر موئل اللغة ومعقل الدين ومسرق الهداية . والأزهر على الرغم مما يؤخذ عليه ، هو بفضل ما مكن الله له فى التاريخ ؛ وهيأ له من الموضع ، وأتاح له من المال ، أقدر على تبليغ الرسالة العظمى ، وتوجيه الأمة الكبرى ، وتصحيح العقيدة العليا ، إذا صدق رجاله الجهـــاد وأخلصوا النية وأحسنوا العمل ، وذكروا أنهم جنود الله يرمى بهم العدو فى كل وقت وفى كل أرض وفى أى صورة ، فيعيشون للموت كالجندى ، ويعملون للحياة كالقادة ، ويعزفون عن الدنيا كالرسل والإمام المراغى هو فى رأينا خير من يضطلع بما يفهم المثقفون من رسالة الأزهر إذا لم ينله ما نال الأستاذ محمد عبده من اضطراب الريح حول مصباحه ، وانبثاث العوائق الخازلة أمام إصلاحه ،

فإنه من أفهم الناس لمعنى الدين وروح العصر ومقتضى الحال .

ورسالة الأزهر التي يريدها الله ويرجوها الناس هي :

١ — تنقية الإسلام من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة والعادات الدخيلة . وسبيل ذلك أن يفسر القرآن على هدى الرواية الصحيحة وفى ضوء العلم الحديث ، تفسيراً يجمع بين ما صح من أقوال السلف ، وما صلح من آراء الخلف ثم يؤلف فى الحديث كتاب جامع لما لا ريب فيه من الكتب الصحاح ، ويستعان على شرحه وتبويبه بعلوم التاريخ والاجتماع والأخلاق والفلسفة ثم يصنف فى الفقه كتاب شامل على المذاهب الصحيحة يوضع متنه موادّ كالقانون ، ثم يشرح شرحاً فنيًّا يستوعب أصوله ويستقصى فروعه ، فى غير حشو ولا استطراد ولا تعمية ثم تكون هذه الكتب الثلاثة المطولة مادة الدراسة ومرجع القضاء ومصدر الفتوى ؛ فتقرر فى الأزهر ، وتنشر فى الجمهور ، وتترجم إلى أكثر لغات الشرق وأشهر لغات الغرب ؛ ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسلام أو يريد أن يعرفه أما ما عدا ذلك من الكتب ، فما كان صحيحاً بقى فى المكاتب بقاء الآثار فى المتاحف ، يرجع إليه المتخصص والمؤرخ ؛ وما كان زائفاً صنع به ما صنع عثمان بكل مصحف غير مصحفه .

٢ — إعداد الوعاظ والدعاة من أهل اللسَن والخلق والورع ، وإمدادهم بالثقافة الحديثة واللغات الحية ؛ وإيفادهم إلى الأمم الإسلامية البعيدة عن مهبط الوحى وموطن العروبة . ويدخل فى ذلك العناية اليقظة بالبعثات الإسلامية بالأزهر ، فإنهم أقدر من غيرهم على إرشاد قومهم باللغة والقدوة والنفوذ .

٣ — جعل اللغة العربية لغة المسلمين كافة ، فيكون لكل مسلم فى الأرض لغتان لغة لوطنه الأصغر ، ولغة لوطنه الأكبر . والوسيلة أن تحمل المشيخة

أقطاب الرأى فى البلاد الإسلامية ، بالمفاوضة أو بالائتمار ، على أن يجعلوا تعلم اللغة العربية والتكلم بها إجبارياً فى مراحل التعليم المختلفة ، وأن تتكفل بإرسال المعلمين من المتخصصين فى الأزهر ؛ فإن فى شيوع العربية بين المسلمين تمكيناً لفهم الدين وتثبيتاً لمعنى الأخوة .

* * *

ذلك ما يجب أن يقوم به الأزهر ؛ وذلك ما يضمن للاسلام الجدّة ، ويكفل للمسلمين الوحدة ، ويجعل الرأى المحمدى سلطاناً يُخشى فى الحرب ويُرجى فى السلام .

الملك غازى

(١٠ أبريل سنة ١٩٣٩)

فى ذمة الله زهرة فواحة من روضة الحسين ، ذوت فى ازدهار الربيع وغيـــدان الصبى وفوران الأمل، ثم أسقطها الجفاف والرى موفور والخصب شامل !

كان الملك غازى — تغمده الله برضوانه — مهوى قلوب العرب ومعقد رجاء العراق ، لأن شبابه يرافىء شباب النهضة ، وطموحه يجارى طموح العروبة ؛ ولأنه من بعدُ ورث فيصل بانى العروش وقائد الثورة . وكانت تباشير الصباح المسفر تنبىء عن الضحى الجميل والنهار الصحو ، لولا أن للقدر أحكاماً لا تجرى على أقيسة العقول ولا تسير على رغائب الأنفس .

* * *

عرفت خليفة فيصل وهو ولى عهد ، ولم أنل شرف لقائه وهو ملك ، لأننى تركت العراق وأبوه لا يزال على عرش الرشيد يدبر الأمر بذكاء على ودهاء معاوية وكانت جلساتنا الليلية فى حديقة البلاط المزهرة المقمرة ، حينا فى

حضرة الملك ، وحيناً فى حضرة خاله ، تكشف لى قليلاً قليلاً عن مصاير هذه النفس الرغيبة الطيّعة التى نبتت فى هجير مكة وأزهرت فى ظلال بغداد ، فكنت لا أنفك منها أمام طبيعتين مختلفتين : طبيعة تتأثر بحاشيته فتسامح وتساير وتمرح ، وطبيعة تتأثر بأبيه فتصعب وتسمو وتطمح . ولكن المقرر فى الأذهان كان أن الشبل سينتهى بالضرورة إلى طبيعة الأسد مهما يؤثر فيه طبع الناس ويغل منه قفص الحديقة

* * *

قلّ فى الشباب الملكى من كان كغازى فى سماحة نفسه وسجاحة خلقه ونبل شعوره وسمو تواضعه وظرف شمائله . وتلك هى الصفات الهاشمية التى تنتقل فى بنى الحسين بالإرث ، وتقوى إذا ساعدتها القدرة وساعفتها البيئة . ولكن ماورثه هو عن أبيه صقر قريش من الجناح الزفّاف(1) ، والبصر النفاذ ، واللب الحصيف ، كان يتيقظ رويداً رويداً مع الزمن والخبرة ، فلم يكن بعدُ قد توثقت آرابه(2) للاضطلاع بالعبء الفادح الذى ألقى على ظهره فجأة . والعبء الذى كان يحمله فيصل من أمور العراق هو العبء الذى قسّمه الدستور على سلطات الدولة الثلاث فجمعه هو على عاتقه . من أجل ذلك لم يضع غازى يده من سياسة العراق العليا موضع يد أبيه للتعديل والموازنة ، وإنما تركها فى أيدى الزعماء تجرى سفينتها على مشيئة الريح ، تضطرب حين تثور ، وتستقر حين تسكن . ومن أجل ذلك امتحن الله الفراتين بالقوة الغشوم ، فحكم الجيش ، واستبد الطبش ، واضطرب العيش ، وسطت الأيدى المجرمة على عباقرة الأمة(3) . ومن أجل ذلك لا نتوقع

---

(1) الزفاف : السريع (2) الآراب : جمع إرب وهو العضو

(3) نشير إلى ثورة بكر صدقى

لسياسة العراق بعد غازى ماتوقعه لها الناس بعد فيصل . والغالب فى الظن أنها ستجرى فى عهد فيصل الثانى كما كانت تجرى فى عهد فيصل الأول . فإن نورى السعيد الذى يقبض عَلَى سكانها اليوم هو تلميذ أبى غازى : وضعا معاً سياسة العراق الحديث على أساس من المرونة اللبقة ، ثم ساساه بنوع من الدكتاتورية المعتدلة التى تسير مع النزاهة وتقف عند حدود العدل . ولعل هذه السياسة الفيصلية هى التى تقتضيها الحال اليوم بعد مافت فى أعضاد الشعب توزع الرأى وتغلب الهوى وتوقح الخصومة .

* * *

إن مصرع الملك على هـــذه الصورة الأليمة فاجعة تدمى العيون وترمض الجوانح وإن العالم العربى كله ليشاطر العراق الحزين أساه على سيد شبابه ومناط أمله ولـكن للدواهى النُّـكر صدمات تهز الشعور وتوقظ الفطنة ، فتنبه على قدر ما تذهل ، وتوجه على أثر ما تضل . والشعب العراق من الشعوب الـكريمة الحرة التى تصقلها الخطوب وتلهما الأحداث فتقف بفطرتها السليمة أمام الخطر هوًى واحدا ورأياً جامعاً وعزيمة صادقة . وسيرى الذين يتخيلون ويتقولون أن إرادته الصارمة الحازمة ستَثبُت لدواعى الشقاق ونواجم البغى ، وستُثبِت أن عصر فيصل الثانى سيكون عصره الذهبى الثانى ، فيشتد بنيانه ويمتد سلطانه ويتسع عمرانه ، وتهبُّ من جوف الهلال الخصيب [1] عبقريات غفت فى أحضان الخلود ولـكنها لم تمت !

* * *

فى ذمة الله زهرة فواحة من أرومة الحسين ومن شجرة فيصل ، سقاها النبل

(١) جوف الهلال الخصيب : العراق

الخالص ، وغذاها الكرم المحض ، وتعهدها الحفاظ الحر ؛ حتى إذا أوشكت الزهرة أن تخرج الثمرة المرجوة قصفها الموت المفاجىء ، فكان ذُوِيُّها حسرة فى نفس شعب ، وقرحة فى قلب وطن !

برد الله ثرى غازى بالصيِّب الهتون من رحمته ، وشعَب قلب العراق بالصبر الجميل عن مصيبته ، وجعل عهد المليك الطفل على العروبة والإسلام عهد سلام ووئام وبركة !

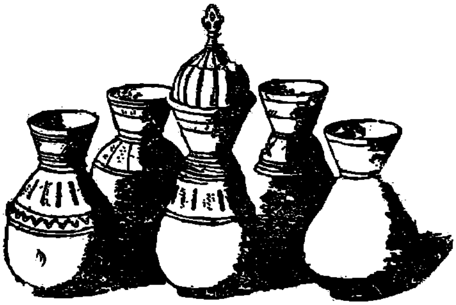

نفخة الصور

(١٧ أبريل سنة ١٩٣٩)

بعد ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ مصر الخالدة نفخ جندى فى بوق [١] فرعونها الشاب توت عنخ آمون ، فدوّى صوته النّدىّ [٢] فى أرجاء العالم والعالم يمور موران البحر ، ويفور فوران البركان ، وتتدافع شعوبه المكلوبة المكروبة عمياناً وصماً إلى مهاوى الموت ! فليت شعرى ما الذى أخطر ببال المتحف والإذاعة هذا الخاطر الغريب فى هذا الحين وفى هذه الحالة ؟ أهو القدر الإلهى الراصد الذى يقول كلمته فى كل حادث ، ويعلن مشيئته فى كل مشكل ؟ أم هو الروح المصرى الخالد الذى بدأ حضارة العالم ، وأنشأ معرفة الناس ، ولايزال يوحى بكل فكر ويشارك فى كل أمر ؟

من كان يقع فى حسبانه من فراعين النيل ودهاقين الوادى أن بوقهم الذى

---

(١) من مخلفات الملك توت عنخ آمون التى كشفت فى سنة ١٩٢٢ بوقان أحدهما للحرب وهو من الفضة ، والآخر للسلم وهو من النحاس . وقد عن لإدارتى المتحف المصرى ومحطة الاذاعة المصرية أن ينفخ فيهما أحد الجنود بالنداء الحربى ليذاع على العالم . وقد تم ذلك فى الساعة السابعة والثلث من مساء يوم الجمعة ١٤ من شهر أبريل سنة ١٩٣٩ فكان حادثاً فذاً فى التاريخ الانسانى كله (٢) الصوت الندى : البعيد

كان يدعو إلى الطعن والضرب ، ويقضى فى السّلم والحرب ، يحتفظ به الدهر الطحون ثلاثة آلاف وثلثمائة عام ليُبلغ به اليوم أذن الدنيا جماء صوتَ مصر الذى لا يخفت ، ومجد مصر الذى لا يبيد ؟

ما كان أروع هذا الصوت الفضى القوى وهو ينبعث من جوف الماضى العميق السحيق ، وينتشر جهيراً جباراً على أمواج الأثير ، فينصت الفلك ، ويدهش العالم ، ويذكر التاريخ ، ويغوص الخيال الشاعر فى خِضَم القرون ويطفو !

* * *

أيها النافخ فى صور إسرافيل ! أهى الراجفة [1] وانصعاق الأحياء وانشقاق السماء وزلزلة الأرضين واندكاك الجبال وفناء العالم ؟ أم هى الرادفة وانبعاث الأموات ، وميزان الحسنات والسيئات ، ثم استئناف الحياة الباقية الصافية التى تموت فيها المطامع ، وتفنى الأحقاد ، ويعيش بنو آدم فى ظلال الله إخواناً على سُرر الحب ، وضيفاناً على موائد الجنة ؟

لتكن نفختك يا إسرافيل ما شاء الله أن تكون ، فإنها لمصر القاعدة المتخلفة صيحة نشور ونذير أهبة ! فقد درجت على هامها القرون وهى مطمئنة إلى الخمول راضية بالعجز ، يستغل خيرها الواغل ، و يستقل بحمايتها المغير ، حتى خشن على أيدينا السيف ، وثقل على ظهورنا العتاد ، وجثم على رجولتنا الجبن ، وأصبحنا إذا طلبتنا القرعة نهرب ، وإذا انتخبتنا الجندية نبكى ، وإذا سمعنا

---

(١) الراجفة هى النفخة الأولى فى الصور وهى للعدم ، والرادفة هى النفخة الثانية فيه وهى للوجود . قال الله تعالى : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة »

بالحرب من بعيد يضطرب البال من الهم ويطير الفؤاد من الفزع . ثم كان من أثر هذه الحياة السلمية الوادعة ، وهذه التربية المدرسية البليدة ، أن فشا بيننا داء العجائز وهو الكلام ، وداء الضرائر وهو الحسد ، فأفواهنا الثرثارة لا تفتر عن قرض الأعراض والعلائق ، وعيوننا الطامحة لا تغمض عن حسد الأرزاق والمواهب ، حتى اتسعت الأحداق وطالت الألسن ، بمقدار ما ضاقت الأخلاق وقصرت الأذرع . فلو كنا نشأنا على الجندية ، وبمرسنا بالحروب ، وارتضنا فى الشدائد ، لكثر فينا رجال القيادة والنظام ، وقل بيننا أهل السياسة والكلام ، وكان عندنا من الشركات والجمعيات والمصانع والورش أضعاف ما عندنا من المؤتمرات والأحزاب والمقاهى والصحف . . .

هذه هى القارعة التى تهتك حجب الأسماع وأغشية الأبصار وغُلف الأفئدة . فاليوم لا كسل ولا جدل ولا اتكال ولا استكانة لقد سلكنا متن الحياة بعد أن كنا نسير على الهامش ، وخضنا عباب الأمر بعد أن كنا نعيش على الشاطىء ، وحملنا تكاليف مصر العزيزة بعد أن كنا نلقيها من الخور والهُون على الأكتاف الغريبة كتفاً بعد كتف .

لشدّ ما يشرق فى تاريخ النيل ذلك اليوم الذى يزحم فيه البحر والبر والجو أسطوله الماخر وأسطوله الطائر وجيشه الجرار ، ثم يستقتل فى سبيله بنوه البواسل الميامين فى الحصون والخطوط والخنادق ، ليكون لثراه الحبيب من دمائهم رِى ، ومن أشلاء عدوهم سماد ، فيخصب فيه جذب العقول ويزكو به غِراس البطولة !

مرحباً بالنار إذا كانت تذيب غش الأخلاق وزيف العزائم ! وأهلاً بالحديد إذا كان يشذب ميت الأصول وذاوى الأفرع ! وربَّما يبتلينا به الله

إذا كان من ورائه جمعة من هذه الفرقة ، وحياة من هذا الموت !

لقد استنفرنا الماضي ببوق فرعون ، واستفزنا الحاضر بوعيد نيرون[1] ، فلم يبق الا أن نميط اللثام عن الوجه الحر ، وننفض الغبار عن المعدن الكريم ، ثم نولي وجوهنا شطر الحدود المقدسة ، ونقوم للوطن كما نقوم لله ، صفا صفًا ، طائعين خاشعين ، متحدين مستعدين ، ننتظر نداء العَلَم الموموق وأمر القائد الأعظم !

(١) تريد به موسولينى دكتاتور إيطاليا يومئذ ، وقد كان ريقه يتحلب طمعا فى فتح مصر

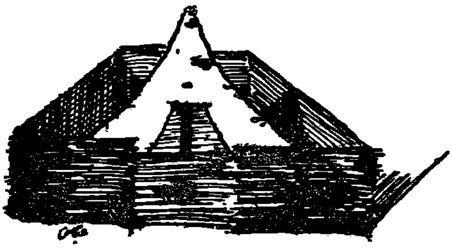

اقتلوا الجوع تقتلوا الحرب

(٢٤ ابريل سنة ١٩٣٩)

عالجت « الرسالة » فى بضع عشرة مقالة آلام الجوع وآثار الفقر وما ينجم عنهما من مآسى الحياة وكان فى ظننا يومئذ أن الناس متى هذبتهم المعرفة وصقلتهم المدنية يصبحون أعلم بحكمة الله ، وأفهم لسياسة الدين ، وأجدر أن يحكموا العقل والعدل فيما شجر بينهم على قسمة الدنيا وغلة الأرض ؛ ولكننا تركنا الموضوع قانطين من رحمة القلوب ، لأننا وجدنا غاية الأمر فيه لاتبعد عن البكاء والاستبكاء ، ما دام الحكم لأيدى الأقوياء والتشريع لألسنة الأغنياء ، والغلب والسبق للناب العضوض والجناح المحلق . وقلنا ونحن نمسح عن القلم سواد الخطوط : لايزال فى قدر الله أن يكابد بنو آدم عقابيل البهيمية الأولى ، فيوطأ الوانى ، ويسترق العانى ، و يؤكل الضعيف ، ويكون هنا الطمع والكزازة والأثرة ، وهناك الحسد والحزازة والثورة ، ثم لايفصل بين الواجد والفاقد غير الحرب . فالحرب لاتنفك مشتعلة بين الفرد والفرد ، وبين الأسرة والأسرة ، و بين الأمة والأمة ، بالقول أو بالفعل ، وفى السر أو فى الجهر ، حتى يتدارك الله عباده فيهيئ نفوسهم لفض هذه الخصومة ، بغير هذه الحكومة

* * *

والخصومة الأبدية بين الناس هى المادة . والنكبة الأزلية على النظام والخلق هى الفقر وكل ثورة فى تاريخ الأمم ، أوجريمة فى حياة الأفراد ، إنما تمت بسبب قريب أوبعيد إلى الجوع حتى الشهوة شهوة الغرام

أو الانتقام لاتقع فى تاريخ الجناية إلا فى المحل الثانى بعد الجوع ، لأنها لاتكون إلا عرضاً من أعراض الشبع من أجل ذلك جاء دين الله يخفف عن الفقير بالإحسان والعدل ، ويدفع عن الضعيف بالمودة والرحمة ولكن عُرام النفوس كان أقوى من أن يرده الثواب المغيَّب والعقاب المؤجل فنبت على أمر الله ، وعللت نفسها بالنجاة من باب التوبة المفتوح ، ومن طريق المغفرة الواسع . ثم حاولت فلسفة الناس أن تجد سلام المجتمع فى أنظمة متناقضة يدفع بعضها فى صدر بعض ؛ فوقع العالم من جرّاء النزاع بين الفردية والاشتراكية ، والصراع بين الدكتاتورية والديمقراطية ، فى حرب عنيفة رعناء لاتأصرها آصرة ولا تدركها شفقة ، حتى أكلت من أمة الأسبان وحدها مليوناً وربعاً من شبابها الآمل العامل . ثم أخذت تخمد فى هذا الميدان الضيق المحدود لتستعر فى ميدان لاحد لعرضه ولا نهاية لطوله ، هو العالم !

* * *

أنيا يكن الغنى يكن السلام ما فى ذلك ريب ولاجدل فنى أمريكا وإنجلترا ، وفى فرنسا وسويسرا ، تجد الناس فى ظلال الأمن مقبلين على الإنتاج المعمِّر والاستهلاك المرفّه ، لا نكاد ترى بينهم عيناً تحسد ولا قلباً يحقد ولا يداً تجترح

وفى ألمانيا وإيطاليا أصيب الناس بسعار من الجوع زاده طمع الطاغيتين (١) التهاباً واستكلاباً ، فانقلب إلى نوع من عبث نيرون أوانتقام شمشون أومقامرة اليائس الذى يضرب الضربة الحمقاء ليربح الكل أويخسر الكل !

فلو أن الله أتاح لأبناء برلين وروما من سعة الدنيا ونفاق التجارة ووفرة

(١) الطاغيتان هتلر . وموسولينى

المال ما أتاح لأبناء لنـــدن وباريس ؛ ولو أن الله لم يبتل أبناء رومة وبرلين بمن ظحنهم بالعمل ، وعصرهم بالضرائب ، وقهرهم بالحرمان ، واتخذ من أجسادهم وأرواحهم واقواتهم مدافع تقذف بالنار ، وطوائر ترمى بالسم ، لما رأيتهم يكفرون بالانسانية ، ويتنكرون للمدنية ، ويفعلون فعل القوى المحتاج : تضطره الحاجة إلى السرقة ، وتدفعه القوة إلى القتل ؛ فهم يخرجون اليهود من ديارهم ليأخذوا المال ، ويحتلون الأمم بجيوشهم ليملكوا الأرض ، ويلقون الدول القوية فى بُحْرَان من القلق والفزع والذهول ، ليضعوا أيديهم الجارفة على أرزاق الدول الضعيفة

* * *

رأى خليفة ولسون (١) وهو فى دنياه الجديدة السعيدة أن الجوع الذى ولدته الحرب الكبرى فى قصر « فرساى » قد اشتد أسره ، وصلب عضله ، وفحش طوله ، وضخم بدانه ، حتى انشق إلى (٢) تنينين فظيعين لكل منهما مليون رأس ومليون يد ، وفى كل رأس ناب يقطر السم الزعاف ، وفى كل يد مخلب يرسل الموت الوحى . فبعث إليهما برسالة من بقايا النبوة الأولى ، فيها الدعوة إلى الحق بالقول اللين كدعوة موسى التى لم تصب أذناً فى العالم

يطلب الرئيس رزفلت من الجوع المتجسد المتنمر أن يحبس لعابه المتحلب ، ويكفكف سعاره المضطرم ، ويقبض لسانه اللاهث ، ويتخذ هيئة الانسان ليلتقى بخصومه فى مؤتمر عام يجمع الغرب والشرق على المبادىء التى شرعها الله فكفروا بها ، والخطط التى نهجها المصلحون فحادوا عنها ؛ ثم يضعون لهذه

---

(١) المستر رزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (٢) ألمانيا وإيطاليا ، أو النازية والفاشية

الدنيا المتدابرة المتناحرة سياسة جديدة تجعل أرض الله مضطرباً لكل كادح وخير الأرض مشاعاً لكل مستغل . ويومئذ يكون الفصل بين عالم عاش فيه الحيوان بغرائزه الوحشية ، يقوى فتنتشر مخالبه بين شعره المنفوش ، ويضعف فتنطوى تحت حريره الملفوف ، وبين عالم يعيش فيه الإنسان بطبائعه المدنية ، يعدل بين جنسه وغير جنسه ، ويحب لغيره ما يحب لنفسه ، و يطمس فى ذهنه حدود البيت والأسرة ، ومعالم الوطن والأمة ، ليصبح الناس كلهم أسرته ، والدنيا بأسرها وطنه

ويومئذ تستطيع الإنسانية أن تتبجح بميزة العقل والعلم ، وتقول لقافلتها الضاربة فى مجاهل الأبد وهى لا تملك مشاعرها من القلق والفرق :

لقد زال الطمع فزالت العداوة ، ومات الجوع فماتت الحرب

حزن المليك الطفل

(١٥ مايو سنة ١٩٣٩)

هـــــذا اليوم هو الأربعون لمصرع الملك الشهيد غازى الأول . واليوم الأربعون هو فى عرف الناس أو الناسين آخر الخطوات فى تشييع الحى للميت ! فهل آن للجوانح الحرار أن تبرد على سلوان ابن فيصل ونسيان أبى فيصل ؟! كل حى إلى حين وكل ذكرى إلى نسيان . وكل أثر إلى طموس ولكن أمثال غازى من ملوك الأرض وشباب الملوك وأزيان الشباب هم ملء السمع والبصر والقلب والتاريخ ، فلا يملك الدهر أن يمحو مالهم فى صحيفة الخلود من ذكر وأثر . وإذا استحال على الزمن أن ينسى دولة العراق ، استحال على العراق أن ينسى أسرة فيصل لأن أسرة فيصل هى الأساس المكين لبنيان العراق الحديث : قام على جهادها استقلاله ، وورفت على رى دمائها ظلاله ، وسارت على نور هداها نهضته

* * *

كان الملك فيصل الأول برد الله بالرحمة ثراه ، مثال الرجولة العليا التى

يتيحها القدَر المديل لإحداث ثورة وإنشاء دولة وإقامة عرش . وكان هو وصحبه البهاليل من أبطال الثورة العربية رموز الحيوية الثائرة والخبرة القادرة والإرادة الحكيمة . جاهدوا حتى تحرر الوطن ، ونادوا حتى استيقظ المجد ، وأسسوا حتى بنى الشباب . ثم قضى وقضوا شهداء فى سبيل العراق الخالد ، ولا تزال أرواحهم الطاهرة تشرق في جوه ، ودماؤهم الزكية تعبق فى صعيده .

وكان الملك غازى الأول سقى الله بالرضوان ضريحه ، قائد الجيل الذى نشأ معه على قوادم الصقر القرشى الجبار ، فكان من طبعه الموروث — مهما يبطىء نمو الريش أو يرعد عليه الافق — أن يرتفع بشعبه الطموح الناهض . وكان بشبابه الفينان الواعد عنوان الأمل المعقود على فتوة العروبة فى توثيق العقدة وتحقيق الوحدة ثم كان بأريحيته العربيـة وسماحته الهاشمية نموذج الحكم الرضيّ الرفيق الذى تسود فى عهده الشورى ، ويخصب فى ظله الفكر ، وتعزّ فى كنفه الديمقراطية . فلما صرعه القدر هذه الصرعة القاسية ارفض لهولها صبر الشباب والكهول من العرب ، لأنه كان فى رأى هؤلاء سر الماضي وذكرى يقظته ، وكان فى نظر أولئك رجاء المستقبل وروح نهضته

نعم كان فيصل الرجل ، وكان غازى الشاب ! وما آلم الإخبارَ بالكون الناقص عن الكون التام ! ولقد كان الظن بالأيام أن تُبقى على فرع الحسين النابت على دجلة حتى يستغيل ويتشعب ، ولكن أعاصير الخطوب كانت أقوى من منى القلوب وأصدق من أحاديث الأنفس ، فلم يبق من أرومة فيصل الحرة إلا غصنة غضّة النبات تميل حزينة على الجذع المحطم ، كما تهوّم الزهرة الوحيدة على القبر الموحش !

* * *

وارحمتا للوليد المليك ! كان له بالأمس صديق لا يخلق الله من نوعه غير واحد لكل واحد وكان هذا الصديق يقبس نور عينه من نوره، وسرور قلبه من سروره، وغبطة حياته من غبطته؛ ثم لا يرى وجوده كاملا إلا به، ولا عيشه سعيداً إلا معه. فهما متلازمان كطيفى الجمال والحب، يتجولان يداً فى يد بين رياض القصر، أو يتنزهان جنباً إلى جنب فى أرباض المدينة، ويوزعان هناك البسمات الحلوة والتحيات الطيبة على حواشى الطريق أو فى مماشى الحديقة، ثم يعودان إلى الأسرة الملكية بالرخاء الطلق والأنس الشامل، فتشرق غرفات القصر السعيد بسناً باهر من جلال الملك، وجمال الطفولة، وعطف الأبوة، وحنان الأمومة، وأمان القدرة، وضمان الغد بالسطوة والثروة والولد!

وارحمتا للمليك الطفل! أصبح اليوم وحيداً فى القصر المظلم والعراق الحزين كأنه بصّة الأمل فى القلب اليائس، أو ومضة المنارة فى البحر المضطرب! ينظر فلا يرى الوجه المتهلل الذى كان يهش له، ويصغى فلا يسمع الصوت الحنون الذى كان يهتف به، ويمشى فلا يجد اليد الرفيقة التى كانت تمسكه، ويسأل فلا يجد اللسان الحلو الذى كان يجيبه، ويجلس على المائدة فلا يرى الفم الباسم الذى كان ينادمه؟

أين أبى ياأماه؟ لقد خرج فى الصباح من غير أن يسلم على وليده، ولم يعد فى المساء ليقبّل وجنة وحيده!

أين مَلكى ياخالاه؟ لقد اختفت السيارة والموكب، وذهب الأمناء والحرس، وغاب الوزراء والقادة! مالى لا أرى الناس إلا من وراء السواد؟ وما لهم لا ينظرون إلىّ إلا من خلال الدموع؟ فهل غيبة أبى هذه الفترة

القصيرة تجعل الناس غير الناس ، والدنيا غير الدنيا ؟

ثم وقف المليك ساهم الوجه حالم النظر ، يسأل فلا يجاب ، ويفكر فلا يدرك ، ويبحث فلا يجد ، وينتظر فلا يلقى ، حتى أعياه الأمر فاستسلم لشواغل الطفولة ، واستنام لوعود الحاشية ، وراح ينشد أنسه الوقتى فى صحبة خاله ، ريثما يعود إليه أنسه الدائم بعودة أبيه !

ولكن أربعين صباحاً وأربعين مساء مضت ثقيلة الأطراف موحشة العشايا مظلمة البُكَر ، والصديق لما يعدْ إلى الصديق ، والوالد لما يسألْ عن الولد !

واستيقظ فيصل الصغير الكبير من نومه القلق وحلمه المزعج ، فوجد ظهره يبهظه عبء فادح ، وجبينه يعلوه تاج ثقيل ، وأبصر حواليه فوجد مهده الذى كان ينام فيه قد عظم حتى عاد عرشاً ، وقصره الذى كان يلعب به قد اتسع حتى أصبح وطناً ، وأباه الذى كان ينتظره قد تمدد حتى صار أمة !

في يوم وليلة

(٢٢ مايو سنة ١٩٣٩)

في يوم وليلة رأينا مصر المبعوثة من مرقد الخلد تدخل في عهدها الجديد الجدى فتنهض بما توجبه الحياة الحرة من تكاليف الاستقلال وتبعات السيادة !

كان ذلك اليوم يوم الخميس الماضي ، وكانت تلك الليلة ليلة الثلاثاء قبله ! ففي هذا اليوم كان عرض القاهرة لجيشها الفتى في آلته الحديثة وعدته الكاملة! فخرج من عرائنه الشم والصباح الضاحى يتنفس بأريج مايو الجميل ، وسار في الشوارع الحاشدة يعرض على الأنظار الدهشة قوى الدفاع وأسلحة الأمن وما لابد منه لمن يعيش في زمن استذأب وضرى حتى أنكر حق الحياة على نوع الحمل

لم تكن المدافع القصيرة والطويلة ، ولا الدبابات الخفيفة والثقيلة ، هي التي ملكت الألباب وأثارت الإعجاب وفجرت الحماسة ؛ فإن منظر آلات الدمار والموت أصبح لطول ما ألفه الحس لاغرابة فيه ولا عجب منه ، وإنما الذى ملك الألباب حتى أذهل ، وأثار الإعجاب حتى أدهش ، وفجر الحماسة حتى أطغى ، هو منظر جنود مصر بشبابهم الفاره ، وخلقهم السوى ، وملامحهم الدالة ، ومظهرهم الأخاذ ، ونظامهم الرائع ، فكأنما هم جنود ابراهيم لم يلقوا السلاح منذ ارتد قائدهم عن الآستانة فأين كان مكمن هذه الروح الحربية القوية مدى حقبة من الرخاوة والكسل لو مرت على الضوارى لطمست في وجوهها معارف الجرأة ، وأماتت في نفوسها معاني الافتراس ؟ لقد كان لنا

قبل سبتمبر الماضى جيش من الأرقام متواضع العدد والعدة ، يعيش فى أكناف الشعب عيش الأمان والغفلة ، لا يعرف الحدود إلا على الورق ، ولا يشهد الحروب إلا فى السينما ، ولا يدرك معنى الدفاع عن النفس فى وجود انجلترا إلا كما تدركه الزوجة المرفهة فى وجود زوجها ، أو الولد المدلل فى حضرة أبيه ، فكيف انقلب هذا الجيش الصغير الغرير فى سبعة أشهر جيشاً من المردة العتاة يقيم المعاقل على البحر ، وينحت الخنادق فى الصخر ، ويروض أوعار الأرض لأقدامه ، ويذلل أخطار السماء لقوادمه [1] ، ويضع الخطة فلا تخطىء ، ويسدد الرمية فلا تطيش ، ويقف جنبا إلى جنب مع الجيش البريطانى الذى قهر نابليون وهزم غليوم وغنم الدنيا ، فلا يفوقه فى نظام ، ولا يفوته فى سبق ، ولا يبذه فى مناورة ؟ السر هو فى معدن هذه الأرض التى جعلت للزمان تاريخا وللانسان مدنية . والسحر هو فى طبيعة هذا الفلاح الذى طبع آثاره على جباه القرون وسلطانه على قلوب الأمم وفرخ النسر لا يعلَّم كيف يصيد ، وشبل الأسد لا يدرب كيف يفترس !

وفى تلك الليلة كانت تجربة الدفاع الجوى عن القاهرة ، ففى عتمة الليل والناس لاهون صاحت الأبواق المنذرة بالغارة فى كل حى ، فأطفئت الأنوار وأسدلت الأستار وخشعت الأصوات وسكنت الحركات ، وأقفرت الشوارع إلا من رجال الشرطة والمطافىء والإسعاف ، وجثم على صدر العاصمة كابوس من الرهبة والقلق ، فامتدت العيون خلسة من وراء السجوف ومن خلال النوافذ فلم تر إلا الظلام يموج والنجوم تضطرب ، والرقابة تحت الحنايا الآمنة تتهامس ، والمدافع فوق العمائر العالية ترتقب . ثم أقبلت من الحدود الغربية النسور المغيرة

---

(١) القوادم : كبار الريش فى مقدم الجناح ، والمراد بها طائرات القتال

فرنقت فى جو المحروسة على علو لا يرى ولا يسمع ؛ ولكن آلات الرصد نبهت الكشافة فأرسلت على أطباق الجو الحالك أفواجاً من الأشعة الكاشفة ، تتطاول وتتعارض ، وتتعانق وتتشابك ، حتى لم تدع طائراً يطير إلا صورته فى عدسة مدفع ، وفى آخر الهزيع الأول من الليل أعلنت الأبواق بأصواتها المتصلة انقطاع الغارة ، فأشرقت المدينة ، واستأنف الناس حياة اللهو والأنس وهم يشعرون أنهم أصبحوا خلقاً كسائر الخلق ، لهم قوة لا تُزدرَى وكرامة لا تمتهن وحمى لا يستباح .

فى هذه الليلة وفى ذلك اليوم أدركنا أن مصر الناهضة قد بلغت سن التكليف وجاوزت حد العبث ، فهى تستعد للحرب وللسلام ، وتبنى بالفعل لا بالكلام ، وتقدم إلى ساحة الدفاع المقدس شيوخ دينها وشباب دنياها ، وهى راضية بهذا البذل فخورة بهذه التضحية والفضل كله للأحداث التى تذيب الغش وتفضح الزيف وتمحص الكفاية .

* * *

لا جرم أنا كسبنا مغانم الحرب وإن لم تكن حرب لأننا بما عملنا أوجدنا شيئاً لا بد من إيجاده ، وبما بذلنا سددنا عوزاً لا مناص من سداده . أما الدول الأخرى فدفاعها مكين الأساس مرفوع القواعد منيف الذرى ، فكل ما تنفقه عليه يضطرها الخوف إليه لتأمن الفشل وتضمن العاقبة .

ماذا كنا قبل أن ينتشر الجراد الرومى(١) المسلح على حدودنا المهملة ؟ كنا قوماً من سادة الماشية وعبيد الأرض تركوا أزمتهم للقدر وثروتهم للغريب وحمايتهم للحليف ، ثم أقبل بعضهم على بعض يتنافسون فى الهزل من غير

---

(١) الجيش الايطالى

غرض ، ويتراشقون بالتهم من غير بينة ، ويتسابقون إلى الحكم من غير غاية .
فلما أينع الحصاد وأزّ فى الأفق الجراد ، وزأر بالوعيد الطغاة ، تيقظت مصر الصادقة
الحرة على ضفاف النهر وأحقاف الرمل ورياض الريف ، ثم وقفت فى
شِكّتها[1] الكاملة موقف الواثق الحذر وهى تنظر إلى الشفق الدامى فى وجه
الغرب ، وتقول للطامع الساعى لإثارة الحرب : حذار ! فإن على عرشى رجلا كان
وريث عمرو ، لا امرأة[2] كانت صديقة قيصر !

(١) الشكة ـ السلاح . (٢) المراد بالمرأة ـ كليوبطرة

فلاحون وأمراء!

(٥ يونية سنة ١٩٣٩)

جلست كعادتى فى عصر كل سبت أفكر فى موضوعى الأسبوعى للرسالة ، فتردد على خاطرى المكدود معان شتى من وحى الساعة وحديث الناس وحَوازّ[١] القلوب ، كمأساة (حلحول) فى فلسطين ، وصلة الجديد بالقديم فى الأدب ، فكنت أذودها بالفتور والإهمال ، لأن معنى من المعانى القوية كان قد استبد بذهنى منذ الصباح ، فهو يراوده ويعاوده ويلح عليه حتى لم يكن من الكتابة فيه بُد . ذلك بيان النبيل عمرو ابراهيم رئيس نادى الفروسية الذى بعث به إلى الأهرام وطلب إليها أن تنشره (كاملا) فى عدد اليوم . والذى استفزنى من هذا البيان لهجته الأميرية المنتفخة فى الرد على رئيس الوزراء ، والطعن فى بعض الكبراء ، والدفاع الظنين عن نظام الطبقات ، والتفسير المجازف لكلمتى الفلاح والديمقراطية ، والتلميح المختزل إلى السامية والطورانية ، فإن هذه مسائل دقيقة ما كان للنبيل أن يعرض لها بهذا الاستكبار ، فى بيان دفاعىّ لا يجوز أن يخرج فيه عن التنصل أو الاعتذار !

لست والحمد لله من طبقة أولئك النادين إلى هذه (الكُلُبات) التى تتضاءل فيها الديمقراطية بين أرستقراطية الدم أو المال أو المنصب ، فلا أزعم أنى سمعت الأشداق الملوية تأمر ، ورأيت الأنوف الوارمة تمتعض ، ولكنى قرأت كما قرأ الناس ثورة رئيس الشيوخ

---

(١) حواز القلوب: جمع حازة، وهى الامور التى تقطع القلوب وتؤثر فيها .

وزارة[1] رئيس الحكومة ، فعلت والأسى يحز فى الصدر أن بعض الذين جعلناهم أمراء ونبلاء لا يزالون على عقلية ذلك التركى الفقير الذى كان يقرع الأبواب مستجدياً فإذا أجابه الحجيب الفزع قال له فى عنف وصلف وأنفة : « هات صدقة لسيدك محمد أغا » . ولا أدرى ما الذى سوغ لهم أن يعتقدوا أن الله خلقهم من المسك للملك ، وخلقنا من الطين للطين ، وجعلهم للثروة والسيادة ، وجعلنا للخدمة والعبادة ؟ إن كانوا مسلمين فالإسلام قد محا الفروق بين الطبقات إلا البرّ والتقوى : فالعرب والعجم سواء ، وقريش وباهلة[2] أكفاء . وإن كانوا وطنيين فالوطن لا يعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم فى تقويته وترقيته وخدمته ؛ فالفلاحون على درجته العليا لأنهم عماد ثروته وعدة دفاعه وقوة سلطانه ؛ والأمراء على درجته السفلى ، لأنهم فيه معنى السرف الذى يفقره والترف الذى يوهن ، والبطالة التى تميت ! وبين هاتين الدرجتين تتفاوت مواقف الوزراء والزعماء والكبراء على حسب ما لكل منهم عليه من فضل .

* * *

لا ياسيدى النبيل ! ليس نظام الطبقات هو القائم فى مصر وأوربا كما تقول ، فإن جعلك نفسك ونظراءك طبقة متميزة لها حدودها الأربعة وجهاتها الست لا يجعل نظام الطبقات حقيقة واقعة . إن مصر كلها من أعلى شلالها إلى

---

(١) قال الرئيس النبيل بالحق محمد محمود باشا وقد علم أن « نادى الفروسية » يتعاظم على سراة المصريين ويتصاونون من عضويتهم فيه لأنهم (فلاحون) : « إن حكومة جلالة الملك لا يمكن أن تسمح باعادة نظام الطبقات . نحن هنا فى بلد ديمقراطى ، وكل المصريين سواء ، وجلالة الملك يضرب كل يوم أعظم الأمثال فى ديمقراطيته ومصريته . أنا فلاح وابن فلاح ، وأفخر بأن أكون كذلك . والفلاح هو عماد هذه البلاد وفخرها . وإذا كان بين أعضاء (نادى الفروسية) من لا يعجبه هذا الكلام فليرحل عن بلاد الفلاحين ! »

(٢) باهلة : قبيلة عربية توصف باللؤم والحقارة

أسفل دالها[1] طبقة واحدة ، فيها الغنى والفقير ، والمالك والأجير ، والصحيح والمريض ، والعالم والجاهل ، فهل نجعل كل حال من هذه الحالات طبقة ؟ وهل تستطيع أن تعين لى الفرق بين طبقتك المرفوعة وطبقتنا الموضوعة إذا كان الدستور الذى تخضع له الطبقتان يستطيع أن يجعل ابن الخادم الذى ينظف لك الحذاء جليسك ورئيسك ؟ لقد كان امتياز طبقتك على طبقتنا أنك تمسك (السكرباج) ونحن نمسك الفأس ، وتأكل الذهب ونحن نأكل التراب ، وتعبد الشيطان ونحن نعبد الله ، وتتكلم التركية ونحن نتكلم العربية ، فلما قيض الله لمصر العظيمة فؤاداً العظيم فتزوج منا وحكم بنا وسعى لنا ، شعرنا بأن العرش مستقر على كواهلنا ، والعلم يخفق على معاقلنا ، والسلام[2] يتردد فى شعورنا ، والحكومة تقوم بأمرنا ، والنيل يجرى بخيرنا ، ورأينا كم حين أخذكم — رضوان الله عليه — بأدب الإسلام والشرق لذتم بأطراف الغربة ، وقبعتم فى زوايا العزلة ، وكنتم من مصر وثروتها مكان البالوعة تطفح بعرق الفلاح ودمه لتصب فى مناقع البلدان الغربية !

* * *

لا ياسيدى النبيل ! ليس المصريون فى الجنسية والوطنية بمنزلة سواء ، فان منهم من تمصر بالقانون لا بالأصالة ، وتوطن للمنفعة لا للعاطفة وكيف يستوى فى ميزان الوطنية من يقف على مصريده وقلبه وكسبه ودمه ، ومن لا يعرفها إلا معرفة الغرماء ، ولا يعيش فيها إلا أشهر الشتاء ، ولا يعنيه من أمورها إلا خفض أجرة العامل ورفع سعر القطن !

---

(١) الدال : دالتا النيل (٢) السلام هو النشيد الوطنى .

كذلك ليس من خالص الحق قولك : « إن حق الشخص فى الانتساب إلى أمة إنما يناله بما يؤديه إلى وطنه من الخدمات ، سواء أكان ذلك بنفسه أو بأفراد أسرته من آبائه وأعمامه وأبناء أعمامه وأجداده وأجداد أجداده » فإن أموال أبيك لك ، ولكن أمجاده له . والوطنى الصميم هو الذى يرفع مابنى أبوه ، ويتمم ما بدأ جده . ولا ينفع المرء عند الوطن أن أباه وطنى وهو خائن ، ولا عند الله أن أباه مسلم وهو ملحد !

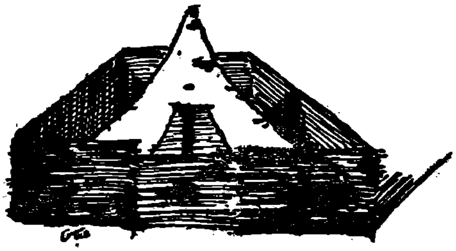

هل لأغنيائنا وطن ؟

(١٢ يونية سنة ١٩٣٩)

من أنباء البرق الأخيرة أن اللورد (نفيلد) صاحب مصانع سيارات (موريس) الإنجليزية قد تبرع للدفاع الوطني البريطاني بمليون ونصف مليون من الجنيهات ، ووضع مصانعه الكبرى تحت تصرف وزارة الدفاع ، فبلغت بذلك جملة هباته للوطن في مدى عشر سنوات خمسة عشر مليوناً ونصف مليون من الجنيهات على رواية (الصنداى إكسبرس) . فإذا قرأت هذا وتذكرت ما تبرع به السادة زخاروف وأفيروف وكوتسكا وأنطونيادس للجيش اليوناني وهم من رجال الأموال والأعمال في مصر لا يسعك إلا أن تسأل كما أسأل هل لأغنيائنا وطن ؟

الواقع الذي لا مراء فيه أن ليس لأغنيائنا وطن ؛ إنما لهم قصور لإتلاف النعمة ، ومزارع لعصر الفلاح ، وبِرك لصيد البط ، وميادين لسباق الخيل ، وأندية لقتل الوقت ، ومنازه لإظهار الأبهة ، وما عدا ذلك من أرض الوطن ومعنى الوطن فهم لا يعرفونه ولا يفقهونه !

هل سمعت أن غنياً من الأغنياء أو أميرا من الأمراء قال إن له وطناً فتبرع له بطائرة في الجيش ، أو بجائزة في المعارف ، أو بكرسي في الجامعة ، أو بمستشفى في الصحة ، أو ملجأ في الأوقاف ؟

لا تقل في تعليل هذه الفردية الشحيحة إن أغنياءنا جهلاء العقل ، وأمراءنا غرباء العاطفة ، فإن الوطنية عصبية طبيعية تقتضيها سنة الحياة فتكون في رجل الفطرة تعصباً للأسرة ، وفي رجل البداوة تعصباً للقبيلة ، وفي رجل

الحضارة تعصباً للأمة ، وفى رجل الإنسانية تعصباً للعالم .

ولئن سألتنى عن تعليل ضعف الوطنية فى هؤلاء الناس لأقولن لك إنى عنه عاجز ، فإنهم لا يزالون يشعرون بها شعور الفطرة الضيقة المحدودة . ومن الصعب على العقل أن يتصور أن أصحاب السمو وأصحاب المجد وأصحاب السعادة لا يجدون فى أنفسهم من الحب لمصر الحبيبة الخصيبة ، ما يجده الإنسان الفطرى للغابة السليبة والبادية الجديبة !

* * *

يكاد النيل يعتقد أن أكثر الأجانب الذين يعيشون فيه ، هم خير له من أكثر الأغنياء الذين يعيشون عليه ! لأن أولئك يعاملونه معاملة الراعى الذى يحلب ويرعى ، وهؤلاء يعاملونه معاملة العلق الذى يمتص ويهمل ، فأينما رأى التجارة والعمارة والإنتاج رأى ضيوفه ، وحيثما رأى الإسراف والإتلاف والتبطل رأى أهله !

ليتنى أدرى ماذا يقول الغنى الأصيل إذا نافره الأجنبى الدخيل أمام قدس الوطن ؟ أيقول له . هذه رءوس أموالى تنشىء الشركات وتقيم المصانع وتنمى الثروة ؟ أم يقول له هذه (مشروعات) أعمالى تقر الأمن وتحيى البلاد وتقتل البطالة ؟ أم يقول له هذه ثمار إفضالى تعزز الدفاع وتشجع الإبداع وتنشر الثقافة ؟ الله أعلم يومئذ أيهما يقول ذلك وغير ذلك ، وأيهما يقف ناكس الرأس خاشع الطرف عيّ اللسان ، لا يجرى على باله إلا أنماط الثياب وسلائل الكلاب وفضائل الخيل وطُرُز السيارات وأندية القمار وحسان هوليود !

يظهر أن التفدية والتضحية والخدمة العامة إنما تكون أثراً لقوة الروح وصحة الخلق ، فإن أول من تطوع للجهاد شباب الأمة ، وأول من تبرع للدفاع

رجال الدين ، فالحيلة فى أغنيائنا إذن هى حيلة الله هو وحده الذى يملك أن يحيل فى النفوس عبادة المال عبادةً للوطن ، ويجعل فى القلوب محبة النفس محبةً للناس

* * *

يا أغنياءنا إنما نريد أن نحبكم فساعدونا على خلق هذا الحب . إن ديننا ينهانا أن ننفس عليكم نعمة الله . وإن وطننا يمنعنا أن نضن عليكم بأخوة الوطن ، ولكن العقيدة والوطنية اللتين تحببانكم إلينا ، هما كذلك اللتان تغضباننا عليكم ! لأن الأمة تريد أن تقوى فى نفوسكم قوتها ، وتبغى أن تعتز وفى رءوسكم نخوتها ، وتحاول أن تدافع وفى أيديكم ثروتها ، فحرمتموها كل ذلك ووضعتموه فى غير موضعه ، وأضعتموه فى غير سبيله ، ثم مكنتم للجهل والفقر والمرض أن تدهمها من كل جانب ، فقعد القوى لجهله عن السعى ، وفتر العالم لفقره عن البحث ، وعجز الضعيف لمرضه عن الإنتاج

* * *

يا أغنياءنا — والناس أجمعون يعرفون من أعنى — لقد جربتم بذل المال فى اللهو ، وقتل العمر فى العبث ، وفقد الصحة فى المجون ، فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً أو وجدتم فى عواقبه سعادة ؟ جربوا ولو مرة واحدة على سبيل التسلية أن تمسحوا دمعة على خد حزين ، أو تنفسوا كربة عن قلب بائس ، أو تسهلوا طلب العلم لفقير ، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل ، أو تشاركوا أبناء الشعب فى منفعة عامة ؛ ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع فى صدوركم الرخاء ، ويرتفع بقلوبكم الإخاء ، وتنعم نفوسكم فى الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود . ثم وازنوا بين متعة الجسم ولذة الروح ، تجدوا أن الأولى تنقضى بالملل والعلل

والجريمة ، والأخرى تدوم بدوام الروح فى الأرض وتخلد بخلودها فى السماء

* * *

يا أغنياءنا — والله هو الغنى الحميد — لقد بح الصوت وحفى القلم وأنتم فى نشوة البطر وغفوة النعيم لا تسمعون ولا تقرأون ! فهل تظنون أننا بما نقول ونكتب نريد أن نخرجكم من متاعكم ، أو نحولكم عن طباعكم ؟ لا يا سادة ! إن ذلك عمل الله وحده ؛ أما عملنا فأن نذكركم كلما نسيتم أن لكم مواهب تهملونها وللوطن فى استغلالها نصيب ، وأن لديكم أموالاً تبذرونها ولله فى ريعها حق ؛ وأن ننبهكم كلما غفلتم إلى أن هزل الحياة لا ينفع فى جد الموت ، وأن ملك الدنيا لا يغنى عن ملك الآخرة !

من صُوَر الماضِي

(١٩ يونيه سنة ١٩١٩)

كان الفلاح فى القرن الماضى يكابد صِنفاً من الخلق صورهم الله على مِثال عجيب من خفة الصقور وفتكة النمور وهيئة الناس ليكونوا مذكرين بجبروته ومنذرين بعذابه ! كانوا من الأرناءود أو الجركس ، وكان عملهم جباية الضرائب على كل شىء ، ومن كل شخص ، وفى كل وقت ، وبكل صورة ، أو اقتحامَ الدور للبحث عن المحظور أو المحكور من الملح والصابون إذا اقتناهما أحد من غير طريق الحكومة . وكان سبيلهم إلى ذلك الإرهاب والعنف . فمتى دخل أحدهم قرية من القرى دخلها الفزع والروع فلا يملك السائر أن يتقدم ، ولا الواقف أن يتكلم ، ولا الداخل أن يخرج . ثم تخشع فى القريه الحياة فلا تسمع حساً ولا حركة إلا هرير الكلاب وقوقأة الدجاج وصراخ الصِّبية ! فإذا خرج منها (الجندى) كما كانوا يسمونه انطلقت من ورائه ضجة شديدة فى البلد من بكاء المضروب وصراخ المنهوب ودعاء المضطرب .

فلما انتظمت أداة الحكومة بعد الثورة العرابية انكمش هذا النوع حتى انحصر رهبوتُه فى ضياع الأمراء و « جفالك » السادة . وكانت قريتنا وسبع قرى أخرى متجاورة قطائع لعلى باشا شريف فى أواخر القرن الماضى . وكانت الإمارة والإدارة فيها لهؤلاء الأرناءود أو (الأرنطة) كما كنا نقول ، ففرضوا عليها نظاماً فى العيش أخذوه عن حياة الحيوان وعيشة العبد . فكان الناس ، كما يحدثنا الباقون منهم ، لا يملكون مالا ولا حرية ولا حياة ، وإنما كانوا يعملون بالتعذيب ويغلُّون بالكره ، كما تعمل الماشية بلسعات السوط وهى صابرة ،

وتغل الأرض بضربات الفأس وهى صامتة . وكان لفظ (المأمور) معناه الموت الذى لا عاصم منه ولا مهرب ؛ ذلك أنه كان يخرج كل يوم على جواده إلى الحقول شاكى السلاح ، كاشر الوجه ، منفوخ اللغاديد ، مفتول الشارب ، متوقد النظر ، كأنه تمثال الرعب أو صورة الهولة ! ثم يسير متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال لا ليتفقد العمال و يتعهد الزراعة ، ولكن ليبحث عن إنسان يعذبه ، أو حيوان يضربه . والناس قد تعودوا منه ذلك فهم لا ينفكون طول اليوم يرقبون ناحيته و يرصدون طريقه ، حتى إذا أبصروه من بعيد غابوا فى مخابىء الأرض كأنهم لم يكونوا ! فإذا عاد من طوافه خائب السوط جلس أمام الدوار وأمر أن ترش الأرض وأن يلقى فى وحلها من جاءه فى طلب حاجة أو رفع مظلمة ! ثم يصيح بالجلاد أن ينهال عليه بالكرباج ، وهو فى خلال ذلك يميد من الغضب و يبربر من الغيظ حتى تهدأ ثورته وترضى كبرياؤه بعد لأى ! وكان العمد والمشايخ منوطين به فلا يسمعون الأمر والنهى إلا منه ، ولا يرفعون مشكلات القرى وقضاياها إلا إليه . لذلك ظل أهلوها يجهلون أن لهم خديوياً غير على شريف ، (ونظاراً) غير نظار الزراعة ، و (مأموراً) غير مأمور التفتيش . وكان هذا (الحاكم) كسائر بنى جنسه مغلق الذهن مطبق الجهالة ، يجهل الزراعة ولكنه يأمر ، ولا يعلم القضية ولكنه يحكم ، والجانى المحكوم عليه هو الذى جرؤ على أن يعقب أو يعارض . وكان سادته لا يفوقونه فى الذكاء ولا فى الرحمة ، فكانوا إذا زاروا هذه القرى — وقليلا ما كانوا يزورون — تنكبوا بنادقهم وخرجوا يقتلون الوز فى البرك ، والحمام فى الأجران ، والكلاب على التلول ، والغربان على الشجر ، و يراهم الناس فيرنون إليهم دهشين من طرابيشهم الحمر على وجوههم البيض ، و يظنون أن وراء هذا الرواء جمال القلب وكرم النفس ، فإذا دنوا منهم يسألونهم الإحسان والعدل زمّوا بأنوفهم ومضوا مستكبرين لا ينظرون ولا يجيبون !

أذكر وأنا صبي دون اليفاعة أن الناس كانوا يتحدثون عن جبار من هـذا الطراز اسمه (زينل) كانوا يتحدثون عنه كما يتحدثون عن البلاء ، ويؤرخون بعهده كما يؤرخون بالوباء ، لأنه أذل الفلاحين بالخوف والجوع ، وأضاع شبابهم بين التربة والغربة ولا تزال الألسنة هنا وهناك تتناقل هذه المأساة من مآسيه :

يقولون إنه كان فى قرية من هذه القرى شاب لم تلد نساؤها أجمل منـه وجهاً ولا أشجع قلباً ولا أرق عاطفة . وكان هذا الشاب بحكم شبابه وجماله وكرمه حبيباً لـكل فتاة وصديقاً لـكل فتى ، ولـكنه كان كلفا ببنت عمه ، فهى وحدها حافز عمله وغاية أمله وروح حياته .

وفى ذات عشية من عشايا الصيف كان على وليلى عائدين من الحقل وهما ينسمان بالحب الخالص ، ويبسمان للغد المرجو ، فغلبت على العاشق نشوة الطرب من جلال الطبيعة وجمال الفتاة ، فقال وهو يقدم إليهـا آخر قطعة بقيت فى يده من الحلاوة الطحينية :

— ألا تشتهين شيئاً فى الدنيا غير الحلاوة ياليلى ؟

فقالت له ليلى بعد لحظة من الصمت الحالم :

— لا أشتهى بعد قربك يا على إلا عنقوداً من العنب ؟

عنقود من العنب ؟ إن الثريا أقرب إلى يديه من هذا العنقود ؟ وهل رأى فى دنياه العنب إلا فى حديقة (التفتيش) ؟ وماذا يصنع والدنو من سياجهـا هلاك محقق ؟ ولـكن الحب لا يدرك البعيد ولا يعرف المستحيل فـكمن علىٌّ بعد رجوعه من الغيط فى كومة من دريس (الوسية) حتى جنه الليل فقـام يتسلق السور من جانبه المظلم فلما بلغ أعلاه سقط فى الحديقة فـكانت سقطته فى يد الحارس !

وبات فى سجن الدوار وأصبح الصباح فجلس المأمور والمعاونون والنظار ورشت الأرض وطُرح الجانى ، وتعاقبت على جسده المعرّى عذبات الكرابيج والناس من حوله يضجون بالبكاء ، ويضرعون بالرجاء ، و (الأغوات) يتلذذون برؤية الدماء المنزوفة والدموع المذروفة ، ويطربون لسماع الأنات الضارعة والصرخات المتصلة ، حتى كلت يد الضارب وخفت صوت المضروب ، فحملوه إلى السجن . وشفع العمدة لأهله أن يأخذوه ، فلما دخلوا عليه لم يجدوا فيه وا أسفاه إلا حُشاشة نفس لفظها على صدر حبيبته أثناء الطريق .

تكاليف الاستقلال

(٢٦ يونية ١٩٣٩)

وهل تكاليف الاستقلال ، إلا ضرائب الدماء والأموال ؟

لقد كنا قبل أن نبلغ رُشدنا الدولى نعيش فى كنف الحكومة وحمى الاحتلال، كما يعيش النَّشَأ الأغرار فى ظلال الأبوين ورعاية الأسرة ! تنفق علينا الحكومة ولا نعلم من أين تَكسِب، وتدفع عنا الخليفة ولا ندرى بماذا تضرب. وكنا نسمع بما تجود به الأمم لأوطانها من الأموال والأعمار والأنفس ، ونرى ما نحن فيه من البال الفارغ والعيش الأبله ، فنحسب أن حياتنا هى الحياة وغبطتنا هى الغبطة ولكننا كنا نرى من الجهات الأخرى أن عزتنا وقوتنا لا تقاس على عزات هذه الأمم وقواها ، فهى فى أوطانها حرة الإرادة مطلقة السيادة ، وفى العالم مرفوعة الرأس مسموعة الكلمة ؛ ونحن فى وطننا قطيع يُسام ويسمَّن ، وفى العالم سلعة تُساوم وتثمن ، فلا نشعر هنا كما يشعر الناس هناك أننا نحن الوطن والثروة ، والحكومة والسطوة ، والدولة والسلطان فلما بلغنا التكليف وأدركنا الاستقلال وملكنا زمام الأمر ، أصبحنا فإذا أخطار المجد تحوم على كل نفس ، وأثقال الدفاع تنحط على كل كاهل : فالضرائب تجبى من المال ، والكتائب تجمع من الدم ، والتضامن الدولى العام يقتضينا المساهمة فى حفظ السلام وإقرار العدل بالمعاهدات الدفاعية والمواثيق الاقتصادية ؛ وفى سبيل ذلك تستعد كل نفس للموت ويتهيأ كل شىء للبذل ومن أجل ذلك يجب أن يكون صوتنا هو الأرفع فى السياسة ، ورأينا هو الأعلى فى الحكم .

نحن الذين ننفق فلا بد أن يكون لنا الحساب ؛ ونحن الذين نموت فيجب أن يكون فى أيدينا الأمر !

* * *

ما كنا قبل اليوم نشعر هذا الشعور ولا نفهم هذا الفهم والفضل فى هذا الوعى وفى هذه اليقظة يكاد يرجع إلى ضريبة الدمغة من دون الضرائب فإن ضرائب العقار والدخل والإنتاج إنما هى ضرائب خاصة ، تجبى من قوم دون قوم ، وفى وقت بعد وقت ؛ فالشعور بوجودها محدود ، والتفكير فى أمرها مؤقت . أما ضريبة الدمغة فهى ضريبة عامة ، تجبى من أى إنسان فى أى زمان مادام له عمل أو حاجة فهى لذلك لا تنفك تشعرك وتشعرنى أننا ننفق على الحكومة ؛ فرؤساؤها وكلاؤنا ، وموظفوها أجراؤنا ، وأموالها أموالنا ؛ فنحن جديرون أن نراقب الوكيل ، ونحاسب الموظف ، ونرعى الخزانة . ونحن خليقون أن نقول للوزير : إن جهدك للدولة فلا تبذله على هواك الفرد ؛ وللموظف إن وقتك للأمة فلا تشغله بعملك الخاص ؛ وللنائب : إن رأيك للناس فلا تصرفه إلى متاعك الباطل .

لقد كنا ندرك معنى الوطن إدراك الشيوع والإبهام والغفلة ، فلا نكاد ندرى ما يقدِّم إلينا وما نقدم إليه فالترع تشق ، والطرق تُنهج ، والجسور تقام ، والعمارة تمتد ، والثقافة تنتشر ، والأمن يستقر ، والحضارة تزدهر ، ونحن نستمتع بذلك كله استمتاع الغريب لا نجد فيه ريح الفخر ولا روح الجد ، كأن غيرنا هو الذى قام به وأنفق عليه ! ولو أن عابثاً عبث به ، أو عائثاً عاث فيه ، لما ألقينا بالنا إلا لخبر السرقة أو الخيانة أو المحاباة ، نرويه كما نروى أخبار

البرق للتفريج والتفكهة فى حديث القهوة أو سمر البيت وتلك حال كانت أشبه بحال الأمير أو الغنى الذى أوتى الملك عفواً من غير حيلة ، واستولى على ريعه صفواً من غير كلفة ، فشعوره به شعور بأثره لا بعينه ، وحرصه عليه حرص على ثمره لا على شجره . أما لذة الملك فى ذاته فلا يستشعرها إلا المالك الذى اشتراه بجده ، والفلاح الذى استغله بعرقه

كذلك كنا نفهم معنى الوطن قبل أن نفهم معانى الاستقلال والسيادة والعزة فلما فهمناها وفهمنا لوازمها من الإخلاص والإيثار والتضحية ، أصبحنا نعتقد أن كل قوة هى من قوات الوطن العامة ، وأن كل ثروة هى من ثرواته المشتركة فالقادر لا ينبغى أن يعطل قوته لأنه حر ، والغنى لا يجوز أن يبدد ثروته لأنه مالك

إن للوطن حقاً معلوماً فى أملاك المواطن وملكاته وإن للوطن حقاً مشاعاً فى أمجاد الوطن وخيراته : فأنا من حقى أن أقول للأمير الذى يهلك ثروتنا وسمعتنا على الفتون والمجون ؛ وللغنى الذى يخمد نهضتنا وحيويتنا بالكزازة واللؤم ؛ وللأديب الذى يزيف أدبنا وتاريخنا باللغو والباطل؛ وللوزير الذى يوزع المناصب بالهوى ويقسم الأرزاق بالمحاباة ؛ وللموظف الذى يتصرف فى أشياء الدولة تصرف المالك ، فسياراتها فى جراجه ، وسعاتها على بابه ، وأموالها فى جيبه ؛ وللعضو البرلمانى الذى لا يدخل أحد المجلسين إلا ليقبض مكافأته أو يلقى أصحابه أو يتلقى بريده ؛ من حقى وحقك أن نقول لهؤلاء جميعاً على التوالى : إنكم علَقٌ تعيشون على دماء الناس ، وأنكاد تتلذذون بكفران النعم ، وأقدام تتطفلون على موائد العلم ، وأوغاد تدلسون الحكم على

الوطن ، ولصوص تعيث أيديكم فى مال الأمة ، وعيال تبهظ أثقالـكم عاتق الفقير ؛ فحياتـكم على الأرض غرور ولهو ، ونسبتـكم إلى الوطن زور وباطل .

* * *

ذلك ما يحق لـكل مصرى أن يكرر قوله . وذلك مايجب على كل مصرى أن يتقى سماعه . ولا خوف علينا بعد اليوم من غفوة العيون وغفلة البصائر ؛ فإن كل طابـع نشتريه من طوابـع الدمغة منبه عنيف الحركة فى اليد شديد الصوت فى الأذن ، وإنما الخوف كل الخوف على زعيم الأمة إذا ضل ، وعلى أمين الخزانة إذا أسرف !

من هذيان الحر

عابو .. وعلو

(٣ يوليه سنة ١٩٣٩)

نحن يا صديق القارىء من سموم تموز على حالٍ سواء : أنا لا أحسن الكتابة وأنت لا تحسن القراءة ، فتعال أهذِ أنا وتسمع أنت ؛ فإن الهذيان فى الحر كالهذيان فى الحمى ، تنفيسٌ عن الروح المكروب ، وتخفيف عن الدم الفائر . والهذيان كلام كفورة الإناء ليس له نظام ولا فيه عقل ، ولكنه كحلم النائم لا تغلب فيه جملة على جملة ، ولا تظهر به صورة دون صورة ، إلا لأن لها فى العقل الباطن أثراً وبالروح اليقظان صلة . ولعلك واجد فى لواغى المحموم والملموم والنشوان والنائم من ومضات الحق مالا تجده فى بعض الكلام . ولقد كان فى قرى الريف جماعة من الممسوسين المتهامين يعتقد الناس أن وسوستهم من كشف الغيب وإنذار القدر . وربما أصابوا فى لحونهم توجيهاً إلى منفعة أو تنبيهاً إلى مضرّة !

* * *

يقولون : فى شهر تموز ، يغلى الماء فى الكوز ، ويجرى الشر على البوز[١] ! فهل صمم القوهرر أن يفتح فى (دانزيج) طاقة من جهنم تجعل البحر حميماً[٢] على كل مستحم ، والجبل جحيما على كل مصطاف ؟ ماضر هتلر أن يمهل الأغنياء المدللين حتى يبذروا الذهب فى مــــدن المياه ، كما أمهل الفقراء المساكين

(١) البوز فى لغة العامة : الفم .

(٢) الحميم : الماء الحار.

حتى حصدوا الحنطة فى قرى اليابسة ! ماذا يصنع ذلك الأمير أو ذلك الكبير الذى وقف دخل العام كله على هذا الشهر ، فقسم أمواله بين موائده الخضر فى كل ساحل ، وفرق آماله على مواخيره الحمر فى كل حضيض ؟ أيجوز أن يحرمه هتلر غدوات القمار وأصائل الغزل وأماسى الرقص وأسحار الفتون ، لأنه يريد أن يتسع وطنه ويرتفع شعبه وينتشر سلطانه ؟ هل هانت الأرستقراطية على الناس إلى هذا الحد ! ؟

لو كنت ذلك الأمير أو ذلك الكبير لصحت ملء فمى : لعن الله الديمقراطية والدكتاتورية ! فإنهما منذ رفعتا كلمة الشعوب فوق إرادة السادة ، ونقلتا سلطان الملوك إلى الساسة والقادة ، هوت الأرستقراطية إلى الدرك الأسفل من بناء المجتمع ، وأصبح أهلها كدُمى الأثاث توضع للزينة ، أو كذلاذل الثياب ترسل للحلية ، لقد كانت الحرب فى عهد العزة الارستقراطية لا تقوم بين إمارتين أو مملكتين إلا لأن الأمير أو السيد أراد أن يصيد فصُد عن الأرض ، أو يخادن فدُفع عن المرأة ، أو ينفق فعجز عن المال ؟ أما اليوم فمن مهازل الدهر أن تشب الحرب بين دولتين أو قارتين لأن عاملا فقيراً أراد ليده عملا فلم ينل ، أو تاجراً حقيراً طلب لبضاعته سوقاً فلم يجد وفساد الأمر كله إنما جاء من وضع الحكم فى أيدى المتعلمين من أبناء الصناع والزراع والعملة !!

* * *

آمنت أن الله خلق فى الناس العُلّيق والعلق . فالعليق نبات يتسلق ما يقربه من الشجر فيعلوه ويلتف به ويعرش عليه حتى يحرمه نسم الريح وضوء الشمس وجلال الرفعة . والعَلق دود يتعلق بمن يمسه من الحيوان فينشب فيه خرطومه ، ثم يمتص دمه ويستلب حياته .

فهؤلاء الأتباع والأوزاع الذين يلتفون حول (أبناء الذوات) يهرّجون لهم في الحديث ، ويروجون لهم المنكر ، ويتطاولون من وراء أكتافهم إلى شخشخة الحياة ، هم عليق .

وهؤلاء (البلطجية) الأوشاب الذين يلقون أبدانهم الثقيلة على عواتق البغايا الضعاف والتجار المساكين فيفرضون عليهم بالقوة ملء البطون والجيوب من السحت والإثم ، هم عاق .

وأولئك المتزعمون المتبطلون الذين قصروا جهدهم في الحياة على أن يتخاطفوا عصا القيادة ، ويتنازعوا كراسي الحكم ، ووسيلتهم إلى ذلك أن يقوموا على هامش الطريق أبواقَ فتنة ؟ أو يقفوا في سَوائه أحجار عثرة ، هم عليق

وأولئك المترفون المسرفون الذين استولوا على الأرض من غير ثمن ، وتسلطوا على الفلاح من غير سلطان ، فأكلوا ثمرة الزرع حتى انتفخوا ، وشربوا عرق الزارع حتى طفحوا ، هم علق

وأولئك النقاد المتخرصون الذين يتهجمون على أعيان العلم والأدب باللغو والجهل والسفه ، ليدركوا نباهة الذكر من بلاهة العامة ؟ هم عليق .

وأولئك المؤلفون المزيفون الذين يستغلون ضعف المعلمين وفقر الأدباء فيكلفونهم أن يكتبوا المقالات وهم يمضونها ، ويضعوا الكتب وهم يستلحقونها ، ويربحوا الأموال وهم يقبضونها ، هم علق .

وأولئك الرؤساء البلداء الذين يحملون على الموظف الصغير بالإعنات والقهر حتى يكفيهم كل رأى في التقارير ، وكل نظر في الأضابير ، ولا يدع لهم إلا نفخة الشدق بالأمر ، ولطمة الإمضاء بالخاتم ، هم عليق .

وأولئك الموظفون المخادعون الذين يسرقون جهود زملائهم بالمكر ،

ويكسبون رضا رؤسائهم بالملق ، و يلقون التبعات عن كواهلهم بالحيلة هم علق

ولو شئت لحدثتك عن العليق والعلق فى كل طائفة ، ولـكن مالنا نبغّض الهابط إلى الصاعد ، ونحرض الساعى على القاعد ، ولا نترك شئون الخلق للخالق ؟

* * *

إن عقرب الساعة يهدف إلى السابعة فى خُطى غير منظورة ، وإن أنفاس المساء الندية قد أخذت ترف بطراءتها على الغرف المحرورة وهأنذا أشعر شيئاً فشيئاً بحمّاىَ تذهب ، وبرشدى يثوب ، وبِدَمى يسكن ، وبذهنى ينتعش ، وبفكرى يتجمع ، وبقلمى يجرى على الورق بكلام لا أدريه ، وبالغلام يطلب المقال للجمع فلا أستطيع أن أصرفه لأعيد النظر فيه .

١

من فكاهات العهد التركي في بغداد :

حدثني المرحوم الزهاوي

(١٠ يولية سنة ١٩٣٩)

تركية القديمة — غفر الله لها — كانت فى دول الأرض معنى من معانى الإرهاب حروف لفظه السم والهم والسجن والسيف والسوط ! جمعت فى يدها القوية أطراف الشرق والغرب ، ثم أدارت حول تاجها الرهيب هالة من خلافة الرسول فعنت لجلالها الوجوه ، وخشعت لسلطانها الأفئدة ؛ ولكنها لم تستطع أن تثبت ملكها بقوة الروح و براعة الذهن وعبقرية البيان كما فعل العرب فظلت واقفة أمام شعوبها الثائرة عابسة الوجه معقودة العنق[1] منشورة الشارب مشهورة السيف ، فحرمها ذلك الموقف نصيبها من طمأنينة السلم ومدنية العلم ونعمة الثقافة . وكان ولاتها على الأمصار الخاضعة يحكمون الناس بهذه العقلية الجهول ،فيظهرون الأبهة وينشرون الرهبة ويحصدون الأموال والأنفس بالضرائب والرشى والمصادرة والقتل . فإذا طالت الولاية واكتظ الوالى ورضى (المابين) وأراد الباشا أن يفكر فى الدين أو فى العلم أو فى الإصلاح ، دل على فهم بليد وغفلة عجيبة !

كنا فى ذات يوم نتحدث فى هذا وفيما جره على الأمة العربية من الجهل والذل والفقر ونحن جلوس فى ندوة السيد صبحى الدفترى محافظ بغداد يومئذ ؛ وهى ندوة تقوم فى داره المضياف ضحى يوم الجمعة من كل أسبوع فيندو إليها الوزراء والزعماء والأدباء والقادة ، فيكون لكل طائفة منهم حلقة وحديث .

---

(١) عقد عنقه : لواه تكبراً .

ولكن الزهاوى كان إذا تكلم أصغت إليه الدار وتحلقت عليه الندوة ؛ لأن جميلا كان آية الله فى فكاهة الطبع وظرف المحاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث . وكان له فى إلقاء النادرة لهجة وإشارة وهيئة لا يبرح سامعها مستطار اللب نشوان المشاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع

* * *

كان الحديث أول ما بدأ دائراً بينى و بين السيد ناجى الأصيل على أن الحرب وأوزارها استقلت بمواهب الترك فلم تدع لهم كفاية للسياسة والثقافة ؛ وأخذنا نضرب الأمثال على ذلك مما جرى فى العراق وفى مصر . وكان المرحوم الزهاوى بجانبى ، ولكنه كان مشغول الأذن بكلمة منافقة فى العقاد والرصافى ألقيت إليه فى خفوت وخبث . فلما تشربها سمعه وأجاز عليها القائل ببسمة وهزة وسيكارة ، أقبل علينا فسمع طرفاً من الحديث نبض له نابضه فقال هُوهُوه! إذا حدثتك مولانا عن حمق الولاة من الترك لا ينتهى الحديث ولا ينقضى العجب !

ثم أرسل نكتته الحاضرة وضحك ضحكته الساخرة فتنبه المجلس إلى أن الزهاوى سيتحدث ، فسكت المتكلم وأصغى المستمع وتهيأت النفوس للسرور الشديد والضحك المتصل ، وأخذ الشاعر يقول :

أرسلت إلينا الدولة العلية بعد جفاف الريق والمداد من شكوى الجهل والفساد واليأس واليسير بالعراق فى طريق العمارة والعلم ، فقابله البغداديون باحتفال عظيم وفرح شامل وكان لى يومئذ يد فى إدارة التعليم كما تريده الدولة ، فقال لى الوالى ذات يوم إنا نريد أن ننشىء مدرسة للبنات فابحثوا عن دار تصلح أن تكون لها مكاناً . وكان تعليم البنت فى ذلك العهد أملاً من آمال المصلحين

تتقارع حوله الأقلام بالحجج فى غير طائل . فقلنا إن الرجل رحب الباع فى الإصلاح ، ودللناه على جملة من الدور الكبيرة الصالحة ، فكان كلما دخل داراً قال إن الأبصار تجرح البنات من هنا ، والأسماع تسرق الأصوات من هناك؛ حتى لم يدع فى بغداد داراً إلا عابها هذا العيب من طريق التوهم أو التخيل ! وظهر من تصرف الرجل أن به بلاهة وغفلة . فخطر لى أن أتداعب عليه لأكشف حاله للناس فلا يستنيموا لحكمه . فقلت له : أفندى ! لم يبق فى البلد كله إلا مكان واحد أرجو أن يقع من هواك موقع الرضا . فقال : امض بنا إليه فذهبت به إلى (منارة سوق الغزل[1]) وصعدنا فوقها ، فلم تكد قدمه تستقر على شرفتها العالية ، وعينه تقع على سطوح بغداد وهى متطامنة تحت المأذنة العليا ، حتى شهق من الفرح وصاح بملء فيه ؛ نعم ! نعم ! هذا هو المكان المناسب !

ثم نزل وفى نيته أن يتخذ الأهبة من المقاعد والأدراج ليفتتح المدرسة ! فقلت له مولانا ! لابد أن تجمع الناس قبل الافتتاح لتقنعهم بتعليم بناتهم فإنهم سيئو الرأى فى ذلك التعليم ، ونجاح الأمر موقوف على أن يعتقدوا فيك التقى والورع . وسأدلك على أقرب الطرق لتحقيق هذا الاعتقاد :

إذا اجتمع الناس واكتظ بهم الديوان جلست أنت فى الصدر ، وجلس عن يمينك وعن يسارك رجال المعارف ؛ ثم تشعل (شبقك) وتأمر كلا منهم أن يفعل فعلك ؛ ثم تبتدىء فتذكر الله بصوت موقع على ضربات كفى وأنت تميل رأسك من الشمال إلى اليمين تارة ، ومن الخلف إلى الأمام تارة ، وأنا والحافون من حولك نتابعك فى كل كلمة وفى كل حركة ثم حاول أن تأخذك

---

(١) منارة عريضة طويلة من آثار العباسيين نهب الناس المسجد من حولها وتركوها قائمة وحدها إلى اليوم .

الحال ويستخفك الذكر؛ فكلما أزبد الفم وأرعد الصوت وتشنج الجسم وهاج الدم، كان ذلك أحمل للناس على أن يعتقدوا فيك الولاية فتقودهم صاغرين إلى ما تريد.

وصدق الوالى كل ما قلته له تصديقاً لا تتخلله فيه شبهة. وجاء يوم الجمع واحتشد الأعيان والوجوه يسمعون ماذا يقول الوالى. وجلس الباشا وأنا بجانبه وشيوخ المعارف من حوله، وأمر فأشعلت (الفلايين) الطويلة، وأخذ يذكر ويترنح وأنا أرسم له، والشيوخ يذكرون معه. ثم غمزته بعد حين فتهور و(تطور) وأرغى. وتظاهرت أنا بجذبة الوجد وسكرة التجلى فقرعت غليونه بغليونى، ثم أخذت بلحيته البيضاء ورأسه الأصلع، ففعل بى مثل ما فعلت به، وأخذنا نتدحرج على البساط، فمرة أكون فوقه، ومرة يكون فوق، والشيوخ يعجون بالذكر، والناس يضجون بالضحك، وأنا والوالى قد ملكنا حميا الولاية فدخلنا فى صراع عنيف لم يخرجنا منه إلا انقطاع النفس فجلسنا مسترخيين نلهث من الإعياء وكلانا ينظر إلى صاحبه نظر الديك المنتوف إلى الديك المهيض. وذلك يا مولانا هو الوالى الذى اختير لتعليم الجاهل وتصحيح المريض!

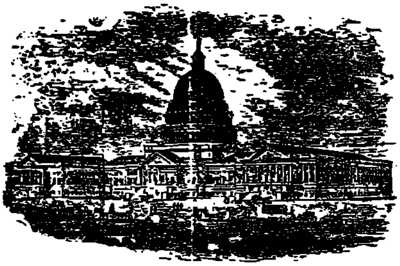

بين بطء الماضي وسرعة الحاضر :

من الأحاديث العابرة

(١٧ يولية سنة ١٩٣٩)

— اجلس ياصديقى قليلا نتحدث ! لقد أصبحت كالطيف المسافر لا نسمعك إلا هتافاً ولا نراك إلا لمحاً ولا نجالسك إلا لماماً

— عصر السرعة ياصديقى ! لقد اشتد سائق الركب وأسرع فى النغم حاديه ، فمن تخلف عن قافلة الحياة افترسه الجوع وتخطفه العدم !

— أوه ! أجل ياصديقى ! عصر السرعة ، أو عصر الآلة ، أو عصر الإنسان ذى الزمبلك ؛ أسماء مختلفة لمرض واحد : وهو كَلَبَ هذه الحضارة الغربية

— أتسمى نشاط الحياة وسرعة العمل ومساورة الرزق مرضاً ؟ وأين تكون الصحة إذن ؟ أفى الجمود أم فى القعود أم فى التخلف ؟

— رويدك ياصديقى ! هل تستطيع أن تقول لى : لماذا يسرع الناس ؟ أليقطعوا العمر فى أعوام ؟ أليفنوا الشباب فى أيام ؟ أليقضوا اللذة فى ساعات ؟ وما قيمة كل ذلك فى دَرَك السعادة ؟ لقد كنا نشتغل بعض اليوم ، فأصبحنا نشتغل طول الليل . وَكنا نعمل باليد ، فأصبحنا نعمل بالآلة وكنا ننتقل بالجمل فأصبحنا ننتقل بالطائرة . وكنا نأكل مطمئنين فى البيت ، فأصبحنا نأكل مضطربين فى الشارع وَكنا نقيم العرس أربعين يوماً والمأتم سنة ، فأصبحنا نقتصر من الفرح على ساعة العقد ، ومن الحزن على تشييع الجنازة وكنا نخلق الكائن الفنىّ فى دهر طويل من العمر ليكون متعة الذوق والذهن

والعاطفة طول الأبد ، فأصبحنا نصوره فى ليلة ليفرغ الناس من تقديره فى لحظة . فهل وجدنا من رخاء الصدر وسكينة الروح مقدار ما فقدنا من راحة البدن وفسحة الأجل !

— وما يدرينى ؟ لو أننى أدركت العهدين لجاز أن أحسن الموازنة وأصيب الحكم !

— أنا الذى أدركت العهدين ، وأستطيع أن أقول لك إنى أشعر بالفرق بين بطء العيش وسرعته ، كما يشعر الظامئ الآمن بالفرق بين الرشيف والجرع[1] وأدركه كما يدرك المتنزه الشاعر الفرق بين اجتياز الروض على القدم واجتيازه فى السيارة . لا ريب أن الشارب إذا ترشف الماء وتمززه كان ذلك أنضج لغليله وأبرد على كبده من العب الذى يعجل الرى ولكنه يؤجل الهناءة كذلك المتنزه على قدميه يجد فى كل خطوة عالماً من الجمال ، وفى كل وقفة فيضاً من اللذة ؛ على حين لا يجد راكب السيارة إلا الخوف فى كل نظرة ، وإلا الخطر فى كل كرة ! !

أنظرا هذا الذى تراه واقفاً بعربته أمام الدار هو عامل من عمال (أورزدى باك) ، طلبنا من هذا المتجر بالتليفون بعض متاع البيت وحاجة العيش ، فأرسله بالسيارة ، وتسلمه الخدم ، ولم نجد نحن الذين كلفتنا هذه الصفقة عشرين جنيهاً ما كان يجده المشترون المتذوقون من لذة الانتقاء وفرحة الاقتناء وغبطة القدرة .

هذه (العملية) التى لم تستغرق غير ساعة من النهار كانت فى حياتنا القروية الذاهبة تقتضي من الزمن أسبوعاً ينقضى بين سوابق اللذة وآثارها مذهب

---

(١) الرشيف : مص الماء بالشفتين، والجرع ابتلاعه بمرة . وفى الأمثال : « الجرع أروى والرشيف أنقع » .

الأطراف بالأحلام ، مطرز الحواشى بالصور ، لا تـكاد الأسرة تفيق من نشوته ولا تنتهى من حديثه !

دعنى أعد بالذاكرة إلى حدود الماضى البعيد فأذكر لك كيف كان رجال القرية يشترون حاجة عامهم من السوق . كان بين كفر دميرة القديم و بين المنصورة ساعة ونصف ساعة بالأتان السريعة ، فأصبح بينهما اليوم ربع ساعة بالسيارة البطيئة ! وكان القوم متى باعوا القطن أكثروا الحديث عن المتاع والـكسوة والمنصورة ، فتتهيأ الأذهان من قبل للسوق كما يتهيأ قلب المؤمن فى رمضان للحج ، وفكر (المتمدن) فى أبريل للاصطياف. فإذا جاء يوم السوق الذى تواطأ رجال (الحارة) على الامتيار[1] فيه ، كان كل شىء على تمام الأهبة ، فالبرادع المنجّدة على الحمير ، والأخراج مخططة على البرادع ، والعصى الدقيقة فى الأيدى الغليظة ، والدنانير الذهبية فى الأكياس العميقة ، والفطائر الدسمة فى المقاطف الوعيبة ؛ وكبير (الحارة) قد تنفس عليه الصبح وهو على حماره فى جرن القرية يحبس المتقدم ويستحث المتأخر ؛ حتى إذا اجتمعت العير[2] واكتمل العدد ساروا فى سكة السوق سطراً منضوداً يتناسق على نظام المقام والسن . وتسمع ضوضاءها من بعيد فتحار أذنك بين الـكلام والضحك والنهيق وحث المطايا بالزجر والضرب ، واصطـكاك الحوافر بالتراب والحصى . فإذا بلغوا (طلخا) أودعوا حميرهم فى (الوكالة) وهى الجراج بلغة اليوم ، ثم وضعوا الأخراج على المناكب ومضوا صامتين إلى المعبر يركبون منه الزورق إلى شاطىء المنصورة .

وهنا يرفضّ عن القوم النشاط والزياط والجرأة فيخشعون خشوع الطائر المهيض ، لأن النيل غير الترعة ، والسفينة غير النورج ، والمدينة التى يسكنها

(١) امتار فلان لعياله : أتاهم بالميرة من طعام وكسوة .

(٢) العير : قافلة الحمير .

(الأفندية) غير القريبة التى يخيفها كلمة أفندى واحد ! هاهم أولاء يخرجون من ضيق القارب إلى زحمة الشارع فيمشون فى سواء الطريق أو على إفريزه سلاسل سلاسل يتماسكون عند الجوف ، ويتسكومون لدى الملع ، ويتصايحون عند الشتات ، ويقفون اللحظة بعد اللحظة ريثما يعود الشارد ويلحق المتخلف ، حتى ينزل بهم الدليل على (الخواجة) المقصود ، نزول الغيث على الثرى المجهود ، فيجلس الكهول على الكراسى والشباب على الأرض ، وينشر تاجر القماش وعماله الأثواب المختلفة على عيونهم الشاخصة وأيديهم الفاحصة ، فيختلفون على النوع أو على اللون أو على السعر ، فتعلو الأصوات وتعنف الحركات ، وتطول المساومة ، حتى تخور القوى وتصحل الحناجر ويذهب الوقت فيقبلون أخيراً كل نوع يعُرض ، ويرضون كل ثمن يفُرض !

ثم يقومون للغداء فيتخيرون شارعاً غير مطروق يجلسون حِلقاً على حاشيته ويأكلون فطائرهم بالحلاوة والعنب والبلح وهم فرحون مبتهجون ، ثم يعودون إلى البدال والعطار فيستأنفون النزاع على الصنف والسعر حتى يغشاهم الليل فيخرجون من سوق (الخواجات بُجُرَ[1] الأخراج والغرائر ، لايهتدون فى النور ، ولا يأنسون بالناس ، ولا ينتهون للدليل ، فينقطع الضعيف ، ويضل الغافل ، ويكون عند (المعدية) افتقاد ونشدان وضجة !

فإذا خلصوا بجامعهم من المدينة والنهر ، واقتعدوا ظهور المطىّ ، ونشقوا نسيم الحقول ، انبسطت المشاعروانطلقت الحناجر فخاضوا فى أحاديث السوق ، وأفاضوا

---

(١) البجر : جمع أبجر ، وهو الممتلىء البطن . والخرج وعاء ذو عينين يحمل على ظهر الدابة لوضع شىء فيه .

فى أعاجيب البندر ، وادعى كل منهم أنه كان أبصر بالبضاعة وأخبر بالسعر وأقدر على الخواجة !

وكان شباب القرية المنتظرون قد انتشروا مع الظلام فى طريق العودة يلقون العير ويكفونها مخاوف الليل . وكان نساء الغائبين وأطفالهم يتراقصون على أنغام المنى ويتسمعون على السطوح لجب القافلة ، فإذا دخلت البلد قابلوها بالأناشيد ، وقضت (الحارة) معظم الليل فى أكل البلح ومص القصب وتساقى الحديث . ثم يصبح الصباح فتفتح الحقائب وتوزع الكسى وتفرق الهدايا وتغرق هذه الأسر فى فيض من الفرح والمرح مدى أسبوع !

* * *

الواقع يا صديقى أن السرعة محنة هذه الحضارة . وذلك أن الحضارة وفرت على الناس الصحة وأخرت عنهم الموت حتى نموا وكثروا ، فهم يتزاحمون على موارد الرزق ، ويتسابقون إلى مظانّ القوت ، فأصبح من لا يجعل جناحيه رجليه لا يسبق ، ومن لا يصل بالعمل يوميه لا ينال !

قلت لنفسي ...

حضر الأصمعي يوماً مجلس الفضل بن الربيع وقبالته فرس مطهم فقال الوزير لصاحب كتاب الخيل : قم يا أصمعي وأمسك كل عضو من أعضاء هذا الفرس وسمه ، فإذا ما سميته أخذته . فقام وأمسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضواً عضواً وينشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه ، فأعطاه إياه ، فهبي يا نفس أن الجود والرق لم يُرفعا من الأرض ، وأني دخلت يوماً على أمير من الأمراء البهاليل وبين يديه جارية من الغيد الحسان ، ترفل في دِمَقس (شكوريل) و (سمعان) ، وقال لي هذا الأمير الأديب : إذا سميت ما على هذه الجارية من اللباس ، ووصفت ما في هذه الدار من الأثاث ، نزلت لك عن الجارية والدار ، وزدتك عليهما ألف دينار ! فماذا تريني يا نفس فاعلا ، وأنا الذي لا تعزب عنه مادة في اللغة ، ولا قاعدة في النحو ، ولا نكتة في البلاغة ؟ ماذا أسمي هذا المائل على الفَوْد الأيسر ، أو هذا المائل على الجبين الأزهر ؟ وماذا أقول في هذا المزرّر على الصدر المشرق ، وهذا المُدار تحت الثدى الناتىء ، وهذا المرسل على الكشح المضيم ، وهذا المفصّل على القدم اللطيفة ؟ أنا لا أعرف من غطاء الرأس إلا القناع والخمار ، ولا من لباس الجسم غير الملاءة والإزار ، ولا من وقاء الرجل غير الحذاء والنعل ! فهل تنطبق هذه الأسماء ، على هذه الأشياء ، أم تكون دلالتها كدلالة الأثاث والرياش على كل (موبيليات) البيت ، والورد والريحان على جميع أزهار الحديقة ، والجهل والعجمة على كل أدوات السيارة ؟!

لا جرم أني سأعجز على أي حال ، وسأطلب من رئيس المجمع اللغوي التعويض عن الجارية والدار والمال !

حلم ليلة صيف

(٢٤ يولية سنة ١٩٣٩)

غربت الشمس فى الرمال اللوبية المرمضة ومن ورائها فى الجو والأرض وهيج كزفير جهنم . وكان القاهريون قد احتشدوا فوق الجسور وعلى الشواطىء وفى الحدائق يتنسمون نَفَس الماء ونفح المساء وأرج الزهر ، فكأنما لم يبق فى البيوت والقهوات والطرقات أحد . وكنت أنا فى زحمة الناس أسير هَوْناً على جسر اسماعيل والذكريات العِذاب تنثال على خاطرى انثيال الشعاع السينمائى بالأخيلة المتحركة على الشاشة ، فأذكر فيما أذكر كيف كان ذوو السراوة والنعمة يخرجون قبل أن يعرفوا أوربا إلى الجزيرة آصال الربيع والصيف فى زينتهم الفاخرة ووضاءتهم الباهرة ومركباتهم الفخمة تتراقص بها الجياد المطهمة العتاق فيكون للفقراء من عرضها منظر فتان من زَهرة العيش يشغل الهم عن القلوب ساعة . ثم أبصر فيما أبصر كيف أصبح الجسر والجزيرة — بعد انتجاع المترفين المرفهين فيشى وكرلسباد ، ومونت كارلو ونيس — مَراداً لذوى الفاقة والعاهة والكرب ، لا ترى حولهم إلا بؤساً ، ولا تسمع بينهم إلا شكوى ! ثم أنتهىَ من هذا السير البطىء الحالم إلى (كازينو الكبرى) فأجلس وحدى فى مكان مظلم ، وأجعل وجهى وعينى للنيل المزدان بالقوارب ، وللشاطىء المزدهر بالمصابيح وحينئذ تغوص وتطفو بين جوف الماضى ووجه الحاضر ، فلا أرى فيما خلفه الزمان والإنسان إلا مآسى دامية ألّفها الطمع والأثرة ومثّلها الضعف والقوة . وكان عقلى القاصر يعلق أحياناً على ما تعرض

الحافظة من هذه الصور ، فيعجب كيف عجز إلى اليوم دين السماء وعلم الأرض عن التوفيق بين القوة والضعف ما داما متلازمين فى الحياة ! أليس منشأ الصراع الأزلى بين المرأة والرجل والعبد والسيد والفقير والغنى والمظلوم والظالم والمستعمَر والمستعمِر إنما هو القوة فى جهة ، والضعف فى جهة أخرى ؟ لا يحق لنا أن نسأل : لأية حكمة كانت القوة هنا وكان الضعف هناك ، ولكن من حقنا أن نقول : لماذا أعضل على المصلحين أن يحملوا القوى على أن يبزل للضعيف عن بعض القدرة فيستقيم الأمر بالاعتدال ويتحقق السلام بالعدل !

* * *

كانت ساعة الحرس تعلن بدقاتها المدوية انتصاف الليل حين تهالكت على الفراش وأنا من إدمان الذكر والفكر عَلَى حال شديدة من الجهد فلم تكد عيناى تغفيان حتى رأيت فيما يرى النائم أن دور الفقراء وأكواخ المساكين فى بولاق أمست كالتنانير الموقدة تلفح جدرانها باللهب ، وتسيل سقوفها بالبق ، ويختنق هواؤها بالنتن، فتركها أهلوها هاربين فى عتمة الليل إلى الشوارع والميادين فظنهم الحراس والعسس « متظاهرين » فطاردوهم بالعصى مطاردة الجراد ؛ فهاموا فى الشوارع من الذعر هيام القطيع ، حتى وجدوا قصراً من قصور الأمراء ، غريقاً فى الأضواء والضوضاء ، فلم يتمالكوا أن تدفقوا فيه من أبوابه ، على الرغم من دفاع حراسه وحجابه ثم انساب هذا الجمع الفزع فى حديقة القصر الأفيح حتى أحدقوا ببؤرة الضوء ، ثم أخذوا يستفيقون من الذهول والرعب على شذا العطور وسطوع النور ونغم الموسيقى ، واستطاعوا أن ينظروا فماذا رأوا ؟ رأوا حفلة راقصة تحت السماء على بركة الحديقة الواسعة ، وأربابُ النعمة وربات النعيم متقابلون على الأرائك أو متعانقون على الأعشاب ، أو متخاصرون

فى المرقص ، أو متنادمون حول المقصف ؛ وشموس الكهرباء تسطع على الظهور البلورية والصدور العاجية وقد انشقت أطواق الفساتين من أمام ومن خلف إلى ما تحت الخصور فلم يمسك الثوب عن النزول إلا شريطان على الكتفين رصعا بالماس وعقدا بالذهب . وكان الجو البليل مشبعاً بريا العطر وعبق الخمر وأنفاس الغوانى وشدو القيان وهزج المزامير وعزف الأوتار ، فلا يدخل فيه ذو حس إلا هاج واشتهى ، ولا ذو وقار إلا عبث والتهى وكانت البركة المسجورة بماء الورد واللاوندة تموج بالحور والولدان سابحين أو متشابكين ، يتوائبون من النشوة ، ويتجاذبون من الشهوة ، وعلى حفافيها المرمريين يتراقص القوم أزواجاً على أنغام « الجاز » والسواعد ملتفة على القدود ، والشفاه مطبقة فوق الخدود ، والأثداء رجراجة بين الصدور والنحور ، والأنظار جوالة بين البطون والظهور ؛ وفوق نافورتها الوسيعة البديعة ترقص حول رشاشها الطائر الوهاج جوقة من عرائس عبقر ، فى غلالل عسجدية من نسج الجن ، وأوشحة مصبغة من صنع السحرة وكلما ماست الحوريات الرواقص تقلب عليهن الوشى ، واختلف فوقهن اللون ، وانبثق عليهن شعاع من الفتنة يبهر العيون ويضل الأفئدة !

* * *

كان القوم فى سورة اللهو وسكرة اللذة وحميا الطرب حين أحاط بهم مساكين بولاق وفقراؤها فى بزتهم الزرية وهيئتهم المخيفة ، فانفغرت أفواه هؤلاء من الدهش ، وقفت رؤوس أولئك من الخوف ، والتقى الشقاء والسعادة وجهاً لوجه ؛ وأوشكت أن تكون بينهما ملحمة !

ولكن الله لم يشأ أن يصطرع الغنى والفقر فى هذه اللحظة الرهيبة فرأيت

أفواجاً من البق والبراغيث لها أجنحة كالفراش وخراطيم كالبعوض قد خرجت من ثياب الفقراء وأخذت تلسع الأجسام الفضة والوجوه الناضرة لسع النحل المهيجة ! فتراكض الداعون والمدعوون هاربين فى الحديقة وهذه الطير الأبابيل فى ظهور النساء وأقفية الرجال تخزهم بالسم حتى أخرجتهم إلى الشارع . وهناك كان الجند يترقبون خروج (المتظاهرين) فلم يكادوا يرون هؤلاء حتى ركبوهم بالعصى وساقوهم سوق الأنعام إلى مركز البوليس فقضوا ليلهم الباقى على الأسفلت، وخلا المقصف والمرقص والقصر لطرائد البؤس والشرطة فأكلوا مريئاً وشربوا هنيئاً وناموا ملء الجفون على الأسرّة المذهبة !

ثم كربنى الحر فصحوت من النوم ، قبل أن يرينى الحلم فى ضوء الصباح فضيحة القوم !

جريرة النازية على الإنسانية

(٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩)

ياضلة العقل وياحيرة المنطق !

إن أمام التاريخ اليوم رجفة من رجفات الهول والهلاك لم يبتل بمثلها الإنسان منذ دحا الله هذه الأرض فهل يستطيع مهما يسبر أغوار النفس ، ويكشف أسرار المجتمع ، ويرصد أطوار الحوادث ، أن يقول فيها أكثر مما يقول في العواصف والزلازل والبراكين والاوبئة ؟

هل يستطيع التاريخ بفلسفته وحذلقته أن يفسر لنا وللأجيال كيف تسنى لخمسة نفر من عباد الله الضعاف ، لاهم آلهة ولا هم أبالسة ، أن يسيطروا على الشعب الألماني الضخم وهو آية النبوغ البشرى في العلم والأدب والفلسفة والفن فيشلوا تفكيره ويلغوا إرادته ، ويمسخوه قطيعا جراراً من أفيال جهنم ترمى العالم كله محاربيه ومسالميه بالبوار والدمار ، أو بالفزع والمجاعة !

لو كانت النازية الهتلرية قائمة في سلطانها وطغيانها على مبدأ من مبادىء الخير ، أو مذهب من مذاهب الإصلاح ، لالتمسنا لخضوع الشعب الألماني لها ، واضطراب العالم الإنساني بها ، مساغاً في العقل أو مثلا من التاريخ ، ولكنها ضلالة من ضلالات العصبية والعنصرية والأثرة والغرور استبدت بفكر ثائر وعقل حائر وهوى طموح ، فظنها الفوهور رسالة من رسالات الله أوحاها إليه في كتاب (كفاحه) ، وأوجب أداءها عليه بقوة سلاحه ، فهي شريعة تنسخ كل كتاب غير كتاب هتلر ، وتمحو كل سيادة غير سيادة النازى ، وتمحق كل عنصر غير عنصر الجرمان . وإذا كان في الساميين وهم في رأيه حثالة الناس

رسالات ورسل ، فكيف لا يكون على الأقل فى الآريين وهم خلاصة الأجناس رسالة ورسول ؟

ولكنا عرفنا إله الناس الذى اصطفى من الساميين موسى وعيسى ومحمداً ليبلغوا رسالات الهدى والحق والخير فألفوا نوافر القلوب بالحب ، وأقاموا قواعد المجتمع على العدل ، وخففوا متاعب العيش بالإحسان ، وضمنوا وفاء العهود بالذمة ، وجعلوا الناس كلهم سواسية فى حق الحياة لا يطغى جنس على جنس ، ولا يبغى قوم على قوم . فمن هو يا ترى إله الألمان الذى اصطفى من الآريين هتلر وجورنج وهيس ورببنتروب ، ليبيدوا أمم العالم ، ويدمروا حضارة الدهر ، ويحطموا روائع الإنسان ، ويستبدلوا بشرائع الله وقوانين الضمير سياسة لا تعرف براً بوعد ولا وفاء بعهد ولا ثباتاً على مبدأ ؟

* * *

ياضلة العقل ويا حيرة المنطق !

أبعد أن تغلغل على طول القرون هدى الله فى الغرائز والأخلاق والقوانين والنظم ففازت الحرية ، وسادت الديمقراطية ، وعلت الإنسانية ، يمكن أن تقوم فى العالم اليوم نحلة مجرمة الوسيلة والغاية كنحلة النازية تحتقر أجناس الناس ، وتنكر حقوق الشعوب ، وتزدرى قواعد السلوك ، وتستحل فى سبيل السيطرة والغلب الغدر والمكر والكذب وغش السياسة ونقض العهود وإنكار المذهب ؟

ليت شعرى ماذا يقول حفدة لوثر وكنت وجوته وبتهوفن وقد رأوا زعيمهم الأديب الفنان يقول بلسان دولته ولا يصدق ، ويعاهد بشرف أمته ولا يفى ، ويجعل من شعبه الصبور العامل غولاً للسلام يقذف الرعب فى كل قلب ، والشقاء فى كل منزل ، ثم يدع صليبه النازى المعقوف يتحطم رويداً

رويداً بين مطرقة الشيوعية ومنجلها بعد أن ناصبها العداء المر والهجاء الفاحش!

لقد قلنا فى كلمة سابقة : « إن هذا الرجل العجيب استطاع فى ست سنين ونصف أن يبنى من الحديد والنار والسم والثأر والعزيمة والعصبية دولة كانت بعد صلح فرساى تتوارى من الخجل ، وتتفانى من الجوع ، وتتهالك من الدَّين ، وتضع أيديها على هيكلها فلا تجد إلا شلواً لا صورة له ولا حسن فيه ، فأصبحت بما نفخ فيها من روح الكفاح ، ووضع فى أيديها من قوة السلاح ، تملك على الدول الحياة والموت ، وتقضى على الأمم بالسلام أو الحرب كل ذلك فعله من غير ثورة ولا حرب ، فكان حرياً أن يتبجح فى آخر خطبته التاريخية المشهورة بقوله : ألست حقيقاً بأن أطلب إلى التاريخ أن يعدنى فى الذين حققوا أعظم مايسمح الإنصاف بطلبه من رجل ؟ » . نعم قلنا ذلك أيام كان هذا الرجل الشاذ قابضاً على عجلة القيادة بحزم الربان الماهر وحكمة القائد البصير : وما كنا نتوقع أن يبتليه الله بضعف الإنسان على الفرد على هذا النحو المهلك والقضاء العاجل ، فيدور برأسه الغرور ، ويذهب بنفسه العناد ، حتى لم يعد لشهواته حد تقف عنده ، ولا لنزواته كبّاحة(١) تحبس عليه .

هذا هو هتلر الذى أعجب به شباب الأمم بالأمس يأخذه اليوم جماح السلطان وعُرام القوة فيلقى عامداً بقومه وبالعالم فى سعير الحرب ، ثم يقف فى ضوء لظاها المشبوب فى الأرزاق والأعلاق والأنفس وفى يديه قيثارة ڤيرون يعبث بأوتارها ويضحك !

ماذا عسى أن يكون مصير الشعوب الصغيرة التى ضمنت على ضعفها أن تعيش فى حمى الشرف والعدل والسلام ، إذا تغلب هذا الطغيان النازى الذى

(١) كباحة : فرملة .

يريد أن يحكم العالم على أساس استعباد الضعيف ، وتسخير قوى الناس والطبيعة ، لسيادة عنصر واحد وإرادة رجل واحد ؟

إن ميراث الإنسانية المتدينة المتمدنة من أخلاق وثقافة ونظم هو اليوم فى حمى الدول الديمقراطية الحرة تدافع عنه وترعاه وتمسك به الأرض أن تميد وتبيد وليس للأمم الصغيرة سبيل للحياة الحرة إلا أن تساهم فى هذا الدفاع بإخلاص وقوة ، فإن ضمان العيش للقلة بجانب الكثرة ، وللعجز فى كنف القدرة ، هو هذه الفضائل الاجتماعية التى نبتت فى أصول الدين ونمت فى ظلال الديمقراطية . أما إذا شاء القدر — ومعاذ الله أن يشاء — أن يتحكم هوى الطغيان فى حقوق الإنسان فيذهب بالإخاء أثرةُ جنس ، وبالمساواة سيادةُ شعب ، وبالحرية استبدادُ فرد ، فقل إنها دنيا للشر جديدة نرجوا ألا يكون لنا فيها وجود

السلام

ترجمة صورة

سبحانك يا سلام ! !

لقد بسطت على الأرض المحروبة جناحك الرفيق المسْبِل ، فإذا الدار أمان ، والفزع اطمئنان ، والقلوب مؤتلفة ، والشمل جميع !

هذه ساحة الحرب أصبحت مرعًى للقطيع الراتع ؛ وهذه آلة الموت غدت كنّا للحَمَل الوادع وهذا الوعْل النطّاح فى أمسه لا يدرى ماذا يصنع بقرنيه فى يومه . وهذا الكلب الحارس نسى اللص والذئب فاستغرق فى نومه . وهذه الجبلة تنعم بعيشها الغرير تحت سماء الأمن ، فلا همٌّ على والد ولا حزن على ولد !

تباركت يا سلام !!

لقد مددت على الدنيا المكروبة ظلك الرخىّ الوارف ، فإذا الزرع جميم ، والخير عميم ، والحال متسقة ، والدهر مطيع !

هذه الغنم ترعى أثبث العشب هانئة فلا قنابلُ ولا نيران وهذه الطير تسبح فى صفاء الجو هادئة فلا صواعق ولا دخان . وهذه السفينة تمخر فى عباب البحر مطمئنة فلا طرابيدُ ولا قرصان . وهذه الطبيعة تغرق فى فيض النعيم ووضاءة الفردوس مسترخية فلا خصام ولا عدوان !

* * *

حنانيك يافاطر السموات والأرض !

لقد سميت نفسك السلام ، وسميت ذاتك المؤمن فلماذا جعلت للإيمان شيطاناً واحداً لا أكثر ، وجعلت للسلام شيطانين اثنين هما الدُّنشى وهتلر ؟ !

اللهم إن فى السلام نعمة ، وإن فى الحرب حكمة ، وبين نعمتك وحكمتك ضلت عقول الناس !

بين الدين والحب

(١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٩)

لقيته بعد تسع سنين فى الأسكندرية على قهوة (تريانون) رائق الشباب رائع الصورة لطيف الشارة كما عهدته وكان هذا اللقاء الجميل مفاجأة سارة من مفاجآت الغيب بان أمرها على وعليه فلم ندر كيف نسلم ولا ماذا نقول .

هذا الشاب الطرير من أسرة لبنانية مسلمة ، تلمذ لى حيناً من الدهر فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، واتصل بينى و بينه الود بعد أن تخرج فيها ثم رحل إلى العراق يزاول التعليم به ، وانحصر وجوده بين بغداد وبيروت فلم أعد أراه فلما رأيته بالأسكندرية فى هذه الساعة على هذه الحالة تمثل أمام عينى جزء مشرق من الماضى القريب كاد يغرقه فى لجة النسيان حدثان الزمن

— متى قدمت مصر ياعبد القادر ؟ و كيف أخفيت عنى هذا القدوم ؟

— قدمتها منذ ثلاثة أسابيع . وقد علمت أنك هنا فبحثت عنك فى كل قهوة وفى كل شاطىء فلم أجدك . ومنذ يومين لم يعدلى بالاسكندرية عمل ولا أمل إلا أن ألقاك ، فإنى فوق أن أراك أريد أن أسألك عن أمر شغل بالى وشق على

— خير إن شاء الله ؟

فقال الصديق الشاب وهو يحاول أن يكظم شيئاً فى نفسه بدت أمارته فى نظرته القلقة وصوته المأخوذ ولهجته المترددة :

أريد أن تدلنى على كتاب فى الانجليزية يبين روح الاسلام وحقيقة مبادئه وأصول أحكامه بطريقة يقبلها الرجل المصرى المثقف

— هل وقعت معاذ الله فى أزمة من أزمات الشك ؟

— كلا ، وأحمد الله على قوة الإيمان وثبات العقيدة ؛ إنما يتعلق الأمر بإنسان أحبّ إلىّ من نفسى ، فتنه عن دينه فتون التعليم الأجنبى وفسوق البيئة. ولقد وقع اليوم فى يدى كتاب فى العربية عنوانه : « لماذا أنا مسلم » فراقنى أسلوبه وأرضانى منهجه ؛ ولكن صاحبى على مصريته لا يعرف العربية ولا يثق بما كتب فيها

— ألا تستطيع أن تقدمه إلى فأعينك على إقناعه وإرجاعه ؟

فارتبك الفتى وكسر من ظرفه ، ثم ما لبث أن خفّض جأشه وأرسل نفسه وترك تحفظه وقال

— مالى أخفى الأمر عنك وقد كنت لى فى مشكلات الشباب والعيش المشير الصادق والناصح المخلص ؟ إن الأمر يتصل بفتاة مصرية هويتها منذ سبع سنين : أبوها طبيب من الأطباء الموظفين النابهين تعرفه كما أعرفه ؛ وأمها إنجليزية دخلت فى الإسلام لئلا تحرّم الارث كما يقال ؛ والفتاة بارعة الجمال رضية الأخلاق رقيقة القلب عفيفة الدّخلة ، تلقت دروسها الابتدائية فى مدرسة أمريكية بالقاهرة ، والثانوية فى مدرسة انجليزية بلندن . فهى فى ثقافة الجسم والعقل والروح مثل المرأة الحديثة الصالحة لقيت أسرتها أول مرة فى إحدى مدن لبنان ، فألف بيننا تجاوب الشعور وتقارب الثقافة . وتمكنت الألفة بينى وبين الفتاة بحكم الطبيعة والسن ، وتأثير اللهو والرياضة ، فما كنا نفترق فى النهار والليل إلا ساعات النوم القليلة . وكان أبواها يساعدان هذا الهوى الوليد بإطلاق الحرية وإرصاد الفرص واعتقاد الثقة ، فلم نعد إلى القاهرة معاً إلا وهذا الحب قد أصبح عاتياً جباراً يذهب بقلبى وقلبها كل مذهب ثم

دأبت على زيارتها في بيتها كل يوم في النهار أو في الليل فنقضي أوقات الفراغ في القراءة أو في النزهة أو في التنس أو في السينما! وفي كل لحظة تمر أو لفظة تقال يكشف كلانا في الآخر دليلاً جديداً على أنه عروس أحلامه وموعود غده.

كانت تسافر أوائل الخريف إلى لندن فيكون بيننا بريد دائم بالفكر المستمر، والطيف المثابر، والكتابة المتصلة. فلا ندع فكرة يبعثها الخيال أو الشوق، ولا كلمة يوحيها العقل أو القلب، إلا تبادلناها بالتفكر أو التذكر أو الحنين أو الكتابة في النوم أو في اليقظة. ثم تعود أواخر الربيع إلى القاهرة فيعود أنسنا باللقاء، وسرورنا بالحديث، ومرحنا بالرياضة، فلا نترك متنزها ولا ملهى في العاصمة والضاحية إلا أشهدناه على آية من آيات الحب، أو ساعة من ساعات السعادة.

ثم رحلتُ إلى بغداد فنشأت في نفسي رغبة شديدة في بناء بيت وتكوين أسرة، فخطبتها إلى أبويها في شتاء هذا العام واستقر رأينا على إعلان الخطبة في الصيف متى عدت أنا من بغداد وعادت هي من لندن.

جاء الصيف ياسيدي فعدتُ وعادت، ونزلتُ على عطف أبويها في مصيفهما بالرمل نزول الإبن الموموق على حنان أبويه بعد غيبة طويلة ولكني رأيت الوجوه غير الوجوه! فلا البشر بادٍ في عين الأم كما شهدت، ولا السرور جارٍ على ثغر الفتاة كما عهدت فلما سألت السيدة عن سر هذا السهوم قالت لي أدخل على (ميمى) الغرفة فلعلك تجد عندها الجواب.

دخلت على (ميمى) فوجدتها جاثية بجانب السرير تضرع وتبكي فلم أتمالك أن جثوت بجانبها مغرورق العين مستطار الفؤاد، وأخذت أنفس من كربها وأسألها عما بها، فقالت وهي تنشج بالبكاء:

مستحيل ! مستحيل ! لقد أحببتك حتى لم يعد لى هـــوى إلا إليك ولا فكر إلا فيك ؛ ولكننى لا أستطيع الزواج منك لأنى مسيحية متعصبة ، وأنت مسلم محافظ . ولا سبيل إلى أن نتزوج كما تزوج أبى وأمى ؛ فإن وأنت صريحان ؛ وأنا أحتقر دينك بقدر ما أحترمك ، وأبغض نبيك بقدر ما أحبك

— ومتى دِنت بالنصرانية ياميمى وأنا وأبوك لا نعرفك إلا مسلمة ؟

— دِنت بها منذ رحلت إلى لندن ، وجعلت الأمر بينى و بين الله حتى أخبرتنى أمى بخطبتك فلم أجد بداً من إعلانه

— وهل درست الإسلام ياميمى قبل أن ترتدى عنه ؟

— درسته على الراهبات فى مصر وفى انجلترا وعلمت عنه ما أشفق على وجدانك من سماعه

— لقد درستِه على خصومه ومنكريه ، فكيف يسوغ فى عقلك أن يكون كلام الخصم على الخصم حجة

— وعلى من كنت تريد أن أدرسه ؟ أعلى أبى وما سمعته مرة يذكر الله ولا رأيته يوماً يدخل المسجد ؟ أم على أمى وقد كانت مسيحية لا تؤمن ، فأصبحت مسلمة لا تعتقد ؟ وهل كان فى مقدورى أن أغالب الفطرة وفى نفسى إلى الله شوق نازع لا أملك الصبر عليه متى رأيت السبيل إليه ؟

— أنا كفيل بأن أعلمك ما تجهلين من حقيقة الإسلام ، فإن أقنعتك تزوجتك ، و إلا رجع الأمر بينى و بينك إلى الصداقة ، فإنك لا تتزوجينى مسلماً ، وأنا لا أتزوجك مسيحية .

وأخذت منذ ذلك اليوم أشرح لها مبادىء الإسلام على قدر ما يستطيع

مسلم تخرج فى الجامعة الأمريكية ؛ فكانت تصغى لما أقول وتعجب به . ولكنها كانت تتهمنى بتلفيق ذلك مما أعلم من فضائل الأديان وأصول الأخلاق ، ثم أنسبه زوراً إلى الإسلام . فاتفقنا على أن أقدم إليها كتاباً عن الدين الإسلامى فى الإنجليزية ، وأن نؤجل البت فى أمر الخطبة إلى مثل هذا الشهر من قابل . فهل تستطيع يا أستاذى أن تدلنى على كتاب فى هذا الموضوع يجعل زواجى منها حقاً لا ريب فيه .

فقلت له والأسى يكاد يعقل لسانى : إن كتاب (روح الإسلام) للأستاذ الهندى مير على هو طلبتك ، فلعلك تصيبه فى مكاتب الإسكندرية . وعسى أن نعيش يا قارئى العزيز حتى أكتب لك الفصل الأخير من هذه الرواية !

منهاج لوزارة الشئون الاجتماعية

(٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩)

ما أظن أحداً من آحاد المصلحين ثلجت[١] نفسه لإنشاء هذه الوزارة مثلما ثلجت له نفس الرسالة . ذلك لأن سبيل هذه الوزارة هي السبيل التي تجاهد فيها الرسالة ، وخطتها هي التي تسير عليها الرسالة ، وغايتها هي التي تقصد إليها الرسالة ، فكأنها قامت لتحقيق آمالها بالتنفيذ ، وتطبيق مبادئها بالعمل . ومن ذا الذي لا يبلج صدره إذا رأى قوله قد صار فعلاً ، وخياله قد أصبح حقيقة ؟

لقد عالجت الرسالة مشكلة الفقر على وجوهها الشتّى في بضع عشرة مقالة خرجت منها على أن الحرمان كان في الأكثر الأغلب علة ما يكابد المجتمع من جرائم القتل والسرقة ، ورذائل البغاء والتشرد فلو أن أولي الأمر عالجوه بما عالجه به الله من تنظيم الإحسان وجباية الزكاة لما وجدوا في البيوت عائلاً ، ولا في الطرقات سائلا ، ولا في السجون قاتلا ، ولا في المواخير ساقطة . ولكننا تركنا الموضوع قانطين من رحمة القلوب ، لأننا وجدنا غاية الأمر فيه لا تعدو البكاء والاستبكاء ، ما دام الحكم في أيدي الأقوياء ، والتشريع لألسنة الأغنياء ، والغلب والسبق للناب العضوض والجناح المحلّق فلما وفق الله الحكومة القائمة لأن تجعل لآثام الجهل وآلام الفقر وأرزاء المرض وزارة تعالج كل عَرَض لها ، وتساعف كل منكوب بها ، وتقطع كل علة فيها ، قَرُبت منازع الإصلاح

---

(١) ثلجت نفسه كبلج صدره : سر .

وسفرت وجوه المنى ثم كان من مصاديق الأمل ودواعي الثقة أن تولى هذه الوزارة رجل من رجال الجد والعزيمة لم يصبه الله بداء الكلام ، ولم يشغله بحرفة السياسة ، فاختار لمشورته ومعونته وأمره طائفة من قادة الرأى ودعاة الإصلاح ، ثم مضى بهم فى طريقه المرسومة إلى غايته المعلومة يقظ القلب نافذ الهمة لا يُعمِّى وجهه ضلال ، ولا يقطع سبيله عقبة .

ولكننا لاحظنا أن وزارة الرجل السّكوت الفعول قد أخذت فى هذه الأيام تسرف فى نسج الكلام وقطع الوعود ووضع المشروعات وتقديم المقترحات وتأليف اللجان ، فذكرنا بذلك وزارةَ المعارف فى عهد من العهــــود إذ كانت تؤلف كل ساعة لجنة ، وتضع كل يوم مشروعاً ، وتسن كل أسبوع نظاماً ؛ ثم ينتهى الأمر بأكثر اولئك إلى ما تنتهى إليه الفقاقيع الغازّية على وجه الماء الآسن !

لقد أكرهتنا حكوماتنا المتعاقبة على أن نفهم أن تأجيل الموضوع للبحث معناه إهماله ، وتحويل المشروع إلى لجنة معناه إغفاله . فهل يجوز أن نخشى مثل ذلك من هذه الوزارة الوليدة ، وهى لم تُبتلَ بعد بجمود الموظفين الآخرين وروتين الوزارات الأخريات ؟

إن الدم الجديد فى هذه الوزارة ، والروح المتوثب فى هذا الوزير ، يُذهبان الخيفة من جهة التفريط والنكول ، ولكنهما يوجبان الحيطة من جهة الإفراط والتهور . وكفى بهذه الظنة باعثاً على كتابة هذه الكلمة .

* * *

إن وزارة الشئون الاجتماعية تجديد رسمى لدعوة النبوة ، وهى بحكم

وجودها وطبيعة عملها وزارة الجمهور ؛ فلا مندوحة لها إذن عن نهج سبيل الدين في محاربة الفساد بالأناة والحكمة فإن مصادمة الموجود بالطبيعة مدعاة إلى الفشل ، ومقاومة المألوف بالعادة مجلبة للنفور ؛ ووسيلة النجاح في هداية العامة الحيلة والتدرج والله عزت حكمته لم يشأ أن يقيد الزواج ويحرم الخمر ويحظر الرق دفعة واحدة ؛ وإنما استدرج الغرائز والأهواء إلى حدود المعروف شيئاً فشيئاً ، حتى اطمأنت إليه ورغبت فيه .

ما للوزارة على حداثتها تبدأ منهاج الإصلاح من آخره ، فتريد أن تعرض لما يتصل بالحرية أو بالعقيدة كأن تقيد الزواج وتحدد السهر وتحرم على بعض الناس بعض اللهو ؟ إن ذلك وإن كان له أثره في صلاح المجتمع لا يحسن أن يكون أول ما تعمل وربما كانت هذه الأمور التي تنكرها ظواهر لبعض الأدواء الاجتماعية تزول بزوالها أما الرأي الذي تأمن عليه من المعارضة والفوضى والتشعث فهو أن تحرر دستورها الإصلاحي تحت ثلاثة عناوين هي الفقر والجهل والمرض (١) ، فإنها جماع العلل التي يصدر عنها كل فساد وينجم منها كل شر ثم تحاول بجهادها المتصل في شتى الميادين أن تمحو الأمية وتقتل الجوع وتجتث أصول العلة ، حتى إذا وجدت أمامها بعد ذلك شعباً صحيح الجسم نير الفهم مكفي الحاجة استطاعت أن تأخذه بوسائل الكمال كتوحيد الأزياء وترقية الغناء وتهذيب التقاليد وتنظيم الأسرة وتمدين الجماعة على أن ذلك كله يكتسبه الشعب من ذات نفسه متى أدرك قسطه الضروري من ثقافة العقل والروح والبدن . وعسى ألا يقع في ظنك من هذا الإجمال أني أخلط بين اختصاص هذه الوزارة واختصاص وزارات المعارف والأوقاف والصحة !

(١) كانت الرسالة ولله الحمد ومنه التوفيق أول من سمى هذه الأسماء ، ودل على هؤلاء الأعداء ، ثم جرت بعد ذلك على ألسنة الحكومة وأقلام الصحافة .

فإن وزارة الشئون الاجتماعية بحكم اختصاصها الشامل لحياة الجماعة فى المدينة والقرية لابد أن تتصل بالثقافة والسلامة والإحسان من جهاتها العامة ؛ ولكنها لا تعلم كالأستاذ ، ولا تعالج كالطبيب ، ولا تحسن كالواقف وسترى فيما يلى كيف يتميز عملها من عمل غيرها ، حين نفصل الكلام فى هذه العناوين الثلاثة : الجهل والفقر والمرض .

الجهـــــل

الجهل كما يظهر لأدنى نظر هو علة العلل فى اضطراب الأسرة ، وانحطاط البيئة ، وفساد المجتمع ، وأفن الرأى العام فإذا وُفقت هذه الوزارة بالفعل إلى أن تمحو الأمية وتنسخ الجهـــالة فقد تيسر لها أن تقول فتُفهَم ، وتكتبَ فتُقرأ ، وتشير فتُتَّبع . وإذن يخف عنها عبء الإصلاح باعتماد كل امرىء على نفسه فى تدبير عيشه من طريق الكفاية فلا يكون فقر ، وفى علاج بدنه من طريق الوقاية فلا يكون مرض ، وفى تهذيب خلقه من طريق الدراية فلا يكون شر . ذلك إلى أن الشعب متى أدرك القدْر المشترك من المعرفة قوى عقله فيعمل عمله بروية ، ونضج رأيه فينتخب نائبه بحرية . وبروية العزيمة تثمر فروع الإنتاج ، وبحرية الرأى تثبت أصول الديمقراطية .

ولكن كيف نكلف وزارة الشؤون الاجتماعية أنْ تساهم فى نشر المعرفة وهناك على مدى قريب منهـــا وزارة المعارف بميزانيتها الضخمة وجامعتها الفخمة ومدارسها المختلفة الدرجات والغايات ، ورجالها المتعددى

الألقاب والشهادات ؟ فهل يسوغ فى العقل أن تترك هذه الوزارة الفنية فى مصر بعد قرن ونيف من لا يعرف حروف الهجاء ، ولا يدرى أفى الأموات هو أم فى الأحياء ؟

والواقع الذى يحار فى تعليله الذهن الفلسفى أن التعليم الحكومى والأهلى ، والدينى والمدنى ، والوطنى والأجنبى ، لم يستطع أن ينفى الأمية فى مصر ، وهى ملتقى بحرين ومجتمع ثلاث قارات — إلا عن ٢٥ ٪ من الذكور و ٨ ٪ من الإناث . ونفى الأمية لا يثبت العلم ، ولكنى أسلم بأن هؤلاء تميزوا عن نظرائهم أولئك بإدراك الحياة الإنسانية على نحو معقول . فالى من نكل تعليم البقية وهى سواد الأمة وعماد الدولة وعدة الإنتاج ؟ إن تثقيف وزارة المعارف لا يشمل كل الصغار لأن قانون التعليم الإجبارى لم يُشرع ، ولا يقبل كل الكبار لأن قانون التربية لا يجيز ، فلا يبقى إذن للذين أفلتوا من القيد أو شبوا عن الطوق إلا وزارة الشؤون الاجتماعية ، فهى وحدها التى تستطيع أن تعلم الزراع والصناع والعمال والخدام والباعة من كل سن وفى كل مكان وعلى أى حالة

أما كيف يتهيأ لوزارتنا الجديدة بلوغ هذه الخطة فسبيله القصد بإنشاء المدارس الشعبية الليلية فى معاهد المدن ومساجد القرى وحشد العامة إليها عن طريق الإغراء المادى والإكراه غير المباشر ، كأن يُفرضَ للمنتهين والمتفوقين جوائز مالية ، وأن يُشْرَط على طلاب الرخص للسعى أو للخدمة أن يلموا بالقراءة والكتابة ، ولسنا بصدد التفصيل فذلك عمل له وقته وله أهله .

هذه المعاهد الليلية المبثوثة فى أرجاء الوادى وأعطافه وأريافه ستكون

— فضلاً عن عملها الثقافى — أداة مضمونة لنشر الإصلاح الاجتماعى فى جهاته المتشعبة وغاياته المتعددة ، فإن الوزارة تستطيع أن تجعل من كل فرد يتعلم فيها بوقاً رافعاً لأصوات وعاظها ومرشديها الذين يساعدون بالمحاضرة فيها على تقوية المدارك وتهذيب العادات وتنظيم العيشة وتدبير الصحة . وسيكون كل معهد من هذه المعاهد الشعبية وحدة اجتماعية يتفرق عنها الضوء والحرارة فى كل بيئة وفى كل أسرة . فإذا قامت الوزارة بذلك ثم حملت وزارة الدفاع على أن تعلم الجيش المرابط والجيش العامل فقد ظفرنا بقتل الأمية فى قليل من الزمن بيسير من النفقة . وإذا قتلنا الأمية فقد أحيينا فى الشعب خمود الحس وموات الضمير ومعنى الواجب . —

ستقول الوزارة من أين لى المال وقد ولدتنى الضرورة لأعيش على ماطفح من رجال الدواوين وما فضل من مال الوزارات ؟ وجوابنا أن الوزارة التى لاتقوم على المال ، لاتنتج غير الأقوال . وربما كان ذلك علة ما نرى من نزوع هذه الوزارة فى سياستها الإصلاحية إلى الوسائل الكلامية حتى حدثتها نفسها أن تنشىء لها مجلة خاصة بها تملأها بالمقالات والمناقشات والقصائد والحكم والأمثال لتكون كمجلة (التعاون) و (زميل الفلاح) و (المجلة الزراعية) و (الصناعة والتجارة) آلةً شرهة لاستهلاك الورق والحبر فى غير رحمة ولا جدوى !

يا معالى الوزير ، إن فن الكتابة مستقيم فلا يحتاج إلى إصلاح ، وإن سيل الكلام دافق فلا يفتقر إلى رفد ، وإن ميادين العاصمة مكتظة بالمجلات فلا تتسع إلى زيادة ، وإن ما عندكم من مذخور البلاغة لا يختلف عما عند

الناس فلماذا تؤثر النظر على العمل وتبذر الجهد والمال والوقت فى استثمار الصفصاف واستيلاد العقيم ؟ إن الذين يستطيعون أن يقرأوا المجلة العتيدة هم بثقافتهم مستغنون عنها ، والذين يهمكم أن يقرأوها لا يستطيعون لأميتهم أن يستفيدوا منها فأعدوا القارىء قبل أن تعدوا المجلة ؛ وإعداد القارىء هو الميدان الأول لجهاد الوزارة فإذا انتصرت فيه فقد ضمنت النصر المؤزر فى سائر الميادين :

على أن تثقيف الشعب من طريق التعليم فى هذه المدارس الشعبية لا يكلف الحكومة أكثر مما تكلفها الفرقة القومية أو معونة الفرق المسرحية الأجنبية والخير الذى تصيبه الأمة من وراء هذه الكتاتيب المتواضعة لا يجوز أن يوازن به عمل لا يزال صلاحه فى ذاته أمراً مشكوكاً فيه .

هذا بعض ما يدخل تحت عنوان (الجهل) أجملناه فى هذه الأسطر لتمضى الوزارة فى سبيل التفكير فيه . وفى ظننا أنها ستجد فى طوايا بحثه أبواباً للعمل وسبلا للاصلاح تغنيها عن المشروعات المبتسرة التى تلقفها من المجالس ، والموضوعات المرتجلة التى تأخذها عن الصحف .

الفقر

الفقر هو العنوان الثانى فى الدستور الإصلاحى لوزارة الشؤون الاجتماعية كما نقترح أن يكون وإذا قلت الفقر فقد عنيت بهذه الحروف الثلاثة كل ما يقع فى ذهن المرء وخياله وحسه من معانى البؤس والألم والأسى والجريمة والرذيلة والذلة والمسكنة والعداوة والانتقام والثورة . وأى مجتمع يتسنى له أن يلتئم

أو ينتظم أو يسعد ما دامت هذه الآفات تلح عليه بالاعتلال والانحلال والوهن ؟ وأنت إذا تقصيت بالنظر المتأمل أحوال الناس وأهوال الدنيا وجدت تنازع القوت هو المشكلة الأزلية للحياة ، والفقر هو النكبة الأبدية على النظام ، والجوع هو السبب القريب أو البعيد لكل ثورة فى تاريخ الأمم وكل جريمة فى حياة الأفراد فهل فى حدود الجائز إذن أن نطلب إلى وزارة الشئون الاجتماعية أن تبيد الفقر وتقتل الجوع كما طلبنا إليها أن تمحو الأمية وتنسخ الجهالة ؟ لا وا أسفاه ! لأن شمول العلم أمر تقتضيه الفطرة وتجيزه القدرة ، ولكن شمول الغنى شيء تأباه الطبيعة ويمنعه العجز . وما دام الناس مختلفين فى الذكاء والقوة ، فلا بد أن يختلفوا كذلك فى النفوذ والثروة والتفاوت فى الطبع والكفاية والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر فى الطبيعة ونظام مسلّم فى الدين . إنما نطلب إلى وزارتنا المصلحة أن تخفف من نوائب الفاقة وتكفكف من غوائل الجوع بتقريب المسافة بين الغنى والفقر ، وتنظيم العلاقة بين القوة والضعف ؛ فإنها إن نجحت فى تحقيق هذين الأملين فقد نجحت فى إقرار السلام فى النفوس وإحكام النظام فى المجتمع .

ولكن كيف تستطيع وزارة الشؤون الاجتماعية أن تخفف آلام هذه العاهة المستديمة ما دامت لا تستطيع أن تحسم أسبابها بالطِّباب الناجع ؟ تستطيع ذلك من طريق الدين ومن طريق التشريع ومن طريق الإدارة . فأما ما تستطيعه من طريق الدين فجباية الزكاة وتنظيم الإحسان وجباية الزكاة فريضة على الحكومة المسلمة ، كما أن أداءها فريضة على الشعب المسلم ؛ فلا يجوز للوزارة أن تكل أمرها لحرية الضمير وإرادة النفس ، فإن طمع الناس فى عاجل ثواب

— الدنيا أقوى من طمعهم فى آجل ثواب الدين . ومن أجل أداء الزكاة كان ارتداد العرب عن الإسلام فى عهد أبى بكر . إنما يجب أن تجبى الزكوات بالاضطرار كما تجبى ضرائب الأرض وعوائد العقار ، وأن يكون لوزارة الشؤون الاجتماعية جُباة كما كان لوزراء المالية صيارف . ولا بأس أن يترك الاختيار فى الإحسان ، على أن يستعان على غرسه فى القلوب وجمعه فى الأيدى بفرقة من الرجال والنساء تدخل البيوت والمكاتب على الأغنياء والغنيات من الأفراد والشركات ، فيذكرونهم بأن الله الذى خلقهم وخلق الفقراء قد جعل جُمعة ما بينهم و بينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة : فإذا ما جمعت الزكوات والصدقات من طريقىْ الطوع والكَرْه تجعل فى (بيت المال) لا فى (الخزانة العامة) ثم تدير على قواعد النظم الحديثة فى التأثيل والاستغلال ، وتنفق فى إنشاء الميائم[1] والملاجىء والمستشفيات ، ويستعان بالفرقة التى جمعت الإحسان من بيوت الأغنياء ، فى توزيع المعونة على المتعفف المجهول من بيوت الفقراء .

وأما ما تستطيعه الوزارة من طريق التشريع فسن القوانين لحماية العامل والفلاح من صاحب المال ومالك الأرض ؛ فإن أكثر ما يصيب الطبقة العاملة من المحن والإحن إنما ينشأ من إطلاق الحرية الطاغية لأصحاب الأموال الذين يستثمرونها فى التجارة أو فى الصناعة ، ولأرباب الأطيان الذين يستغلونها بالتأجير أو بالزراعة .

---

(١) الميائم : جمع ميتم وهو مكان لليتامى المتروكين يربون فيه ويعلمون ، وهو بهذا المعنى مستعمل فى العراق ، والعامة تستعمله خطأ فى معنى مأتم .

فهؤلاء وأولئك على قلتهم يتحكمون فى الأجراء و يستبدون بالمستأجرين ولا تدركهم بهم رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة .

و إذا شاءت الوزارة أن تحقق ما يعانيه العامل والصانع من أولى العمل ، وما يقاسيه الأجير والزارع من ذوى الطين ، تكشف لها أستار المجتمع عن مآسٍ مروعة من الظلم والغبن والطمع والأثرة لا يستطيع منع تمثيلها إلحزن المخزى غير سلطان القانون .

بقى ما تستطيعه الوزارة من طريق الإرادة وهو يشمل ما لا يدخل فى نطاق الدين أو القانون بنص صريح ، كمكافحة البطالة بتيسير سبب العمل للعامل ، وتدبير رأس المال للصانع ، وتمصير المعامل والمصانع والمتاجر والمصارف والشركات يداً ولساناً ليحل الوطنيون المتعطلون فيها محل الأجانب ، وذلك مورد للرزق يمكن أن يعيش عليه ألوف من الأسر المحرومة أهملته الحكومات السالفة لاشتغالها بسياسة الكلام وخصومة الحكم عن كل نافع .

* * *

بهذه الخطة المحكمة لكفاح الفقر بمعونة سلطان الدين وسطوة القانون وقوة الحكومة تستطيع الوزارة أن تنقذ من غوائله الطفولة المعذبة والشبيبة المشردة والشيخوخة العاجزة والأسر المنكوبة والكفايات المعطلة ، وأن تطهر المجتمع مما يجره عليه بقاء هذه الأحوال من فساد الأخلاق وغل القلوب واضطراب الأمن وقلة الانتاج وكثرة الجرائم . ونجاحها فى ذلك معناه بناء المجتمع المصرى على أسس جديدة من تقوى الله ورضوان الناس وتعاطف النفوس وتعاون القوى وتضامن الأمة

المرض

بعد الجهل والفقر لابد أن يجىء المرض فهو فى الترتيب الطبيعى ثالث العناوين البارزة فى دستور وزارة الشؤون الاجتماعية .

وإذا كان الجهل يمنع أن يكون لنا رأى عام ، والفقر يمنع أن يكون لنا خير مشترك ، فإن المرض يمنع أن يكون لنا كيان صحيح وإذا لم يكن للمجتمع رأى عام ولا خير مشترك ولا كيان صحيح ، فسمه ما شئت إلا أن تسميه أمة

ولعل المرض كان العَرض الملازم الذى يميز الشقاء المصرى من كل شقاء فى العالم وإن أثره فى تاريخنا الاجتماعى كان كأثر الزلازل والبراكين والحروب فى تاريخ البلاد الأخَر . فقد كانت الأوبئة تفد إلى مصر عاماً بعد عام فتجتاح نصف السكان وتصيب النصف الآخر بعاهات تدعه كالشجر اليابس لا للظل ولا للثمر . والعلة الأصيلة فى ذلك أن أبانا النيل منذ شقه الله يجرى فيكون الخصب والنضارة والحياة ، ثم يركد فيكون الجدب والذبول والموت . وفيضانه ونقصانه يتعاقبان تعاقب الجديدين . فإذا فاض أنعش الذاوى وجدد البالى وأحيا الموات . وإذا نقص تخلفت بقاياه فى أجواف المصارف وأطراف الترع ومناقع الأرض فتكون مزارع خصبة لجراثيم التيفود وبعوض الملاريا وقواقع البلهرسيا وديدان الأنكلستوما ، وبنو النيل الدائبون البررة لا ترتفع أيديهم من مائه ، فى حالى نقصه ووفائه ، فخيرهم منه لا يزال مشوباً بالشر ، ووجودهم لا ينفك مهدداً بالعدم فإذا أضفت إلى ذلك أن الجهل يستوجب

فساد العيش وترك الوقاية ، وأن الفقر يستلزم سوء الغذاء ونقص العلاج ، فقد اجتمعت لك أسباب المرض التي جعلت الكثرة الكاثرة منا مذبذبين بين الدور والقبور لاهم في الأحياء ولا هم في الموتى !

إذا استطعت أن تقيم البناء من ناخر الحجر ، وتنسج الرداء من رثيث الخيط ، استطعت أن تؤلف من مهازيل المرض وسُقَاط الوهن شعباً يستغل الأرض وجيشاً يحمى الوطن .

تعال نزر قرية من قرى الريف فأريك كومة مبسوطة من سباخ الأرض ، في مستنقع واسع من آسن المـــاء ، قد قامت عليها أبنية من الطين والقصب والخشب تجمعت على ظهورها المراحيض والمزابل ، وتكدست في بطونها الناس والبهائم ، وتطرحت على أبوابها ومصاطبها الرجال والأطفال ، وقد هدّتهم العلل وبَرَتهم الأسقام حتى ليعجزون عن دفع الذباب عن وجوههم الساهمة الشاحبة . فاذا سألت هؤلاء المنهوكين بالزُّحار والصُّفار والسُّلال والطُّحال[1] والحمى والرمد : من الذى يزرع الأرض ، ويتعهد الزرع ، ويحصد الثمر ، ويجمع الحصيد ، وينجل العلف ، ويرعى الماشية ؟ قالوا لك : يعمل ذلك كله قليل من الشبان الذين يدافعون المرض بالجلَد ، وكثير من النساء اللاتى يغالبن الضعف بالصبر . ومما ترى وتسمع يتسنى لك أن تروز[2] العبء الذى تحاول وزارة الشؤون الاجتماعية أن تضطلع به .

* * *

ولكن هل من الحق أن يلقى عبء الصحة العامة على كاهل هذه الوزارة

---

(١) الطحال بالضم داء يصيب الطحال بالكسر .

(٢) راز الحجر ونحوه رفعه ليعرف ثقله .

المقدوحة بأمور المجتمع ؟ إذن فماذا تصنع وزارة الصحة ؟ والجواب أن الجهاد الصحي مفروض على الوزارتين جميعاً بنظام تقتضيه طبيعة كل منهما فلا يُثقل إحداهما ولا يعطل الأخرى . فكل ما يتصل بالوقاية والصيانة يرجع إلى وزارة الشئون الاجتماعية ، وكل ما يتعلق بالطب والعلاج يعود إلى وزارة الصحة وقد يجوز لهذه الوزارة بحكم خصوصها أن تصون وتقي ، ولكن لا يجوز لتلك الوزارة بحكم عمومها أن تعالج وتَطب .

فمن الطب الوقائي المنوط بوزارة الشئون تخطيط القرية على نمط يكفل لها الشمس والهواء والجمال والذوق والراحة ، وفصل الحظائر والمزابل عن المساكن ، وتجفيف البرك والمستنقعات ، وتطهير الماء الراكد من الطفيليات ، وإنشاء المغاسل والمراحيض العامة ، ورفع مستوى المعيشة القروية بتحسين الغذاء وتنقية الماء وتعميم النظافة ، وإرشاد الفلاحين عن طريق الإذاعة والصحافة والوعظ إلى أنجع الوسائل فى اتقاء العدوى وتدبير البدن .

ذلك عملها فى القرية . وأما عملها فى المدينة فبناء المساكن الصالحة للعمال ، ومراقبة المعامل والمصانع من حيث الصحة ، وملاحظة المطاعم والمشارب من حيث النظافة ، ومراعاة الطعام والشراب من حيث السلامة ، وحماية الطبقة العاملة من رهق العمل ، ووقاية النفوس الغاوية من سموم المخدرات ، وبث الروح الرياضية فى كل طبقة ، وإنشاء الملاعب والمسابح والأندية فى كل بيئة ، وإقامة المسابقات النهرية والبرية فى كل فرصة ، وتفريج الهموم بإقامة المهرجانات الشعبية فى كل مناسبة ، وتعميم الثقافة الصحية عن طرق التعليم والإذاعة والنشر .

* * *

هذا مجمل ما ينبغى أن تقوم به وزارة الشؤون الاجتماعية لمكافحة المرض . فاذا أضفناه إلى ما أجملناه قبلا من الوسائل الفعالة فى كفاح الجهل والفقر كان لنا من مجموع ذلك برنامج كامل شامل لا يعوزه غير التنفيذ . فليت شعرى أتظل الوزارة واقفة من شؤونها الاجتماعية موقف خراش من ظبائه[1] ، أم تجرى على هذه الخطة الواضحة فتأتى كل أمر من وجهه ، وتعالج كل داء بدوائه ؟

(١) إشارة إلى قول القائل :

تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير ؟

(٣٠ نوفبر سنة ١٩٣٩)

حاولنا فيما سبق من القول أن نرسم لوزارة الشئون الاجتماعية معالم المنهج الذى تسلكه مخافة أن ينتشر عليها الأمر وتلتبس الوجهة . ثم تركنا لرجالها المختصين توضيح الرسوم وتحديد التخوم وتعيين المراحل . ولكن رسم المنهاج لا يكلفنا ولا يكلف الوزارة غير ساعات من النظر والفكر والكتابة ، وإنما عماد الأمر وملاكه أن تُنهج السبيل وتنفذ الخطة وتبلغ الغاية ويلوح لى أننا نكلف الوزارة شططاً إذا أردناها على إصلاح الفاسد وإقامة المعوج وهى على حالها الحاضر ووضعها القائم .

ماذا عسى أن تفعل وزارة موظفوها خمسة عشر موظفاً ، وليس لها وكيل ولا نظام ولا سلطة ولا خزانة ؟

لقد صدق الأستاذ الذى قال : إن وزارة الشئون الاجتماعية مشروع وزارة لا وزارة فإن خمسة عشر موظفاً من مختلف الوزارات كشليلة خيط من غير رأس ، أو كشركة إنتاج من غير مال ، لا يستطيعون أن يفكروا إلا فى لجنة تعقد أو قرية تزار أو مقالة تذاع أو مجلة تحرر ، أما تنفيذ الرأى وتكوين النتيجة وتوفير الثمرة فذلك شىء فوق الطاقة لمن لا يملك إليه الوسيلة .

ولقد كان فى وزارة الصحة عبرة لوزارة الشئون الاجتماعية لو أنها التمست

هداها على ضوء الدرس المنظم والتجربة الحاصلة والخبرة المختصة ؛ فإن وزارة الصحة قد فكرت منذ عامين فى كفاح المرض فهيأت له الأسباب وأرصدت الأهب ، فجعلت لكل جماعة من الناس طبيباً عاما ، وسيرت إلى كل جهة من جهات القطر مستشفى متنقلاً ، ولكنها لم تعد المال الكافى لشراء الأدوية وتجهيز العلاج فظل أطباؤها من غير عمل ، و بقيت سياراتها من غير حركة

* * *

إن وزارة الشئون الاجتماعية فكرة موفقة ما فى ذلك ريب . وليس من الغلو فيما أظن أن تكون ميزانيتها وسطا بين ميزانيتى الصحة والمعارف ، فقد علمنا أن اختصاصها يكاد ينبسط على كل شىء فى هذا البلد على أن المال الذى يقدر لهذه الوزارة فى ميزانية الدولة هو وحده النصيب الحق لهذا الشعب المسكين من ثروته العامة ؛ فإن أكثر ما يجبى من موارد الوطن المشتركة إنما يذهب إلى الحكومة لا إلى الأمة ، و إلى الأغنياء لا إلى الفقراء ، و إلى المدائن لا إلى القرى وجمهور الشعب هو صلب المجتمع وأداة إنتاجه وعدة دفاعه ، فينبغى أن يكون همّ الخاصة وولاة الأمر مصروفا لسد عوزه وتثقيف عقله وتأمين سلامته ، لا يضنون عليه فى سبيل ذلك بمال ولا جهد .

إن رئيس الوزارة الذى يتذرع لتقوية الدفاع الوطنى بكل الذرائع ، لا يمكنه أن ينسى مادة ذلك الدفاع ولا هيكله من العمال و الصناع والزراع ومن يقمن على رعايتهم وخدمتهم من أم وزوجة .

فلعله يقرع بصوته العالى أسماع أولئك الأمراء والأغنياء فينزلوا عن بعض

ترفهم وسرفهم للجيش أسوة بمن يضحون بأرواحهم وأموالهم فى سبيل وطنهم من أمراء انجلترا وأغنياء فرنسا ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك — وبعيدٌ أن يفعلوه طائعين تسنى له أن يجد المال الضرورى للشئون الاجتماعية . ومن ثَمّ يتسنى لوزارة هذه الشئون أن تنهض بما ألقى عليها من عبء ، وأن تحقق ما نيط بها من أمل .

* * *

نعم هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير ؟ هيهات أن تسير وزارة الشئون الاجتماعية إلا على قدمين من عزم ومال فتى تيسر لها المال وتوفر لها العزم كان عليها يومئذ أن تعيد النظر فى تنظيمها وتقسيمها على أساس مكين من الحاجة والكفاية والاختصاص ، فإن الإسراف فى قلة الموظفين كالإسراف فى كثرتهم سواء بسواء والعدول عن الكفء إلى غيره جناية على العدل وإنكار لفائدة العمل ووضع الأمر فى غير أهله أقصر الطرق إلى الفوضى المربكة والفشل المحقق وإذا كانت الوزارات الأخَر تجرى على سَنَن من التقاليد الموروثة والأنظمة الآلية والأعمال الرتيبة ؛ فإن هذه الوزارة الجديدة فى وضعها وموضوعها حرية بأن تكون مثلاً يحتذى فى اختيار الموظف وابتكار الطريقة وتبسيط الإجراء ودقة المراقبة وحسن التوفيق بين قدرة العامل وطبيعة العمل ، وفرض المسئولية على كل موظف بمنح الاستقلال الذاتى لكل وظيفة وتجربة النظم الحديثة فى الجديد المنشأ أسهل منها فى القديم المجدد وتحويل الوزارة القديمة بمصطلحاتها وطفيلياتها ومحاباتها وفوضاها إلى وزارة جديدة بطريق التنظيم ، أدخل فى باب المحال من تحويل المدينة العتيقة بمنعرجاتها

ومنعطفاتها ومضايقها إلى عمـارة حديثة بطريق الترميم

وملاك الأمر فى الإصـلاح الدرس والروية والمشورة والعزيمة والنفاذ ، على أن يكون كل عمل فى وقته ، وكل رأى فى وجهه ، وكل أمر فى أهله . ومدار النجاح فى العمل العظيم على الرزانة والجد فإذا قضى الله أن يعاجلك الفشل دون التمام ، فخير لك أن تفشل بالصمت لا بالكلام !

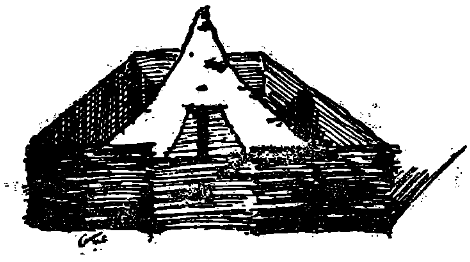

جسومنا وعقولنا بين الصحة والمعارف

(٤ ديسمبر سنة ١٩٣٩)

إذا عجبت من أن تقوم فينا وزارة المعارف قرناً ونيفاً ثم يظل ثمانية أعشارنا أميين ، فإن أعجب العجب أن تقوم فينا وزارة الصحة زهاء هذا العمر الطويل ثم لا يزال تسعة أعشارنا مرضى !

ولا تحسبن ذلك لأن شعبنا بدع من الشعوب ، هواه فى أن يجهل ومزاجه فى أن يمرض ، فإن الله لم يخلق إلى اليوم إنساناً يكره المعرفة ولا حياً يرفض السلامة . إنما السبب الأول فى هاتين الظاهرتين الخاصتين بهذا البلد أن القائمين على ثقافته والمسئولين عن سلامته قد حصروا همهم فى الديوان ، وقصروا جهدهم على الشكل ، فلم يشغلوا ذرعهم إلا بالتعيين والنقل والترقية والميزانية والدرجات والامتحانات والتقارير والتجارب والدسائس ، ولم يكلفوا أنفسهم النظر من نوافذ المكاتب الرسمية إلى هذا الشعب الذى يعيشون عليه ويعملون له ، فيضعوا سياستهم على مقتضيات حاله ، ويرسموا خطتهم على دواعى حاجته

* * *

أما الحديث عن ماضى المعارف وخيبتها فى كفاح الجهالة وتبعتها من هذه الخيبة ، فقد جف من تكراره المداد والريق ، فلندعها فى ذمة رجالها . ولنمض فى الحديث عن وزارة الصحة ، فقد راعنا أن يتخطفنا الموت اختضاراً[1] وعلى حراستنا جيش من الأطباء له المستشفيات المنشأة على آخر طراز ،

---

(١) اختضر فلان بالبناء للمجهول : مات شاباً غضاً .

والمعامل المجهزة بأحدث جهاز ، والصيدليات المزودة بأندر الأدوية ؛ وأصبحنا كلما رأينا القرى والقبور تكتظ بضحايا البلهرسيا والأنكلستوما والطحال والملاريا والبلغرا وداء الفيل ننكر الواقع ونفكر ونطيل التفكير ، ثم نسأل ونكثر السؤال : هل فى مصر وزارة للصحة ؟ وهل فى وزارة الصحة أطباء ؟ وهل لأطباء الصحة ضمائر ؟ ولا تكلفنى الإبانة عن آراء الناس ، فإنك تستطيع أن تسأل هذه الأسئلة فيكون لديك من الأجوبة عنها ألوف مختلفة الصيغ والأساليب فى التألم والتهكم والاتهام والشكاية والزراية والضغينة واليأس . ثم تسمع عن المستشفيات الحكومية فى حواضر الأقاليم شجونا من أحاديث الإهمال والقسوة والفوضى وغير ذلك مما نمسك عن ذكره محافظة على ما بقى فيها من الثقة . ولكننى أحد الذين جُندوا فى جيش الإصلاح وفُرض عليهم أن تكون أقلامهم عارية كالسيف ، وأصواتهم عالية كالمدفع ، وألسنتهم صريحة كالحق ، فأنا أروى لك حال قريتى فى وراثة المرض ، ونصيب قريتى من وزارة الصحة . وحظ قريتى من الأدواء والأطباء هو حظ كل قرية : هى جزيرة من الأكواخ والحظائر فى مستنقع وخيم من مصافى المزارع نمت على عفَنها وأسَنها جراثيم الأمراض المتوطنة فجعلت كل وجه فى صفار الخوف ، وكل جسم فى هزال الجوع ، وكل حى فى همود الموت . وقطعت مراحل عمرها الماضى على هذه الحال الشديدة ، لا يزهر فيها شباب ولا تثمر بها كهولة . ولم يكن لمصلحة الصحة يومئذ إلا شبه طبيب فى المركز لا تراه القرية إلا إذا انتشر وباء أو وقعت جناية . وعمله كله مع حلاق القرى : يصرح لهم بدفن الموتى من بعد ، ويكلفهم جلب المرضى إلى عيادته من قرب . وعلاجه قائم على البركة والتوكل : ماء من الترعة القريبة يشتمل على عقّار مسهل . فلما صارت هــــذه المصلحة

وزارة أرادت أن يكون لها كالوزارات عمل ، فأنشأت المستشفيات الثابتة والمتنقلة ، ودرست الأمراض الوافدة والمستوطنة ، وقررت تطهير القرى بقتل الأمراض وردم المناقع . وكان من نصيب حاضرتنا مستشفى ، ومن حظ مركزنا طبيب . فأما الطبيب فقد عجز عن ردم البركة لأن مالكها الباشا لا يريد ، وإذا لم يرد الباشا وجب ألا يريد الناس ، لأنه يملك المسئولين الخراف والسمن والفاكهة والكلمة المسموعة . وأما المستشفى فقد دعا القرويين إلى طبه فأهرعوا إليه من كل طريق . وأنحى طبيبه على الأذرع الذابلة بالحقن العنيف ، فخشع الداء ، وتنبهت العافية وشعر الفلاح أن فى (الاسبتالية) رجاء وفى الطب منفعة . فازداد وفود المرضى على المدينة حتى شَرِقت الشوارع وغص المستشفى وضاقت المساكن . فلما وثق الطبيب من الإقبال جعل منزله عيادة خاصة ، وسلط أعوانه على المرضى ينفرونهم من المستشفى ، ويرغبونهم فى العيادة ، حتى أشاعوا أن الطبيب يحقن هنا بالماء ويحقن هناك بالدواء . وأخذ هو يقسو فى المعاملة ويهمل فى المعالجة ويشتط فى القول ، حتى اشتد على الناس الأذى ، وخرجت بهم الأخرجة ، وكثرت الوفيات ، فانقطعوا فى دورهم مفضلين الموت البطىء الهادىء على الموت السريع المضطرب . وعادت الجراثيم الطفيلية ترتعى فى الكلأ الآدمى المباح ، فلم يبق فى القرية من لم يخامره داء . ثم انتشر من استفحال البلهرسيا داء الطحال ، فانتفخت البطون واصفرت الأطراف وثقلت الجوارح ، فمات به الأكثرون ، ولاذ بعض الأقلين بالقصر العينى يرجون استئصال الداء بالجراحة . وقد سمعوا أن أساطين الطب من أساتذة الجامعة هم الذين يتولون الفحص ويزاولون العلاج ويباشرون العملية ، ولكنهم حين دخلوا لم يجدوا إلا أطباء كأولئك الأطباء ، ونظاماً كذلك النظام ، ومعاملة كتلك

للعاملة . أما بقراط وجالينوس وابن سينا فقد اتخذوا من (القصر) عنواناً ومن (الـكاية) وظيفة فهم يحضرون — إن حضروا — ساعة من النهار ، فيقابلون أطباء الامتياز ، ويحادثون طلاب الطب ، وغاية المقابلة أو المحادثة إشارة أو عبارة ، ثم ينقلبون سراعاً إلى عياداتهم أو مستشفياتهم يعملون فيها بقية النهار وطرفاً من الليل بصبر الفقير إلى الناس ، وعزم الـكادح لنفسه .

* * *

هذه حال قريتنا فى عهد من العهود وكل القرى المصرية على هذه الحال وإن الناس لينسجون حول المستشفيات الرسمية من الحوادث والأحاديث ما لا يجرؤ القلم على روايته مهما يشجع . ولعل فى هذه الإشارة ما ينبه أولى الأمر فى وزارة الصحة إلى شدة الحساب ودقة المراقبة ، فان الاعتماد فى كفاح المرض على التقادير والدفاتر والأرقام ، أشبه بالاعتماد فى كفاح العدو على رسم المعارك فى الورق وكسبها بالـكلام !

لحية بيضاء

ليت شعري ماذا كان يمكن هذا المخلوق أن يكون لو أنه تعلم ؟ الغالب في الظن أنه لو كان تعلم الحقوق لما برع إلا في ابتكار الحيل التي تحمي اللصوص ، وتأليف الحجج التي تخدع القضاة ، وتدبير الخطط التي تضلل البوليس . ولو كان تعلم الطب لما اشتغل إلا بتركيب السموم ، وتزوير الشهادات ، وتخدير المدمنين ، وإجهاض الحوامل . ولو كان تعلم الأدب لما نبغ إلا في قصص التجسس والتلصص والائتمار والدعارة . ولو كان تعلم الزراعة لما برز إلا في زراعة الدخان والأفيون والحشيش . ولو كان تعلم الهندسة لما افتن إلا في اختراع المخابىء السرية والمزالق الجهنمية والمفاتيح التي تتحدى كل قفل .

ذلك لأن كل نزعة للشر أو نزغة للشيطان إنما وجدت أصلها فيه بحكم الطينة ومقتضى الفطرة ؛ فهو قروي أمي فقير وضيع ، ولكن غرائزه الشريرة العارمة تندلع من جوانب جسمه كألسنة اللهب أو رجل الأخطبوط فتجعل له شخصية غريبة ، فيها لكل ضرر مصدر ، ولكل خطر اتجاه !

نشأ بين لداته من أطفال القرية كما ينشأ الزنبور بين النحل أو الثعبان بين الحمام ؛ فكان لا ينفك ضارباً هذا بعصا ، أو قاذفاً ذاك بحجر ، أو خاطفاً لعبة من بنت ، أو سارقاً شيئاً من بيت ! فلما جاوز حد الطفولة دخل في خدمة الفجار والمجان ، فكان يخدم أولئك في تدبير الجرائم ، ويخدم هؤلاء في إعداد الولائم . وهو في غضون هذا العهد (التحضيري) كان لا يفتأ يمرن ملكاته

الإجرامية لحسابه الخاص ، فكان يسرق من البيوت الآنية والثياب ، ومن الحقول القطن والذرة ، حتى صار فى حد الرجال ، فعُد من ذؤبان القرى وغربان الأسواق ، فكل جريمة له فيها يد ، وكل سرقة له منها نصيب !

وكانت مزيته بين اللصوص التجسس والاحتيال والمفاوضة وإخفاء المسروق وتعمية الأثر لأنه كان ضئيل الخلقة فلا يُرهب بمنظره ، ضعيف القوة فلا يغنى بعضله . ثم تفقم شره واستطار أذاه ، فكان لا يقع إلا على منكر ولا يتقلب إلا فى معصية غير أن إجرامه ظل من النوع الحقير لضعف بنيته وضعة بيته ، فلم يستطع أن يكون رئيس منسر يفرض الأتاوة بالسطوة ويستغل اللصوص بالنفوذ ، إنما كان أكبر همه أن يسطو فى الليل على أرزاق الأرامل ، ويتدسس فى النهار إلى أموال العميان ، حتى انقضت شبيبته وكهولته على حال متصلة من الإثم لم تسكن جوارحه فى خلالها عن الشر إلا وهو مجروح فى مستشفى ، أو مطروح فى سجن كل ذلك ولم يدخل فى ملكه عقار ، ولم يجتمع فى جيبه نقد ، ولم يبت فى داره قوت .

فلما قيده الكبَر وحطمه ، وعممه المشيب والثمه ، أصبح بحكم السن عاجزاً عن نقب الجدار وتسلق الدار ، فأرسل لحيته شبراً تحت ذقنه . ثم ضخم العمامة ، وبيّض الجلباب ، وأمسك المسبحة ، ومشى فى الأزقة مشية الوقار والتؤدة ، يتمتم بالأدعية ، ويجهر بالتحيات ، ويواظب على الصلوات ، ويجلس على المصاطب يتحسس الأخبار ، ويتسقط الأسرار ؛ فإذا وقف على خلاف أو خصومة بين والد وولده ، أو بين أخ وأخيه ، أو بين صديق وصديقه ، أو بين زوج وزوجه ، اندس إليهما بالإغراء ، وسعى بينهما بالنميمة ، وحمّل هذا على ذاك ، حتى تقع الفرقة أو تحل الكارثة . فإذا انتهى الخلاف إلى المحكمة ، وسوس للمتخصمين

أو لأحدهما بالحيل التى تطمس الحق أو توسع الخصومة أو تعرقل القضية ؛ لأنه يزعم لنفسه العلم بالقانون والمرافعات لطول ما وقف أمام القضاء وعاش بين البوليس . أما إذا خذله الشيطان وتغلب السلام استفز بالسباب حمية بعض الشباب فيضربه ، ثم تكون الترضية أو تكون القضية . فإذا تعذّر الدس وتحاماه الناس عمد إلى قطعة متروكة مما يملك الغير فاحتلها واستغلها ، فتنشب بينه وبين المالك معركة قضائية لا يصبر فيها صاحب الحق على بطء القضاء وتعقد الإجراء وفحش التكاليف ، فيطلب مصالحة الغاصب بالنزول له عن بعض من حقه أو جزء من ماله .

ذلك عمله بالنهار . أما عمله بالليل فصلاة العشاء حاضرة ، ثم إحراق الحشيش جماعة ، ثم التهجد طويلاً ثم الهجود قليلاً ؛ فإذا طلع الفجر الكاذب خرج إلى المسجد يهدج[١] تحت الجدران ، وعيناه تبصان فى حلك الظلام بصيص الحباحب[٢] ؛ فإذا لقى فى بعض الطريق حماراً أو عجلاً أو خروفاً أفلت من الحظيرة ، امتطاه أو قاده ثم انطلق به حثيثاً فى هوادى الليل[٣] إلى أقرب (مركز) من مراكز اللصوص فيتركه هناك ليصرّفوه ويضيفوه إلى حسابه . ثم يعود إلى القرية وقد هتك الصباح ستر الظلام ، فيأوى إلى بيته ندمان على أن فاتته صلاة الفجر مع الإمام !

وفى ليلة نادية من ليالى المحاق خرج المتعبد القانت على عادته يريد المسجد . وكان الناس قد فطنوا إلى فقد الصغار من مواشيهم فأغلقوا الزرائب وأحكموا الإغلاق . فلما أرسل عينيه الثاقبتين فى الخرائب والأجران فلم تقعا على حيوان مهمل أو متاع متروك ، أخذ يهوّد[٤] فى مشيه ثم وقف يفكر . وكانت نفسه الغوية قد

---

(١) هدج الرجل : مشى مشية الشيخ (٢) الحباحب ذباب يطير له شعاع فى ذنبه كالسراج (٣) هوادى الليل : أواخره (٤) هود : مشى مشياً ساكتاً فاتراً .

استهواها الظلام والسكون فعض عليها الشر وعصفت بها المغامرة ، فرجع إلى داره وأخذ معولاً وعتلة ثم انحط من بعض السطوح على دار العمدة ثم شرع ينقب الجدار عن عجل السامرى(١)

دُهم الشيخ فى السَّحر وسِيق فى الصباح إلى مركز البوليس ، فحاول أن يدحض التهمة عن نفسه بانخراع متنه وابيضاض شعره وارتعاش يده فلم يوفق .

ودخل المجرم السجن أشوق ما يكون إليه ، وبدد الحلاق على أرضه الخشنة الغبراء خصل لحيته الكثيفة البيضاء ثم لبث فيه ما لبث ، وخرج الناس يسلط عليهم النمائم ، ويزرع بينهم الضغائن ، ويدبر فيهم المكايد ، حتى سولت له نفسه بالأمس أن يخزن قمحه قبل أن تأخذ وزارة التموين نصيبها المفروض منه ، فتجاهل السلطة ، وتحدى العمدة ، وضرب الحارس . ثم بات هو وأهله فى سجن (المركز) ، ثم قدموا فى الصباح جميعاً إلى المحكمة العسكرية

تلك صورة من صور الريف الكريهة قد قدمناها مصغرة إلى المشتغلين بعلم النفس الجنائى لعلهم ينتهزون هذه الفرصة قبل أن تفوت ، فيدرسوا هذا الرجل العجيب قبل أن يموت !

---

(١) كناية عن الذهب وقصة موسى السامرى وعجله الذهبى معروفة

صاحب المعالى وزير المعارف

على ذكرى مراقبة الثقافة العامة

(١٨ ديسمبر سنة ١٩٣٩)

عرفك الناس ياصاحب المعالى فى جميع أطوار النهضة وأدوار الجهاد رجل جد وعزيمة ، وصاحب رأى ونفاذ. ولعلك واحد الزعماء فى حب الصمت وكراهة الإعلان و إيثار العمل . ولقد كان توليك أمور المعارف أمنية من أمانى النفس المصلحة طالما هفت بقلبك وقلوب رجال الثقافة فإن دواء وزارة التعليم قد استفحل وأعضل حتى استيأس منه الطبيب والعائد . وأنت من الرجال القلال الذين عرفوا أن هذه الزمانة التى خزلت هذه الوزارة عن السير فى عصر السرعة إنما هى الفوضى فى سياستها والذبذبة فى ساستها والتواكل فى جنودها وكنت تنظر إليها من بعيد وهى تمشى متخلجة متخلفة فترجو أن يتيح الله لها قوماً غير القوم فينفخوا فيها من روح العصر ونشاطه ما يساعدها على مسايرة النهضة ومواتاة الحاجة .

وها أنت ذا قد أتاحك لها الله كما رجوت ورجا أنصارك ، وقد استقر الأمر واتسق الحكم واستبان الطريق وعلى رأس الدولة ملك ديمقراطى النزعة عمرى الإصلاح ، يريد أن يكون عهده السعيد عهد مصر الذهبى فى العمران والعرفان والسلطان والمنعة وعلى رآسة الحكومة رجل قوى الإرادة نزيه السياسة حر الضمير ، يود أن يكون حكمه حكم الأمة فى إشاعة الخير ، وتوخى المنفعة ، وتعميم العدالة ! ولك وكيل منطقى الرأى أصيل الثقافة يتساير هواك وهواه فى الطريقة والغاية فنحن إذن حريون أن نرى وزارة المعارف فى عهدك شيئاً آخر يختلف

عن هذا الشيء في روحه وعمله وغرضه ومداه

* * *

إن مراقبة الثقافة يامعالى الوزير هى الناحية التى ستخرج منها الوزارة عن سياستها الديوانية التقليدية التى انحصرت إلى اليوم بين جدران المكاتب وأبواب المدارس فلم تتصل بالفكر العام اتصالاً مباشراً تغذيه أو تهديه أو تعاونه. فى هذه الناحية الجديدة ستلتقى الوزارة بالشعب وترى بعينها أنها فرطت فى جانب الثقافة العامة تفريطاً لا يسعها فيه عذر فالأدب لا يزال ناقصاً فى نوعه، قاصراً فى بيانه، قليلاً فى نتاجه، ضعيفاً فى انتشاره. فهو ناقص فى نوعه لأنه أنكر قديمه وجهل جديد الناس فلم يُغذِّه ماض ولم ينَمه حاضر، فبقى مُخدَج الخَلق لا هو ميت ولا هو حى ولقد كان أدبنا القديم فى حدود مراميه اللسانَ العام لخوالج الإنسانية فى أكثر بقاع الأرض، فلم تكن هناك فكرة تجول فى ذهن كاتب، ولا صورة تتمثل فى خاطر شاعر، إلا وجدت فى هذا الخضَم المحيط صَدَفة تستقر فيها فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار وجفّت على جوانبه الروافد عاد كالبحيرة الراكدة المحدودة لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل من حين إلى حين. فالقارىء العربى الحديث لا يجد فيما أثر منه ولا فيما استجد فيه غذاء عقله ولا رضا شعوره؛ لأن المأثور منه ناقص لانقطاعه عن سير المدنية، والجديد فيه ناقص لخلوه من الآداب الأجنبية. والغريب أن المرء يقرأ أى نابغة من نوابغ العالم فى أى لغة من لغات التمدن إلا فى اللغة العربية! فالتركى مثلاً يستطيع أن يقرأ فى لغته هوجو كله، وشكسبير كله، وجيته كله؛ ولكن العربى لا يجد فى لغته لهؤلاء العالميين إلا كتاباً أو كتابين اختارهما مترجم على ذوقه ونشرهما على حسابه. فإذا أردنا يامعالى الوزير لأدبنا أن يتسع فى حاضره كما اتسع فى ماضيه،

فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس : نرفده بآداب الأمم الأوربية ، ونصله بتيار الأفكار الحديثة ؛ فإن لكل أمة مزايا ، ولكل بيئة خصائص . ولن يكون أدبنا عالمياً ما لم يلقح بآداب العالم . والمحاكاة والاحتذاء من أقوى العوامل أثراً في الأدب

والأدب العربي قاصر في بيانه ، لأنه مقطوع الصلة بحضارة العصر ، فلا يستطيع أقدر كتابنا أن يتحدث عما يستعمل من ماعون وأثاث ، ولا أن يصف ما ركب من باخرة أو طائرة ومجمعنا اللغوي ليس في مقدوره بحكم تأليفه وطريقة عمله أن يقدم إلى الناس معجمه العتيد إلا بعد جيل أو جيلين ، حين يكون كل شيء في العلم قد تغير أو تطور ، فيصبح معجمه في الجدة يومئذ كمعجم لسان العرب اليوم ! فلابد لهذه الحال من علاجك الحاسم يا معالي الوزير ، فإن اللغة الناقصة هي نصف البكم إن لم تكن أكثر الجول !

والأدب العربي قليل في نتاجه ضعيف في انتشاره ، لأن الأدباء ينتج بعضهم لبعض ؛ فهم الذين ينشئون وهم الذين يقرأون . أما الخاصة فلجهالتهم لا يفهمونه ، والعامة لأميتهم لا يعرفونه . وإذا حرم الأدب تشجيع الخاصة لا يزدهر ، وإذا لم ينل إقبال العامة لا ينتشر ، وإذا لم يكن حاجة هؤلاء وهؤلاء لا يتنوع . وعلاج ذلك يا معالي الوزير تعويض الأدب من تعضيد الجمهور بالمكافآت والجوائز ؛ فإنها تحفز القرائح للعمل ، وتضمن الإجادة بالتنافس ، وترفع المستوى بانتخاب الأجود . وبضعة آلاف جنيه من الخزانة العامة ينفق أضعافها في تمهيد طريق أو تجميل بناء تخلق في الأمة أدباء عالميين ، وتجمع لها من الأدب الصحيح ثروة

وملاك ذلك كله يا معالى الوزير أن تفكر مراقبة الثقافة العامة فى أمرين جليلين : أحدهما إنشاء دار للترجمة تنقل الآداب الأجنبية نقلاً كاملاً صحيحاً ، فلا تدع نابغة من نوابغ العالم فى العلم أو فى الأدب أو فى الفلسفة إلا نقلت كتبه ونشرتها على حسب ترتيبها وتبويبها فى طبعاتها الأصلية . والآخر تأليف مجمع للأدب يقوم على رعايته وتوجيهه وتشجيعه ونشره ؛ ثم يكون لقرائح الشباب وهى فى أول الشوط مناراً وحمى ، ولعبقريات الشيوخ وهى فى آخره أمنا ومثابة . والأستاذ المراقب الذى اخترته يا معالى الوزير أقدر من يحقق الرجاء فى هذه المراقبة متى ظفر بتسديدك وتأييدك وعطفك

وعلى الأرض السلام

(٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٩)

فى هذا اليوم يحتفل المسيحيون بذكرى مولد المسيح عيسى بن مريم ، وفى ليلة هذا العيد المجيد بات القسس والرهبان يرتلون وحدهم بين أروقة البيَع وصحون الكنائس ذلك القنوت الشعرى الجليل :

« المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة » .

وربما تابعهم الأقوام فرتلوا وهللوا جرياً على التقليد وخضوعاً للعادة ؛ ولكنهم وا أسفا لا يجدون فى الآدق ولا فى أنفسهم معنى هذا النشيد ، ولا حقيقة هذا العيد !

* * *

فى أى جهة من جهات الأرض ذلك السلام ؟ وفى أى قلب من قلوب الناس تلك المسرة ؟ لقد عادت روح يهوذا الأسخريوطى فى جسد هتلر فدل على السلام الإلهى أبالسة الشر وزبانية الجحيم فصلبوه فى بولندة ، ومكّنوا فى الأرض لعوامل القحط والموت ، فأوقروا مائدة عيسى سماً وصاباً ، وأنبتوا شجرة ميلاده همّاً وعذاباً ، وحولوا أعشاش الأسر ورياض الحقول قبوراً موحشة على كل قبر منها ركام من الثلج وصليب من الخشب !

لكأنى بك يا روح الله كنت تمشى من الناصرة إلى بحيرة الجليل ، ومن صفد إلى كفر ناحوم ، وأنت ناكس الرأس ساهم الوجه ، يعتلج بين جوانحك الهم ، ويجول فى مآقيك الدمع ، لأنك كنت ترى بعين الله التى تخترق

الأزل والأبد كيف تَلازَم الشر والخير فى ملكوته ، فابتلى آدم بإبليس ، وموسى بالسامرى ، وعيسى بيهوذا ، ومحمدا بأبى لهب ؛ وقضى ألا تخلو الأرض من أتباع هؤلاء وهؤلاء ، ليدوم صلاحها بمدافعة بعض لبعض ، حتى إذا طغت قوى الشر وسادت عناصره أرسل عليها طوفان نوح بالماء أو بالوباء أو بالدم أو بالنار فترعوى وتهمد !

وكان الشر فى عهد المسيح وحشاً يتسعر فى عيون الروم ، ويتنمر فى نفوس اليهود ، فأخذ هو وحواريوه يكفكفون طغيانه بالمسالمة ، ويخففون عدوانه بالصفح ، ويسعفون ضحاياه بالمواساة ، ويشفون مرضاه بالدعاء ، ويحاربون أولياءه بالوعظ . ولكن الشر كان قد تفاقم واستطار فلم يرتدع باللين حتى جاء محمد رسول الله فرد جماحه بالسيف . وظلت محنة عيسى عليه السلام ألماً واخزاً فى ضمير الإنسانية لا يفتُر ، وأنيناً موجعاً فى أذن الدهر لا يخفت وتوالت القرون وتعاقبت الدول وتتابعت الحضارات ، ولا يزال إبليس والسامرى ويهوذا وأبو لهب مُنْظَرين فى الأرض ، يدعون إلى الشر ويُرغِّبون فى الرذيلة ويعملون للفساد ، والعالم المسكين يتدرع فى جهادهم بالدين والمدنيـة والتربية والعلم ، ولكن ذلك كله لا يغنى عنه إلا كما يغنى السد فى دفع الفيضـان ، أو الفرجة فى كف البركان ، أو الكوخ فى اتقاء العاصفة .

* * *

يا راعى السلام وداعى المودة ! لقد ضل قطيعك كله وشردَ . فاسأل الله أن يُطْلع فى سماء أوربا القاتمة « نجم المجوس » فعسى أن يهتدى به إليك طاغية موسكو وجبار برلين . والله قادر على أن يحول فى يديهما القنبلة والطربيد

(١) استالين وهتلر .

واللغم إلى « ذهب ولبان ومر[1] »

يا حامل الآلام ورسول الرحمة ! كيف استحال حلمك وسلمك وهداك فى ألمانية لوثر وروسية تولستوى سمائم قحط وزلازل دمار وطوفان هلك ؟ ! ألأنك لا تزال غريباً عن الغرب فلم يصادف دينك هواء ؟ أم لأنك شرعت الألم تكفيراً عن الكفر بالله ؟

لشد ما تختلف المسيحية فى الغرب عنها فى الشرق ! إنها مع المسيح قد خرجت من الغسق إلى النور ، ولكنها مع بولس قد دخلت من الشفق إلى الظلام ! ومن سار فى ضحوة النهار اهتدى ودل ، ومن ضرب فى سدفة الليل اعتسف وأضل .

بأية حال عاد عيدك يا رسول السلام وحامل الآلام على بولندة وفنلندة ؟ ! هل قضى الأباء والأمهات ليلة البارحة مشبلين على بنيهم وبناتهم فوق الفرش الوثيرة وحول المدافىء الواهجة وعيونهم تشرق بالغبطة وقلوبهم تفيض من السرور وهم يتناغون بأحاديث الحنان والحب تناغى البلابل الآمنة ، فى أعشاش الربيع الساكنة ؟ هل باتت الصغار الأبرار هذه الليلة فى مهودهم الحريرية يحلمون فى أحضان الكرى ببابام (نويل) وهو يضع لهم الألطاف واللعب والحلوى تحت أفنان الشجرة وفى نواحى المدفأة ؟

ياحسرتاه عليهم ! لم يأتهم عيدك يامبرىء المرضى ومحيى الموتى إلا وهم حطام وأشلاء . فلا الدار آهلة ولا الرزق موصول ولا الشمل جامع ! إن نار الأعداء

(١) إشارة إلى الهدية التى قدمها مجوس الفرس إلى مريم وقد اهتدوا إلى بيت لحم بنجم بزغ فى السماء يوم ولد عيسى .

تحرق البلاد ولا مأوى ، وصقيع الشتاء يهرأ الأجساد ولا دفء ، وخوى الأمعاء يلحس الأكباد ولا قوت ، وبقايا القنابل والرصاص والغاز من النساء والأطفال والشيوخ مشردون على الجليد يلتمسون الحياة الموقوتة فى قرية بعد قرية !

وليت الخراب والعذاب كانا مقصورين على أمة أو أمتين فتمدهما الأمم الأخرى بالمواساة والعون ! ولكن الخطب شامل والطامة عامة فالأمم المحاربة والمحايدة فى شقاء العيش و بلاء الموت على حد سواء ! قضت عليهم هنا وهناك نزوات الفرد و بدواته أن يساقوا إلى الجزر سوق القطيع ؛ فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومن المنتظرين من يقتله الجوع والخوف ، قبل أن يقتله المدفع والسيف . والله وحده يعلم بأى حال ستعود ذكرى مولدك المقبلة على هذا الصدام ، أيقول الحى يومئذ : السلام على الأرض ، أم يقول : على الأرض السلام !

هل خصب الأرض يستلزم جدب القرائح

(٨ يناير سنة ١٩٤٠)

من الأقوال المأثورة أن الحاجة تلد الاختراع وتفتق الحيلة . وهذه الحاجة التي ضمّنها الله عمارة الأرض ورقي العالم ، هي التي جعلت بيئة الفقر مهبط الإلهام ومنبت العبقرية . فأينما تجد الحاجة تجد العمل والذكاء والقوة ، وحيثما تر الغنى تر الكسل والغباء والرخاوة . ذلك لأن الفقير يضطره العيش إلى أن يفكر فيجيد التفكير ، وإلى أن يعمل فيتقن العمل ، وإلى أن يهاجر فيزداد بممارسة الشدائد ومنافسة الناس جلاء في الذهن وبسطة في العلم وسعة في الحيلة . ومواهب العقل كأعضاء الجسد تقوى وتنمو بالكد ، وتضعف وتضمر بالعطلة . ولا يصعب عليك أن ترى مصداق ذلك في الفروق الذهنية والعملية الواضحة بين أبناء الفقراء وأبناء الأمراء ، وبين سكان مصر العليا وسكان مصر السفلى ، وبين بلد كدمياط وبلد كالفيوم ، وبين مدينة كأثينا ومدينة كرومة في الغرب القديم ، أو بين قطر كفينيقية وقطر كالعراق في الشرق الغابر . ففي كل من ذكرت لك ترى أن جدب الأرض وضحولة الموارد كانا علة في إخصاب العقول وإنماء المدارك وكثرة الإنشاء ووفرة الإنتاج ، وأن خصب البلد وسهولة الأرزاق كانا سبباً فيما أصاب بعض الناس وبعض الأجناس من البلادة والقعود والترف والغفلة .

* * *

نستطيع أن نقول إن مصر في جملتها بلد غني يؤتي أكله كل حين بيسير الجهد وقليل النفقة . فأهله آمنون من موت الجوع ، لأن الفقير يملك أن يمسك

روحه بنصف قرش . وما أيسر ما يجد قرشين فى اليوم بالعمل الحقير أو السؤال الملحف ! ومتى حصل المرء من بلده على الكفاف والراحة والأمن ، نشأت فى نفسه فضيلة القناعة الزائفة . والقناعة فى الفقير كالثروة لدى الغنى ، كلتاهما تقتل طموح النفس ، وتسكن قلق الروح ، وتخمد نشاط القريحة ، وتحمل الرجل على الرضا بالدون والتسليم بالواقع

هذا الفقير القانع الذى لا يحس بالحاجة فلا يسعى للغنى ، وهذا الغنى الوادع الذى لا يشعر بالنقص فلا يطمح إلى الكمال ، هما الأثر السيء لتدليل النيل لبنيه وحدبه البالغ على أهله . فالفلاح لا يزال يزرع الأرض بالآلة القديمة على الطريقة القديمة ، لأنه لا يجد فى نفسه الحاجة التى تحفزه إلى اختراع آلة وابتكار طريقة ما دامت أرضه تغل عليه ما يكفيه بهذه الأداة الرخيصة السهلة .

والصانع لا يزال يصنع بيده كل اليوم ما تصنعه الآلة فى بعض الساعة ، لأنه يجد فى جيبه آخر النهار ما يملأ به بطنه بخسيس الطعام وغليظه ؛ فعلام يشغل ذرعه بما يقلل النفقة ويكثر الإنتاج ويحسن النوع ؟

والطالب يقصر جهده على استظهار المختصرات ، لأن الامتحان لا يخرج عن هذه المذكرات والوظيفة لا تطلب إلا بعضاً من الحساب وشيئاً من المصطلحات . وما غناء العلم بعد أن ينال المتعلم الشهادة والوظيفة ؟

والمعلم يحصر نشاطه فى كتب الدراسة وما يتصل بها من مقترح التمارين وموضوع الأسئلة ومحلول المسائل ، ثم لا يفكر بعد ذلك فى درس مشكلة من مشكلات التربية ، ولا حل معضلة من معضلات المجتمع ، لأنه ضمن لنفسه المرتب آخر الشهر والعلاوة آخر المدة

والكيميائى أو الفيزيائى يبلغ الدرجة الجامعية العليا فى الكيمياء

أو الفيزياء ، ثم يعلم أن أقرانه فى البلاد العاملة الجادة لا ينفكون يسخرون للمدنية والإنسانية قوى المادة وأسرار الطبيعة فى شكول مختلفة ومظاهر متعددة : فى البيت والمدينة ، وفى السماء والأرض ، وفى السلام والحرب ، ولا يفكر عالمنا الكبير أن يزيد فى العلم بكشف مجهول ، أو يرفه عن العالم باختراع آلة ، لأنه لا يبتغى شيئاً وراء اللقب الفخم والمرتب الضخم والحياة الوديعة .

والطبيب أو الصيدلى يجعل كل همه فى رواج عيادته أو صيدليته ، لأن المال هو غايته من الطبابة أو الصيدلة ، فإذا بلغها على حساب الطب المحفوظ أو الدواء المجهز فلماذا يكدر صفو عيشه بالاحتباس فى معمل ينقب عن جرثومة مرض ، أو يجرب مفعول مصل ؟

والسياسى أو المصلح يتوخى بعمله مجد الشهرة وجاه الحكم ، فإذا أدركهما بتملق الجمهور أو بعصبية الحزب فلا عليه بعد ذلك أن يظل حزبه من غير منهاج ولا غاية ، وأن يزاول عمله الخطير من غير خلق ولا دراية . وإذا كان الرمق فى هذا البلد يسد بنصف القرش ، والوظيفة تنال ببعض العلم ، والمنصب والمرتب يعظمان بمضى المدة ، والشهرة والجاه يدركان بارضاء العامة ، والزعامة والحكم يُبلغان باحتراف السياسة ، فأى شىء يدعو إلى زيادة العلم وإطالة الفكر وإدامة العمل وإضاعة الجهد والعمر فى تحرير مسألة أو تأليف كتاب أو متابعة كشف أو محاولة اختراع أو وضع خطة للاصلاح أو تدبير سياسة للحكم ؟

* * *

حاولوا ياقوم أن تهذبوا القناعة فى ذهن الفقير برفع مستوى عيشه وإصلاح فساد ذوقه . وحاولوا أن تخلقوا الحاجة فى نفس الغنى بتشويقه إلى الكمال المطلق

وترغيبه فى المثل الأعلى ، فانكم إن نجحتم فى زعزعة الرضا فى القانع المعترّ وفى الواجد المغتر ، ساورهما القلق الروحى الحافز الذى لا يقنع بما دون الغاية ، ولا يرضى للغير بأقل مما يرضى للذات .

حاولوا أن تحملوا العلماء والأدباء والأطباء بالجوائز والألقاب على الإنتاج الأصيل والتأليف المبتكر والبحث المنتج حتى ينشأ فيهم على طول الزمن والمرانة حب البحث لفائدة العلم ، وحب العمل لمنفعة الناس .

ثم حاولوا وحاولوا أن تقيسوا كفايات العاملين وأقدار النابغين بغير مقاييس المحاباة والزلفى والقرابة ، فان كثيراً من الأكفاء إنما يزهدهم فى العمل والإصلاح اليأس من الإنصاف والقنوط من المكافأة !

من مذكراتي اليومية

(١٥ يناير سنة ١٩٤٠)

من عادتي كلما ثقل عليّ الحاضر وضاقت بي الحال أن أعود إلى ماضيّ فأنشر عهوده وأجترّ ذكرياته. وسبيلي إلى ذلك استغراق الفكر فيما سجلت صحائف الصبا من حوادث، أو العيش مع إخواني الذاهبين فيما كتبت وكتبوا من رسائل، أو الرجوعُ إلى مادوّنتُ في مذكراتي اليومية من خواطر. وكان ليناير من دون الشهور نوطة[1] شديدة بالقلب وأثر بالغ في الذاكرة، فوقع في نفسي وأنا أهم بالكتابة فيما أوحاه إليّ أسبوعه الثاني، أن أتصفح مذكراتي لأقرأ ما كتبته فيه سنة من السنين. فتناولت جزءاً من أجزائها المتروكة وفتحته على موضع هذا الشهر منه، فاذا بي أقرأ في يومه الرابع عشر ما أنقله إليك بنصه.

يوم الجمعة ١٤ يناير سنة ١٩٣٨

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٢ ولد لي ولدان: طفل وكتاب! أذكر هذا كل الذكر، لأنني في ذلك اليوم المقرور عدت في متوع الضحى من دار المعلمين بكرخ بغداد إلى داري بالرصافة، فلزمتها جالساً أمام المدفأة الموقدة أكتب الفصل الأخير من كتابي: (العراق كما رأيته) ثم جاءني النبأ من مصر بعد ذلك بأن « رجاء » ولد في هذا اليوم نفسه. وكان طفلي وكتابي أعز شيء علي؛ لأن ابن نفسي كان نتيجة أربعين سنة من خير عمري، وابن فكري كان نتيجة ثلاث سنين من خير عملي.

أجل، قضيت ثلاث سنين في تأليف « العراق كما رأيته »! جمعت مادته

---

(١) نيط الشيء بالشيء: وصل به

من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث فى سنتين ، ثم حررته وأنشأته ببغداد فى سنة ؛ فلم أكتب منه فى القاهرة إلا رحلتى إلى كردستان والموصل وجبال عُبّاد الشيطان ، وإلا عودتى إلى سورية عن طريق دير الزور وحلب . ثم وجهت عزيمتى إلى نشره فهيأته للطبع وتربصت به مواتاة الفرصة ؛ ولكن الفرصة أتأقلت حتى وفد إلى مصر صديق من رجالات العراق له بصر وخطر[1] فرغب أن يقرأ فيه ما كتبت عن بعض الناس وما علقت على بعض الحوادث . فحملته إليه فى فندق « الكنتننتال » فحبس نفسه عليه نصف نهار لم يبرح فيه الفندق ثم رده إلى فى المساء وهو يقول فى سَمْته الرزين ومنطقه المتئد « أشهد أن كتابك أول ما كتب عن العراق فى صراحة ولباقة وإخلاص وصدق . ولقد طويت عنى ما قلته فىّ ؛ ولكننى بعد أن قرأت ما قلتَه فى غيرى أكاد أعرفه بالاستنتاج والحدس . ولعل من الخير لنا ولك أن تؤخر نشر القسم السياسى منه إلى حين . أما قسماه الأدبى والاجتماعى فستكثر حولهما الأحاديث ولكنهما فى الأدب والنقد والتاريخ نصرٌ وفتح »

نزلت على رأى الصديق العظيم وعدتُ بالمخطوط الثالث إلى موضعه من المكتب ثم أعلنت أنى سأنشر بعض صوره الأدبية فى « الرسالة » ، وقد نشرت بالفعل منه صورتين أو ثلاثاً رنت بها الآذان وأصغت إليها الأفئدة .

ولكن وا أسفاه ! لم يعد للطفل الحبيب نفَس ينسم على نفسى ببرد الجنة ، ولم يبق من الكتاب العزيز سطر يشعَب فؤادى بذكرى العراق !

والهفتاه على ولدى الذى أبدعه الله ؛ وعلى أخيه الذى أبدعته نفسى ! جاءا معاً فى الشتاء ، فلم أجد بفضل وجودهما برداً ولا عبوساً ولا كآبة ؛ وذهبا معاً فى الربيع ، فلم أحس بسبب فقدهما دفئاً ولا طلاقة ولا بهجة . أودى بهما القدر العابث خداعاً

(١) هو الزعيم الكبير المغفور له يسين باشا الهاشمى .

وغيلة ، فسلب العين الـكالئة ريبةَ الحذر ، وجرد الدفاع اليقظ من فرصة الحيلة .
دب للطفل الموت الوحى[(١)] فى وعكة خفيفة من البرد ظنها الطبيب ز كاماً عارضاً فإذا هى الخناق[(٢)] القاتل ومشى للـكتاب القدر المحتوم فى ركام من الورق المتروك فذهب به خلسة إلى النار المبيدة !

ذلك أنى أخذت ذلك الـكتاب ذات يوم من درج المـكتب لأختار منه فصلاً للرسالة ، ثم جلست فى البهو على كنبة بُعثرت فوقها وأمامها تجارب المجلة وأصول المقالات ، فاخترت من المخطوط قطعة أدبية ثم ألقيته إلى جانبى ، وأخذت أصحح (الملازم) وأطرح (الأصول) أرضا حتى فرغت من ملزمتين فدفعتهما إلى غلام المطبعة ، وخرجت من البهو لا فى يدى ولا فى جيبى لأترك هذا الورق المهمل لخادم البيت تـكنسه من هنا ومن هنا . ثم تطرحه على عادتها كل يوم فى صندوق الـكناسة ، ويأتى الزبال فيأخذ ما تجمّع فى الصندوق ويحمله على عادته كل يوم فى زنبيله إلى المستوقد !

وهكذا قضى الله أن تذهب إلى العدم خلاصة العمر وعصارة الفـكر فى فترة ضائعة من فترات الغفلة ! وهيهات أن يكون لهما فى الحياة عوض ، فإن الفلذة إذا اقتطعت من الجسم لا ترجع إليه ولا تتجدد فيه ، وسحر المنظر الجديد لا يتـكرر أثره فى نفس زائره ومجتليه

* * *

حولت بصرى عن المذكرة ثم أطرقته ولج بى الإطراق والاستغراق حتى سقط الدفتر من يدى ، وتلاشى الحاضر من نفسى ، ووثب الماضى إلى خاطرى ، ووقفت أمام الفاجعتين وجهاً لوجه ، فـكأنما لبث الزمن واقفاً حيث كان ، وظل الجرح نازفاً حيث طُعن ، وبقى القلب واقداً حيث اشتعل ؛

(١) الوحى : السريع (٢) الخناق : الدفتريا

وكأنما أسلمنى كل ضعف إلى الجزع ، وخذلتنى كل قوة حتى الإيمان !

تفصد جبينى بالعرق ، ثم اخضل بالدموع ، فأخذت نفسى تثوب رويداً إلى ، وتحركت يدى فى فتور فتناولت دفتر للذكرات ثم جعلت أصفحه ، فعثرت فى ثناياه على ورقة بالية من مسودات كتابى الفقيد ؛ فنشرتها بين يدى ثم أقبلت على قراءتها لهيف القلب زائغ البصر فقرأت .

« هذه القهوة الضَّحيانة التى رقدت على صدر دجلة النابض ، واستغرقت فى الدفء والضوء والسكون ، كانت أحب القهوات إلى القلب العميد والخيال الشاعر كنت كثيراً ما أغشاها بُعيد الغداء فأجد جماعة أو جماعتين يلعبون الورق هنا ، وفتى أو فتيين يتساقطان الحديث هناك ، و بائع (الأبيض والبيض والعنبا)[1] يسرق خطاه بين هؤلاء وأولئك فيذكر بندائه الخافت البطون التى شغلها عن طلب الطعام سكرة القمار أو نشوة المنادمة ؛ فأجعل ظهرى إلى أحلاس[2] القهوة ، ووجهى إلى وجه دجلة ، وعينى إلى جسر (مود) ، ثم أشاهد فلماً عجيب الألوان من الناس والأجناس والصور فهذا قطيع من الغنم يعبر الجسر إلى الجزر فى رحمى راعيه وهو مستسلم لصوته منقاد لعصاه استسلام الأمة للطاغية يقودها إلى الحرب ، وانقياد الخليقة للقدر يسوقها إلى الموت ! وهذا الملك فيصل يعود من قصر العرش إلى قصر (الزهور) من غير حرس ولا جلبة ، فيقف فى غمرة الناس على فم الجسر ينتظر أن يعبر القطيع وراعيه ! وهنالك تلاقى راع وراع ، وتقابل قطيع وقطيع ! ولكل إنسان فى دنياه مملكة ينفذ فيها حكمه ، ودائرة ينعقد عليها أفقه »

ثم حاولت أن أقرأ بقية الورقة الذابلة الحائلة فلم أستطع !

(١) الأبيض : الخبز ، والعنبا : ثمرة المانجو تملح وهى لجة وتؤكل مخللة

(٢) أحلاس القهوة : هم الذين لا يكادون يبرحونها

من وراء المنظار

(٢٢ يناير سنة ١٩٤٠)

سافر صديقى (عين) فى العيد إلى الريف ليضحى بكبشه المنوفى الأملح هناك . ولصديقى الوفى (عين) ولعٌ بالريف عجيب فصباياه عرائس شعره ، ومشاهده مسارح خياله ، ومعاهده ملاعب هواه ، ومزارعه صقال خاطره ، ومطاعمه عافية بدنه . لذلك تراه كلما افترص العودة إلى الريف فى ساعة من النهار أو الليل أسرع إلى القطار أو إلى السيارة دون أن يشاور أهله ويودع صحبه ويرتب عمله !

دخلت صباح اليوم مكتبه الذى يكتب فيه (من وراء المنظار) فوجدت الكرسى خالياً وليس أمامه خبر ، والمنظار متروكاً وليس وراءه نظر ! فقلت لنفسى لم لا أجرب هذا المنظار الذى تنفذ منه (عين) الصديق إلى ما وراء الصدور والستور والحوادث ؟ أما يجوز أن يكون سرّ فنه فى هذا المنظار فأرى به ما يصح أن أصوّره وأنشره ؟

سألت عن ذلك نفسى ولم أنتظر ما تقول ، فقد أخذت المنظار وتركت الدار ووضعته على أنفى وأنا أمشى على طوار الشارع الذى عرفته وألفته ، فإذا الناس غير الناس ، والمدينة غير المدينة ، والدنيا غير الدنيا !

كأنما هذا المنظار من صنع الله الذى أتقن كل شىء ! فإن فيه أسرار المناظير المعظِّمة والمقرِّبة والكاشفة ؛ وفيه غير ذلك قوة التجريد فهو يرد كل شىء إلى طبيعته ، ويظهر كل شخص على حقيقته .

مشيت به فى زحمة الطريق مشية الغريب الجاهل فى البلد العجيب

المجهول ، تزخر نفسه بعواطف شتى من الغضب والعجب والدهش والإنكار والخوف ، ثم لا يملك أن يسأل لأن لسانه معقود ، ولا يستطيع أن يصبر لأن جَلده مفقود :

رباه ! ماهذا الذى أرى ؟ أهذاهو الصديق البر الذى خالصته الود وساهمته الوفاء وعاشرته نصف العمر ، ثم لا ألقاه إلا صافحنى بالكف الناعمة ، ومازحنى باللسان المعسول ؟ ما باله قد تساقطت عنه لفائفه الوردية ، وحالت عليه أصباغه العبقرية ، فبدا أمامى عارياً ضارياً كالأسد الجائع ، تتقد عَيناه بالشر ، و يتحلب شدقاه بالشره ، وتمتد يداه الباطشتان إلى قوتى الذى لا مساك للنفس إلا به ؟ وفى شريعة الوحش لا تتصافح الكفان ما دامت بينهما فريسة ؟ ولكن الإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يسلم بيد و يلطم بيد !

أهذا هو رجل الدين الذى عرفته عنوان الفضيلة ومثال الورع ولسان المعروف؟ مالى أراه اليوم قد تهتكت الأسرار عن تنكره البارع ، فلحيته المستعارة تكاد تسقط ، وزهادته الكاذبة تهم أن تفترس ، وحلته الدينية تشف عن جسد دنيوى تلهبه الشهوة المسعورة ، وتذيبه الرغبة الملحة ، و يود لو تنقلب المواعظ والآيات فى فمه رُقًى سحرية ينال بها عَرَض الدنيا وعزة الجاه ؟

أهذا هو العظيم المتأبه الذى أشاهده من حين إلى حين يمشى وأنفه فى السماء ، ولغاديده تكاد تنشق من نفخة الكبرياء ، ونظراته وكلماته توزع على من حوله احتقار القوى واستكبار المتسلط ؟ إنى لأراه الساعة من خلف هذا المظهر الموثق والرواء الخلاب جثة ضئيلة الأجلاد خبيثة الريح يلتف جلدها الرقيق الشاحب على ضمير مثقل بالخزى ونفس مطمئنة إلى الهون ؛ وكأنى أنظر

إلى بقايا الإنسانية فيه تحزه فى مواطن الحس منه بكلام معناه : ياعزَّ ما بينك وبين الناس ؟ وياذل مابينك وبين نفسك !

ومن هذا ؟ أهذا هو السياسى الذى ألف معجماً فى لغة الوطنية ، ونظم ديواناً فى مدح الدستور ؟ أهو من أرى أم ذلك تاجر يهودى السمات يتجر بالكلام كالمضاربين فى (البرصة) ، ويراهن على الزعماء فى الحكم كالمراهنين على الخيل فى السباق، ويضحى بالمنفعة اليسيرة لينال مقعداً فى البرلمان ، أو بالوظيفة الصغيرة ليبلغ كرسيًّا فى الوزارة !

وما خطب هذا الشاب الذى يتجمل بالبدلة المهندمة ، ويتنبل بالحركة المنظمة ، وليس فى كيسه قرش ولا فى بيته قوت ؟ لماذا يجلس فى هذه المركبة الفخمة مع هذا الرجل وهذه المرأة ؟ أيريد أن يخدع الرجل فيبتز ماله بالصداقة ، أم يريد أن يغوى المرأة فيسلب ثروتها بالزواج ؟ لقد بان فى المنظار أنه (ابن ذوات) أفلس فتاجر فى الاحتيال وسمسر فى الرذيلة ، واللذان معه زوجان أرستقراطيان يقوم زواجهما على الرياء والخيانة ؛ فالفتى يبيع الرجل أعراض الناس ويشترى منه عرض نفسه وهو بهاتين الوسيلتين صديق الأسرة الأدنى وكلبها المسوح المدلل !

وما حال هذه العصبة التى تغدو كل ليلة إلى مجلس شراب أو سامر أنس ، فيتنادمون على الكأس بطرائف الأدب وروائع النكت ومداعبات الصداقة ؟ لقد كنت أحسبهم جميعاً فأصبحوا فى هذا المنظار شتى ! فهم لا يتصافقون على الود إلا فى مجالى اللهو ؛ فإذا تفرقوا تناكروا وبسط كل منهم لسانه فى الآخرين بالذم ؛ ودرج بعضهم بين بعض بالوقيعة ، وصحح كل واحد لنفسه ماتقسم من الفضل فى الجماعة .

أعوذ بالحليم الستار ، من شر هذا المنظار ! لقد شوه فى عينى جمال الوجود كما يشوه المسكرسكوب بشرة الوجه الرقاقة ولا مراء فى أن جمال الدنيا خداع ، وسعادة العيش وهم ، وحياة الناس تمثيل . فإذا أزلت عن العيون غشاوة الإيهام فرأت كل شىء على طبيعته ، وكل شخص على حقيقته ، لا يبقى لجميل سحر ، ولا لعجيب سر ، ثم لا يكون بين أحد وأحد ألفة ، ولا بين جماعة وجماعة نظام

أمل وذكرى

(٢٩ يناير سنة ١٩٤٠)

كانت القاهرة فى أيام عيد الأضحى حجًا للعروبة ، كما كانت مكة فيها حجا للاسلام وكان بين عرفات والمقطم أمواج متعاقبة من شعاع الروح الإلهى تشرق فى الأبصار والأفواه والأفئدة فتتعارف وتتآلف وتتكاشف ، فيفضى كل قطر إلى أخيه بينات قلبه وذوات صدره[1] وكان ولاشك بين وفود المؤتمر الطبى العربى ، كما كان بين حجاج البيت الإسلامى الحرام ، مذاكرات وأحاديث فيما يكرب الأرض و يحزُب الناس من انفجار العدوان والطغيان والشر فى أكثر بقاع العالم ، فكان إصفاق الرأى ولابد على ضرورة الوحدة العربية بأى شكل وعلى أى نظام

والحق أن الوحدة العربية فى شتى صورها لم تكن فى عهد من العهود ولا فى حال من الأحوال ألزم منها لحياة العرب فى هذا العهد وعلى هذه الحال . فقد كانت بالأمس سبيلا من سبل الكمال الإنسانى تصد عنها عصبية المكان وحزبية المذهب ، ولكنها أصبحت اليوم ضرورة من ضرورات البقاء تدعو إليها طبيعة الحياة وسلامة الذات . لذلك لهج بها وفود المؤتمر وشهوده فى حفلاتهم الرسمية والشعبية ، واعترف بها ودعا إليها وزير الشئون الاجتماعية فى خطبته الخطيرة بدار الأبرا الملكية .

* * *

---

(١) بنات القلب : العواطف ، وذات الصدر : الأسرار .

كان عيد القاهرة بما رأينا من تعاطف الإخوة المؤتمرين مبعث أمل ، وكان عيد بغداد بما سمعنا عن مصرع الوزير رستم حيدر مثار ذكرى ولم يكن من السهل على الخاطر — وقد امتلأ البصر والسمع بشباب العراق وأخباره — أن ينصرف عن الفكر فى حاضر العراق وماضيه .

رحم الله رستم حيدر ! لقد كان وحده فصلاً فى تاريخ العراق الحديث . وإذا كان فى بعض حواشى الملوك رجال للهو والزهو ، وآخرون للتجسس والتمويه ، فإن رستم حيدر كان فى حاشية الملك فيصل رجل الجد والعمل . ولم أر فى المهاجرين إلى بغداد مع صقر قريش أعلم ولا أفهم من رستم حيدر وساطع الحصرى . وقد أبلى الرجلان فى إذكاء النهضة العراقية البلاء الحسن : هذا فى ميدان الثقافة ، وذاك فى ميـــدان السياسة . وكان بينهما مشابه عن جهات كثيرة فـكلاهما مستقل الفـكر ، له فى كل مسألة رأى وعلى كل رأى اعتراض . وكلاهما متقن للعمل ، يتقصى أطرافه ويستبطن دخائله . وكلاهما صليب الرأى ، يعييك أن يتابعك على ما تريد وإذا كان بين الرجلين اختـلاف ، فهو الاختلاف الطبيعى بين رجل السياسة الذى يتأثر بالأحوال والرجال والحوادث ، وبين رجل العلم الذى لا يستخدم غير المنطق ولا يتوخى غير الحقيقة

كان المرحوم رستم حيدر ظاهر الوقار ، دائم الانقباض ، كثير الصمت ، خافض الصوت ، هادىء الحركة ؛ ولـكن هدوءه كان كهدوء الماء العميق ، تضطرب فى جوانبه الأفـكار والأسرار وهو ساكن السطح بارد الأديم .

وكان منذ اشتغاله بشئون العراق مستشار المغفور له الملك فيصل الأول فى سياسته الداخلية والخارجية ، لبصره بعلوم السياسة والمال ، وعلمه بمداخل الأمور ومخارج

الحيل فكانت أعمال العاهل العظيم تجد مصاديقها غالباً فى أقوال المستشار اليقظ

كان من سياسة رستم الاعتماد بعد التاميز على الفرات قبل دجلة[١] ؛ لأن الفرات شيعى المذهب ، وعلى ضفافه الخصيبة تنزل القبائل البدوية القوية . فنى تقوّيه بالشيعة حيطة من نجد ومودة لإيران .

وكان يشيح بوجهه عن مصر ، لأن هواها فى ثورة الحسين على الترك كان مع الخلافة ، ولأن اشتغال طلبتها بالسياسة كان فى رأيه مرضاً مخطراً لا ينبغى أن تسرى عدواه إلى العراق ولعله كان السياسى العراقى الوحيد الذى يهتم بأحوال مصر ، ولا يتصل برجال مصر .

وكان من رأيه توسيع التعليم الأولى والمهنى ، وتضييق التعليم الثانوى ، وحصر التعليم العالى فى مدرسة لتخريج الموظفين ورجال الإدارة ، خشاة أن يكثر المتعلمون والمتعطلون فيكونوا مصدراً للشغب والإضراب والفوضى وفى ذلك العهد الذى أرجع بذاكرتى إليه أغلقت المدارس العالية جمعاء إلا مدرسة الطب . وكان من أشد المعارضين لهذه السياسة التعليمية الأستاذ ساطع الحصرى لأنه كان يحاول أن ينشىء الثقافة العامة على قواعد العلم الخالص دون أن يحفل بأهواء الطوائف وأغراض السياسة ، ولذلك نُحِّى حينئذ عن سياسة المعارف

وكان من خطة المرحوم رستم أن تظل الأراضى الزراعية ملكا للحكومة لتضمن بمنح الالتزام ومنعه طاعة القبائل وتأديب العصاة ومتى تحضرت العشائر وتوحد القانون وعمت المدنية الاجتماعية أمكن أن توزع ملكية الأرض على نظام عادل .

تلك هى أقوى الأصول التى كانت تنبت عليها سياسة القصر فى ذلك

---

(١) نهر التاميز كناية عن انجلترا ، والفرات كناية عن أهل الشيعة ، ودجلة كناية عن أهل السنة .

الحين ، ولا يعلم غير الله مقدار أثر المستشار فى وضع هذه السياسة .

لقد كان المرحوم رستم حيدر عنيداً فى رأيه صليباً فى خطته . والعناد والصلابة صفتان لا تحسنان فيمن يتولى أمراً بالعراق .

دخلت عليه ذات يوم من عام ١٩٣٢ وهو وزير المالية أسأله أن يرد على صديقى حسن السهيل أمير بنى تميم ما أخذته الحكومة من أراضيه الملتزمة وهو يبلغ خمسة عشر ألف فدان ، فأجلسنى إلى جانبه عن يسار المكتب الذى سُفك عليه دمه منذ أيام ؛ ثم أخذ يقنعنى بالحجج والشواهد أن الحكومة محقة وأن الشيخ مُبطل ثم عزا المصادرة إلى أمور تتعلق كلها بسلامة العشيرة وإقامة العدالة . ولم ير نفسه فى حاجة إلى ذكر السبب الأول ، وهو أن سيد تميم عضو قوى فى حزب المعارضة ! فأدهشتنى جرأة الوزير وأعجبتنى لباقته ، وعجبت كيف يصر على مناوأة الشيخ وفى سبيل خمسة عشر ألف فدان تُخشى الخصومة ! ولكنه نجا من مناوأة الأمير لأن الأمير طالب مجد ، ولم ينج من مناوأة الموظف[1] لأن الموظف طالب قوت !

---

(١) الموظف الذى قتله فى مكتبه لسبب إدارى .

الحياة جميلة

(٥ فبراير سنة ١٩٤٠)

الحياة جميلة ، وما يشوّه جمالها غير هذا الحيوان المسمى بالإنسان ! لم يعش فيها كما تعيش سائر الأنواع على رسم الفطرة وَهدْى الطبيعة ووحى الله ، وإنما عاش على قوانين من وضعه استمدها من أثرته وكبريائه وهواه فكان شرًا على نفسه وحربًا على غيره .

ربما اقتتل الوحش والوحش أو الطير والطير فى سبيل القوت أو الأنثى ؛ ولكنه اقتتال الساعة لا يسبقه تدبير ولا يصحبه حقد ولا تلحقه جريرة أما الإنسان فهو كَدَرُ السلام وقذى الحياة ! أحيا لنفسه بفضل ذاكرته ماضيًا يحفظ الثأر ، وخلق لنفسه بفضل بصيرته مستقبلاً يحمل الخوف ، فكان حاضره بينهما قتالاً مستحرًا لا ينقطع ولا يفتر ، إما دركًا لثأر الأمس الذى يذكره ، وإما كسبًا لقوت اليوم الذى يتبصره ، وإما درءًا لخوف الغد الذى يتصوره .

* * *

الحياة جميلة ، وأجمل منها الحى الذى يدرك هذا الجمال ويتذوقه ويستوعبه ويكتسبه . فالطائر أجمل من الروض ، لأنه عرف كيف ينقل ألوانه على ريشه ، ويجمع ألحانه فى صوته . والأسد أجمل من الغابة ، لأنه استطاع أن يجعل رهبتها حية فى رهبته ، وعظمتها ماثلة فى عظمته . والجمل أجمل من الصحراء لأنه اندمج فيها ؛ فصير جبلها فى هيكله وصوّر رملها على أديمه . والحوت أجمل من البحر ،

لأنه قطعة من الحياة صيغت من لين مائه وشدة موجه وسرعة تياره .

وكأنما يدرك الطبيعـــة ويسايرها ويتأثر بها كل شيء من ناطق وصامت إلا هذا الإنسان ! فقد خرج عن سنة الله فى خلقه حتى اختصه بالأنبياء والرسل والمدارس والكتب ! وهيهات أن يدخل النور عين الضرير ، وأن يبلغ الصوت أذن الأصم !

* * *

الحياة جميلة . وليس جمالها قصراً على قوم دون قوم ، ولا على طبقة دون طبقة . إنما الجمال وضاءة الفن الإلهى أشاعه الله فى الأرض والسماء ، وهيأ المدارك للاستغراق فيه والاستمتاع به . فمن كان ذا سمع وبصر وقلب وجده فى كل منظر وأحسه فى كل حالة . فهؤلاء الذين يمرون عليه وهم معرضون عنه قد فسدت فيهم طبيعة الحياة ، وتبلدت فيهم ملكة الحس ، فانقطع ما بينهم وبين الوجود الحق والوجدان الصحيح .

إن الجمال وسيلة الطبيعة لحفظ الحياة وبقاء النوع تجمع به ما شت وتؤلف به ما نفر . وهو بعد ذلك سرور النفس ونور القلب وسلام الروح . فمن تملاه فى صوره الحسية والمعنوية فى الكون كان له منه فى كل زمان شباب وفى كل مكان ربيع .

* * *

الحياة جميلة ، ومظهر الشعور بجمالها المرح والبهجة . فأينما تر الجمود والكآبة تر الشعور الذى أدركه الكلال أو أصدأه القبح أو أفسده الشر ، فيموت فيه الوعى ، أو ينعكس فيه الجمال ، أو ينقلب فيه الخير . فالجمال فى الطبيعة لابد أن يجاوبه جمال فى النفس . والصفاء فى العيش لابد أن يعادله صفاء فى القلب

ومن هنا انتشر الجمال والصفو على ذوى الحس المظلم والضمير الخامد .

كن جميلاً تر الجمال فى كل شىء حتى فى الدمامة . ومتى امتلأت قواك المدركة بمفاتنه ومباهجه حلى الوجود فى صدرك ، وساغ المر فى فمك ، وسعيت إلى مجالى الجمال فى النيل والجزيرة والريف ، فشدوت مع الطير ، وطرت مع الفراش ، وسبحت مع السمك ، واستطعت أن تطاول الأغنياء فى العز وتشآم فى الغبطة وتقول لهم إن السعادة بالجمال أضعاف السعادة بالمال . والمال لكم فجدواه عليكم ، ولكن الجمال لله فجدواه على الناس .

* * *

الحياة جميلة ، وأنت يا ابن الحياة وارث هذا الجمال . فلم تزوى عنه وجهك وترسل عينيك بالحسد والحقد إلى المترفين الخافضين وهم يتلهون بالقنص أو يتزحلقون على الجليد ، أو يتمتعون بالسياحة ؟ إن فى القاهرة وضواحيها من الجمال المبذول والنعيم المشاع ما يكفكف ثورتك على الغنى ، ويلطف سخطك على الحياة وهذا هو النيل الجميل يجرى بين ضفافه السحر ، ويخطر على سواحله الفتون ؛ فمن الذى يمنع جمهرة الشعب أن تداعب أمواجه بالمجاديف ، وتشق عبابه بالزوارق ، وتقيم على شاطئيه مهرجانات السباق ومسارح اللهو ؟ إنك لتمر على النيل فى أى ساعة شئت من النهار أو الليل فتحسبه من السكون المخيم على شاطئه ومائه يجرى فى مجاهل الأرض ولولا أن عليه جسوراً لا مناص من عبورها إلى الشاطىء الغربى لما ذكره القاهريون إلا كما يذكرون المقطم !

إن حياة الكسل والرخاوة والجمود والانقباض التى نحياها ألقت من ظلالها الباردة على النيل والجزيرة ، فجعلت النيل فى ركود المستنقع ، والحدائق

فى سكون المقبرة . ولذلك ترى الناس يمشون على جنباته أو بين جناته مطرقين صامتين كأنهم فى مجال التأمل أو فى مقام العبرة !

* * *

الحياة جميلة . ولكن جمالها يقتضى أن يكون لنا زعماء للهو يصححون إدراكنا للحياة ، و يرهفون أذواقنا للجمال ، ويهيئون قلوبنا للسرور ، ويشغلون أوقات فراغنا بالمسابقات الرياضية ، والمهرجانات الوطنية ، والسياحات النهرية ، والملاهى الفنية ، والمواكب الشعبية . وليس أقدر على هذه الزعامة اليوم من وزارة الشئون الاجتماعية فإن هذا الذى ذكرنا داخل فى منهاجها وعلاجها ؛ وهو يشبه أن يكون غرضاً أصيلا من أغراض وزيرها المجاهد المصلح ، فإن سياسته فى تقويم الشباب قائمة على تقوية رجولته وشجاعته بالجندية ، وتربية خلقه وذوقه بالرياضة

الموظفون والناس

(١٢ فبراير سنة ١٩٤٠)

ابتليتُ هذه الأيام بأن أختلف إلى بعض الوزارات في شأن من شئون الرسالة . وأشد الأمور على نفسي أن أغشى دواوين الوزارة أو أقسام الإدارة ، لأني أعتقد كما يعتقد أمثالي من السوقة الأحرار أن الحكومة من الأمة بمثابة الرأس من الجسد ، فيه التفكير والتدبير والقيادة ، وليس فيه الاختيال والشموخ والسيادة ؛ ولكن الحكومات في أمم الشرق لا تزال تعتقد أن الرأس معناه أن يوضع فوق الجسم ليسمو على أعضائه ويعيش على غذائه . فإذا دخلت دورها لا تجد فيها الروح الوطنية التي تبعث الحياة العامة، ولا الفكرة الاجتماعية التي تدير المنفعة المشتركة ، وإنما تجد بها مظاهر شتى للسلطان الجبار والبيرقراطية[1] الصلفة تعطل معنى الإصلاح وتبطل حقيقة العدالة .

ترى أول ما ترى جيشاً من الشرطة وكتام السر والحجّاب والسعاة يسد أبواب المكاتب ، ويملأ مدارج الطرق ، ويشغل فراغ الحُجَر . وهذا الجيش الذي يكلف الخزانة لا أدري كم من المال ، لا عمل له إلا بث الرهبة وإظهار الأبهة والحيلولة بين الناس وبين القائمين على (مصالحهم) من أولي الأمر . فإذا أعفتك الفرصة أو ساعدتك اللجاجة فنجوت من شراسة الشرطي أو الحاجب ، وخلصت من غطرسة السكرتير أو الكاتب ، دخلت على الموظف الكبير بهوا كأبهاء القصور ، فُرش بالطنافس ، وأُثث بالأرائك ، وزين بالتحف ، وأدفئ بالكهرباء ، وقام في صدره الحالي[2] طرفة من طرف الأثاث يقولون إنها مكتب

(١) البيرقراطية : حكومة الموظفين .
(٢) الحالي : ضد العاطل ، وهو المزدان .

ومن وراء هذا المكتب الفاخر كرسي وثير متحرك جلس عليه الموظف العظيم وبدلته تكاد تنشق من ورم الكبر ونفخة السلطة ، فلا تستطيع أنت من رهبة السلطان أن تكلمه ، ولا يستطيع هو من عزة المنصب أن يكلمك .

هذه المظاهر القائمة على السرف والترف يجب أن تزول أو تخفف ، لأنها تحيط الموظف بجو من العظمة المستعارة تزوّر له ذاته ، وتفسد عليه حياته ، وتجعل ميزانه الاجتماعي منصوباً على ضميرين مختلفين : يزن في بيته ولنفسه بضمير ، ويزن في الديوان وللناس بضمير ويا ويل ذي الحاجة إذا دخل على الموظف مكتبه وليس منسوبا إليه ولا معروفاً لديه ولا موصى به ! إنه لا يجد إلا النظرة القاسية ، والكلمة الجاسية ، والإشارة المهينة ، والهيئة الوقحة التي تصرخ في وجهه بهذه الجملة :

يا بُعدَ ما بيني وبينك ! أنا حاكم وأنت محكوم ، وأنا (ميري) وأنت (براني) ؛ فإن احتمل المسكين الهون وقف على مضض ، وإذا ملكته الحمية انصرف على شجار !

لقيت منذ يومين في فناء الوزارة الفلانية صديقي فلاناً المهندس المقاول يزمجر من الغيظ وينتفض من الغضب . فقلت له وأنا أربت على كتفه :

— كفاك الله الشر ! ماذا بك ؟

فقال بصوت يتفجر بالسخط ويتهدج من التأثر :

— والله يا أخي ما أدري أنحن عبيد الموظفين ، أم نحن وهم عبيد القانون ؟ هذا فلان بك . . .

— فلان بك ؟ ! إنه الرجل الذي أقصده الساعة في مسألة عامة .

— تعال تعال ! لا خير في لقائه اليوم لقد تركته يفور على الكرسي

— ولم كان ذلك ؟

طلبت الإذن عليه لأشكو إليه خلل إدارته وإهمال مرءوسيه ، فإن لى عملا يدخل فى اختصاصه مضى عليه سنتان ، وكان يكفى لإنجازه يومان ، فأهملنى عند سكرتيره ساعة ثم خرج من مكتبه غير آذن ولا معتذر . فانصرفت خجلان من سوء ما يظن بى كاتم سره ثم عدت إليه يوماً آخر وطلبت إذنه مع الطالبين ، وفيهم كما علمت النائب والصاحب والقريب ، فدخلوا وخرجوا ، ثم دخل قبلى من جاء بعدى ، حتى لم يبق فى شرف الانتظار إلا أنا ورجلان من أصحاب العمل . حينئذ قال سكرتيره : إن البك مشغول بقية الوقت ! فثار فى وجهى الدم ، وطغى فى رأسى الغضب ، فاقتحمت عليه الباب وقلت له من غير اعتذار ولا تحية : يا سيدى البك ! ربما كنت أنا الزائر الوحيد الذى زارك اليوم لعمل من الأعمال التى تجلس لها وتؤجر عليها ، فلم يكن من اللائق بأمانة المنصب أن تحجبنى مرة بعد مرة لتستجيب إلى طلاب الشفاعات والوساطات من ذوى الصداقة والقرابة .

فحملق البك فىّ وقد استشاط وبربر وصاح مَن أنت ومن أذن لك بالدخول ؟ فقلت له : أنا فلان سَرى من سراة البلد ، وثروة من ثروات الأمة ، نشأت فى مهد العُدم ، ثم تعلمت للعمل الحر ، وضربت فى سبيل العيش الكريم من أفق إلى أفق ، حتى أصبح على الناجح مرتزقاً لمئات من الأسر العاملة ، وأصبحت — وأنا لا أزال فى شباب الكهولة — ذا خمسينَ ألف جنيه ورتبة . أما أنت فالكبير الصغير ! كبرك المنصب والمرتب اللذان أدركتهما بمضى المدة ، وصغرك العجز والكسل اللذان كشفاك فى إدارة العمل . إن سلطان الوظيفة

ياسيدى عرَض منفضٌ ومتاع زائل . فإذا شئت أن تعرف أين أنت منى فدع منصبك الحصين وادخل معى فى غمرة الدنيا وزحمة الناس ، ويومئذ نرى أينا يوطأ بالأقدام ، وأينا يرفع على الرءوس !

وهنا رأيت الرجل يكاد يتمزق من الغيظ فأهوى بيده على أزرار الأجراس فصلصلت جميعاً ، وقال لحجابه وسعاته أخرجوا هذا . . . من هنا . فأخرجونى على حال من الهوان لا يصبر عليها إلا رجل حازم أمام موظف أحمق .

فقلت له ونحن نمشى الهوينى فى طريقنا إلى البيت : هون عليك يا صديقى فإن أكثر الموظفين حالهم مع الناس كحال هذا الموظف معك .

* * *

ايها القلم !

لشد ما أتمنى على الله أن يجعلك فى يدى سناناً يخز ، ومعولاً يهدم !

لقد عجزنا يا قلم وعجز اللسان !

محمد محمود باشا

(٩ فبراير سنة ١٩٤٩)

رجلان يربكان الكاتب إذا حاول أن يكتب عنهما رجل لا يستطيع أن يجد ما يقوله فيه ، ورجل لا يستطيع أن يختصر ما يعرفه عنه .

ووصف (الأول) بالرجولة تساهل فى التعبير ، وإطلاق لفظ الرجل على (الآخر) قصور فى اللغة ، فإن من المسلمات فى تاريخ الإنسان أن من نوعه من يعلون حتى يكونوا خيراً من الملائكة ، ومنه من يسفلون حتى يكونوا شرا من البهائم . أولئك هم أصحاب الرسالات لحياتهم للناس ، وهؤلاء هم أصحاب الشهوات لحياتهم لأنفسهم . ولا مراء فى أن الرجل الذى فقدته مصر فى هذه الأيام السود كان من البابة الأولى فى الرجولة تجلت فى خلائقه مزايا الإنسان الرفيع فاتفق على نبله الصديق الحميم والعدو الكاشح وتمثلت فى أفعاله خلال الشريف الحر فاعترف بفضله الوطنى النزيه والأجنبى المنصف . عاش محمد محمود عمراً ثم مات ، كما اشتعل القبس حيناً ثم انطفأ ، فقال قوم هو النور والإشراق ، وقال آخرون

بل هو النار والإحراق. وما أرسل الله من قبلُ حكيما ولا زعيما إلا آمن به بعض وكفر به بعض. وليس الإيمان بالدعوة دليلا على الصدق، ولا الكفران بها دليلا على الكذب

* * *

لا يَعنى «الرسالة» من تاريخ صاحب الهوى الرفيع والنفس الكبيرة محمد محمود إلا دينه وخلقه وأدبه؛ وهو فى هذه الثلاثة بإجماع الكلمة كان مضرب المثل وموضع القدوة. فدينه دين المعتقد عن علم، وخلقه خلق التقى عن عقيدة، وأدبه أدب السرى عن أصالة. وما اجتمعت هذه الصفات فى زعيم حكيم إلا كانت ضمانا لحسن نيته وأمانا من سوء عمله.

أما السياسة فلا تزال فى الشرق العربى كله أثرا للعوامل الأجنبية، فلا تتأثر برأى حزب ولا تتغير بإرادة حكومة. فمن الخطل أن ندخلها فى أسباب الحكم على زعيم أو حاكم مادام يتأثر بها ولا يؤثر فيها. وإذا اعتبرنا السياسة على هذا الوجه السلبي شهوة من شهوات النفس الطموح تصل من طريقها إلى المال أو الجاه أو الحكم، فقد أبى لزعيم الأحرار الدستوريين نبل فطرته وكرم أسرته أن يجعل أى عرَضٍ من هذه الأعراض الدنيا غاية لهذا الطريق.

اجتمعت لمحمد محمود باشا أرستقراطية النسب والمال والعلم والمنصب. فلو أنه كان يندلق على الناس بالبطر والزهو فى الشوارع والمجامع لما كان بِدْعاً من الأمر، ولكنه — برّد الله بالرحمة ثراه — ظل طول حياته يطالع الجمهور ويعالج الأمور ومن دونه حجاب من التصون الكريم لا يسمح له أن يتخذ الشعب إطاراً لصورته ولا مظهراً لعظمته

لم يقل أحد من الناس فى وقت من الأوقات:

هذا محمد محمود يعرض سلطان منصبه على عيون الفقراء ، أو يفرض إعلان موكبه على حناجر الدهماء . أو يرفد ثروته الضخمة بعضوية طنينة فى شركة من الشركات أو فى بنك من البنوك !

ولم يقل أحد من الناس فى مناسبة من المناسبات :

هذه زوج محمد محمود تتمرد على تقاليد الشرق وآداب الإسلام ، فتشهد مع الرجال حفلات النهار وسهرات الليل !

ولم يقل أحد من الناس فى حالة من الحالات :

هذا ابن محمد محمود ينبو على القانون فى الدواوين ، أو يعربد على الناس فى (عماد الدين) ، أو يتنبل باللباس والمركب فى طريقه إلى نادى القمار أو إلى سباق الخيل !

إن بيت آل محمود و بيت آل عبد الرازق هما المثلان الصحيحان فى مصر للأسرة المسلمة الحديثة . ذلك لما تهيأ لهما من وسائل السؤود وشمائل الفتوه ؛ وجماع هذه الوسائل وتلك الشمائل قيامها على أركان من المجد والمال والعلم والشخصية القوية، قلما تجتمع كلها لبيت واحد . والسر كله فى الشخصية الأصيلة التى خلقت من التليد والطريف والشرق والغربى مدنية مستقلة كانت أبلغ حجج الإسلام والشرق على من يقولون بلسان الجهالة والوضاعة إن الإسلام ينافى التمدن و إن الشرق يجافى الحضارة .

ومن هنا كانت حياة الفقيد العظيم بخصائصها المميزة من العزة والعفة والإباء والصدق رسالة خلقية تقوم على الدعوة والقدوة فى فترة من المصلحين الصالحين تفككت فيها الأواصر وتحللت العقد وانماعت النفوس ، وأصبح كل عمل يجوز ، وكل شىء يمكن ، وكل وضع يستقر !

رحم الله محمد محمود ! لقد كان فوق الشهوات والحزازات والحوادث ، فكان عف اليد واللسان والضمير . وكان الناس لندرة هذه الخلال فيهم يحسبونه قد نزع فى ذلك إلى أبناء « أكسفرد » ؛ وما كان الشبه بينه و بينهم إلا فى صفات القوة كصراحة الخلق وصرامة النظام والاعتداد بالنفس والاستقلال فى الرأى وما يستتبع أولئك من المحافظة على السنن الموروث والاكتراث للعرف المتبع وأصول هذه الأخلاق مما ينبت طبيعة فى أقاليم الصعيد ؛ ولكنها تزكو زكاء الكلمة الطيبة إذا غذت أرومتها خصائص الجنس الممتاز وفضائل الدين الصحيح .

فإذا برح بالأمة الحزن عليه فذلك لأنه كان المثل الشاهد على أنها تلد الرجال الكملة إذا نشأتهم على سننها القويمة ، ولأنه كان القدوة الحسنة لمن كان يشك فى نجاح الأخلاق الكريمة .

رحم الله محمد محمود ، وعزى أسرته على رزئه أجمل العزاء ، وعوض أمته من فقده خير العوض !

من وحى الحرب :

الربيع الأحمر

(١٩ فبراير سنة ١٩٤٠)

الربيع الأحمر ! ذاك هو الربيع المقبل كما يتصوره الشاعر !

لا يزال الربيع جنيناً فى بطن الأرض ، وإن الطبيعة لتهيىء لجذوره وبذوره الغذاء المرىء والكساء الوضىء من دماء البشر !

سيولد ولادة الملوك على حشد الجنود وخفق البنود وقصف المدافع وسيدرج فى غلائله الأرجوانية الموشاة على فجوات القنابل وأخاديدها ، فيبذر الحياة فى الموت ، وينشر الجمال على القبح ، وينثر أزهاره الغضة على جثث وقبور ! ويومئذ لا تدرى وأنت ترى غيم الدخان وبرق النيران ، وتسمع صفير الرصاص ورعد القذائف ، أنحن فى ربيع إبريل أم فى شتاء يناير ؟

على أن الشتاء كان على الناس سلاماً وبركة ! خمدت على جليده لظى الحرب، وجمدت فى ثلوجه مخالب الموت ، واستطاع بفضله الهر الفنلندى الضئيل أن ينشب أظفاره فى حشا الدب الروسى الهائل ؛ ولكن الربيع الذى جعله الله نشورا للحياة ومعاداً للشباب ومبعثا للحب ، سيعين لؤم الإنسان بدفء نسيمه وصفاء جوه ، على أن يجعل الأرض لنفسه مجزرة ومقبرة !

* * *

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع الذى لا يخلقه الله وإنما يخلقه الإنسان ! سيخلقه من الذهب واللهب والدم ، فيجعل من الجداول خنادق ومن الأغصان بنادق ومن الأدواح مدافع ، وإذن تصبح الأعشاش الناعمة المغردة

المطارة مثابة بؤس ومناحة شباب ومستودع غاز !

سيعود ربيع الله الأخضرُ بطيوره وزهوره ونوره وسروره إلى الجنة ، وسيستعير الإنسان مادة ربيعه الدامى من جهنم ، فينبت فى كل بقعة من بقاع الأرض آجام من شجر الزقوم الباسق الألفً ، تَئزُّ فى آفاقها الطوائر ، وتعج فى أجوافها المدافع ، وتدب فى مدارجها الدبابات ، وتهب فى مجاريها السموم ، وتردّد فيها أناشيد السلام وأغاريد الغزل أنات وصرخات تذوب لهولها الهائل قلوب الشياطين !

تبصّروا أيها السادرون من ساسة الشعوب ! أهذا هو الربيع الريان الذى جعله الله جدة للحياة ومتعة للحى ، أم هو الخريف الميت أحرقته الحرب باللهب وكفنته بالنجيع ، وأخــذت عواصفها الرُّعن تــكسح الأرواح الساقطة قبل الأوان لتقذف بها فى هوَى العدم ؟ لم تستعجلون أمر الله ، وتستقدمون يوم القارعة ، وتحاولون أن تدكوا الأرض ، وتشقوا السماء ، وتدَعوا الــكون الذى عمرته القرون وحضّرته الأمم كمعبد (داجون) أنقاضاً على شمشون وأعدائه ؟

هيهاتَ أن تصيخ اليوم لنداء السلم أذن ! لقد جمح الهوى بالعقل جموح الفرس الشموس ، فلا هو يسمع الصوت المهيب ، ولا هو يطيع اللجام الــكابح !

تلك مشيئة الله ، وما تشاءون إلا أن يشاء . ولعله ، عزت حكمته ، يريد من هذه القيامة العاجلة أن يحيي الناسَ حياة أخرى على نمط من الهداية جديد .

* * *

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع الخلاق الذى يهز الأرض هزاً فتربو وتنبت ! سيهزها هز العافية ليسقط الذاوى وينتعش الهامد والحرب تشذيب لغرس الله تقوى عليه الغصون ويزكو بعده الثمر وآفة الحرب أنها تودى

بالصالح للحياة وتبقى على الصالح للموت ؛ ولكنها كالسيل الأتىّ يجرف تياره الجنىّ واليابس ، ويغرق طغيانه العامر والغامر فإذا انقطعت روافده وجفت مجاريه عادت الأرض به أخصب تربة وأوفر غلة

مرحباً بالحرب إذا لم يكن من خوض غمارها بد ! إنها تقطع الفضول وتنفى الخبث وتذيب الغش وتذهب الوهن ولعلنا أحوج الأمم إلى طهور الحرب يرحض عنا رخاوة الذلة واستكانة الرق ! فقد غبرت على وجوهنا قرون من التبعية المستسلمة لو مرت على الضوارى لطمست فى جباهها معارف الجرأة ، وأماتت فى نفوسها معانى الافتراس كنا نعيش فى ظلال المتبوع عيش الأمان والغفلة ، لا نعرف الحدود إلا على الورق ، ولا نشهد الحروب إلا فى السينما ، ولا ندرك معنى الدفاع عن النفس فى وجود الحامى إلا كما تدركه الزوجة المرفهة فى وجود زوجها ، والولد المدلّل فى حضرة أبيه ؛ حتى فشا فينا الجبن ، وغلب علينا التواكل ، وقعد بنا الرضا فتركنا ثروتنا للغريب ، ووكلنا حمايتنا للحليف ، وفرغنا للتنافس فى الهزل ، والتراشق بالتهم ، والتسابق إلى النيابة أو الحكم من غير كفاية ولا غاية !

* * *

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع الجبار الذى يأكل غثاء الخريف وحطام الشتاء ليحيلها فى جوفه النارى غذاء لشجره ونماء لثمره !

هو وحده الذى يستطيع أن يقتطع الحطب ، ويقتلع العُليق ، ويُنبت على الجذور البالية خِلفة نامية زاكية تهيىء الروض الهامد للنضارة والطهارة والإنتاج والبركة .

إن روضنا ياربيع هشيم وخشب ! فأحيه بالماء أو بالدم ، وعالجه بالغذاء أو بالسم ، فقد استعصى ياربيع علاجه على النيل . ولا بد أن يضحّى بجيل فى سبيل جيل !

من بريد الرسالة

(٢٦ فبراير سنة ١٩٣٩)

على غير انتظار ولا توقع وجدت اليوم فى بريد الرسالة كتاباً من السيدة « حياة » والذين كانوا يقرأون جريدة (الليبرتيه) على عهد ليون كاسترو ، أو مجلة (الرسالة) فى عامها الأول ، لا يزالون يذكرون ولا شك هذا الاسم الجميل ، وذلك الأسلوب الساحر ، وتلك القريحة النّسوية الصافية التى تخلق من الشعر والمنطق صوراً من الفكر الرصين البارع .

ذلك الكتاب كذينك الكتابين[1] وردى الغلاف أنيق الخط مصرى الروح فرنسى اللغة ؛ ولكنه يختلف عنهما بمعان من المحافظة والاعتدال لعلهما رجْع[2] المبالغة والإسراف فى حياة المرأة المصرية الحديثة

لا أحب أن أفقدكَ شيئاً من جمال هذا الكتاب بتلخيصه أو اقتضابه ، فإنه فى ذاته وحدة من البيان الصريح والقول الشارح لا تقبل توطئة ولا تجزئة . فأنا أترجمه إليك ترجمة لا تخالف الأصل إلا فى اللفظ . أما تأليف الجملة ، وتنسيق الفكرة ، وتلوين الصورة ، فذلك كله لفن الكاتبة . وإذا علمت أن السيدة « حياة » إنما تكتب بروح عربية وطبيعة مصرية ، سهل عليك أن تدرك سر هذا الائتلاف العجيب بين العربية والفرنسية فى قلمها المبدع

قالت :

---

(١) تحدثنا عنهما ونشرنا شيئاً منهما فى العددين العاشر والحادى عشر من الرسالة .

(٢) الرجع : رد الفعل .

أستاذى العزيز

ما زلت أوثر أن أكتب إليك بالفرنسية على الرغم من بلوغى فى البيان العربى بفضل الرسالة مكانة لا بأس بها وسبب هذا الإيثار أن المرء يميل بطبعه إلى جهة القدرة لا إلى جهة العجز، ويؤثر بغريزته جانب الكمال على جانب النقص ولغتى العربيـة لا تزال عاجزة عن رياضة هذا القلم فى يدى، فإذا كتبت بها إليك أهملتَ ما أكتب فتسىء إلىّ، أو أعملت فيه قلمك فتزوِّره علىّ وأنا كأكثر النساء مستكبرة أنوفة، فلا أحب أن أكونَ من الرجل فى موضع الإهمال أو المعونة.

أكتب إليك فى صباح ليلة ساهرة ثائرة تقسمت مشاهدها العجيبة خواطرى ومشاعرى، فكأنى لم أشهد قبلها ليـــلة! والحق أن ليلة (مبرة محمد على)[1] فى هذا العام كانت بِدْعًا فى نظامها وبرنامجها والاحتفال بها والإقبال عليها والديمقراطية فيها

لقد كان قصر المعرض بالجزيرة معرضاً حقيقياً لمجتمعنا الحديث . فالأميرات والعقيلات والآنسات والممثلات يصاحبهن أو يراقصهن أو يجاورهن الأمراء والكبراء والموظفون ورجال الفن؛ وكلهم على النمط الغربي الرفيع فى أناقة الزى ورشاقة الحركة وأسلوب التحية ومراعاة الرسوم وإجادة الرقص، حتى خيل إلى أن الحفلة فى (الجران باليه) بباريس لا فى السراى الكبرى بالقاهرة.

كنت أتنقل أنا وزوجي من مقعد إلى مقعد، ومن مشهد إلى مشهد، فى مسرح اللهو، وفى حَلبة الرقص، وفى المقصف، وفى (القهوة البلدية)، فأجد أخلاطاً من الناس يشتركون فى المظهر، ولكنك تستطيع أن ترجعهم إلى بيئاتهم المختلفة من طريق الهندام ولهجة الكلام واختلاف الوضع. يسهل

---

(١) مؤسسة صحية خيرية تقوم على تمويلها بعض الأميرات بالتبرعات.

ذلك التميز فى الرجال ويصعب كل الصعوبة فى النساء ؛ لأن المرأة بفضل السينما والرياضة استطاعت أن تشأى[1] الرجل فى مضمار المدنية الغربية ، فهى فى إتقان رينتها وانسجام سمتها لا تختلف عن كوا كب هوليود . أما الرجل فبطىء التطور عصىّ الطبع لا يغشى أمثال هذه الحفلات إلا مسوقاً بإرادة زوجته أو ابنته

لعلك تذكر أنى كتبت إليك منذ خمس سنوات كتاباً قلت فيه عن حرية المرأة إنها مسألة لا تتعلق إلا بنا ، ولا يكون الحكم فيها إلا لنا . وما دخول الرجل فيها إلا أثر من اعتقاده القديم أن فى يده زمام هذا الجنس المنكوب يرخيه ويشده على هواه والأمر لا يخرج عن كونه نظاماً طبيعياً يجرى على سنة الحياة من سيطرة القوة على الضعف ، وطغيان الأثرة الباغية على العدل الذليل فحرية المرأة كحرية الأمة ، سبيلهما الفعل وحجتهما القوة ؛ أما الدفاع بالقول والإقناع بالحق فأصوات مبهمة كزفيف الريح المحبوسة فى مخارم الجبل لا تدل على الطريق ولا تساعد على الفرج .

قلت ذلك وما كان يهجس فى صدرى أن المرأة فى هذه المدة القصيرة تستطيع أن تنزع من الرجل قيادتها وحريتها ثم تغلبه على إرادته وكرامته فتروضه هذه الرياضة وتخضعه هذا الخضوع !

لقد كنت أرى المرأة فى هذه الليلة تراقص الغريب وتضاحك الكأس ، وزوجها أو أبوها يهيىء لها فرصة المعرفة ويسعى لها بوسائل اللذة ، فأجدنى أنا داعية الحرية النسوية بالأمس ، أشد الناس ضيقاً بها وسخطاً عليها اليوم ؛ لأن هذه الحرية — بالقياس إلى الحرية التى كنا ننعم بها وندعو إليها — إباحية وفوضى وذلك فى الحق علة ما نرى من التنافر بين الفتى والفتاة ، فقد

---

(١) تشأاه : تسبقه .

كان الظن أن يزول بالتعلم ما بينهما من تنافر العلم والجهل ، فأصبح هذا التنافر معززاً بتنافر الحشمة والتهتك . وما دام التلاؤم مفقوداً بين الجنسين إما لتقدم الرجل على المرأة فى العلم ، و إما لتقدمها هى عليه فى المدنية ، فهيهات أن تنفرج أزمة الزواج أو تستقيم حال الأسرة .

كانت هذه الحفلة فى السنين الخوالى مظهراً للحرية القصد والبر الخالص ، فما زالت عوامل التقليد والتجديد تلح على مزايا الأنوثة وخصائص الجنس حتى أصبحت معرضاً للجمال والدلال والزينة . وذلك بالطبع سر نجاحها ورباحها ؛ وهو مغنم لغايتها الشريفة على أى حال .

إنى ألمح على المرأة فى نادى السيدات وفى بعض الحفلات نزوعاً إلى تعدى الحدود التى جعلها الله بينها و بين الرجل ، فإذا لم نعالجه بالفطام والكبح أعضل الأمر وفسد المجتمع .

ولعلى ياسيدى أشير فى (الرسالة) إلى مواطن الداء الحين بعد الحين ليتسنى لأرباب القلم وصفه ، ويسهل على أقطاب الحكم علاجه .

أدام الله عليك التوفيق وأعانك بالسداد على مواصلة الجهاد فى تبليغ الرسالة . (حياة)

* * *

هذا كتابك ياسيدتى قرأته وترجمته ونشرته ، وسأعود إليه بالتعليق والتحقيق فى فرصة أخرى .

محمد الزعيم

(٤ مارس سنة ١٩٤٠)

وُلدت سنتنا الهجرية الجديدة وا أسفاه فى هذه الأيام التى اختبل فيها إنسان الغرب فزلزل جوانب الأرض على نفسه ، وأبكم فى فمه حجة العقل ووحى الضمير ، فلا يتكلم إلا بلسان النار ، ولا يصول إلا ببأس الحديد وراحت المنايا الرواعد تدكدك المدن والناس فى فجوات القنابل ، فلا ترى اليوم فى بلاد الحرب غير مقبور أو منتظر ، ولا فى بلاد الحيدة غير مذعور أو حَذِر . ومفزَع الشعوب فى غشية هذه الخطوب الزعماء والقادة . فليت شعرى إلى من يفزع العرب والمسلمون من هول هذه الساعة ؟ لم يُتح الله لهم بعد محمد وخلفائه زعيماً تجتمع عليه القلوب وترجع إليه الأمور فى أقطارهم البعيدة ووجوههم المختلفة ؛ وإنما ابتلاهم بالانقسام والفرقة حين ضلوا الطريق ؛ فكان فى كل قطعة من الوطن الأكبر سرير وأمير ، وتوزعت زعامة محمد فى كل جيل وفى كل قبيل بين عشرات من الرجال العجاف ، فكانت كالشعلة العظيمة الوهاجة تقطعت أقباساً كشموع الأطفال لا تقوى على نَسَم الريح ولا تظهر فى حلك الليل !

* * *

تعالوا يا زعماء اليوم عانين خاشعين ألق عليكم درساً من زعامة محمد ! إن فيكم زعماء أحزاب وليس فيكم زعيم أمة . أما هو فكان زعيم الإنسانية جمعاء. ولقد بلغتم مكان الزعامة الإقليمية عن طريق الحزبية أو الثروة أو القوة ، ثم لم تستطيعوا أن تنسوا ضعف القمىء الصغير الذى ارتفع على كواهل غيره ؛

أما هو فقد بلغ الزعامة العالمية عن طريق الألم والفقر والغربة والجهاد ؛ ثم جعل فى عشر سنين من الرعاة الجفاة المشتتين على رمال القفر أمةً متماسكة الأجزاء ، متحدة الأهواء ، متساندة القوى ، متجانسة الطباع ، بلَّغت رسالة الله وحكمت عامر الأرض ، ومدنت أكثر العالم .

إنكم تكونون قبل الزعامة ناساً كالناس ، ثم تصبحون بعدها آلهة كالآلهة . تنكرون الخاصة ، وتزدرون العامة ؛ ثم تمتازون فتدخلون بفضل المبادىء المزورة والمناصب المسخَّرة فى دنيا النبلاء والأغنياء وماذا بعد هذا ؟ ! أما هو فقد ملك الحجاز واليمن ، وجبى الجزيرة كلها وما داناها من العراق والشام ، وظل ينام على فراش من أدَم حشوه ليف ، ويبيت هو وأهله الليالى طاوين لا يجدون عَشاء ، ويمكثون الشهر لا يستوقدون ناراً ، إن هو إلا التمر والماء ؛ ويلبس الكساء الخشن والبرُد الغليظ ويقسِّم على الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب ، فإذا أقبل على أصحابه فقاموا إجلالا له قال لهم : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً . إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » وكان ذات مرة فى سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل : علىّ ذبحها ، وقال ثان : علىّ سلخها ، وقال ثالث : عَلَىَّ طبخها فقال الرسول صلوات الله عليه : وعَلَىَّ جمع الحطب فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل فقال علمت أنكم تكفوننى إياه ولكنى أكره أن أتميز عليكم !

ولما استعز الله بقاسم الفىء وزعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله !

إنكم حينما تتزعمون لا تفكرون إلا فى مثوبة الصديق وعقوبة العدو ؛

ثم لاتخرج أعمالكم وآمالكم عن دائرة الحزبية الصغيرة الحقيرة ؛ فالمنفعة تقاس بمقياس الحزب ، والسياسة تتلون بلون المنفعة . أما هو فكان يعادى فى الله و يصادق فى الله . اشتط فى أذاه المشركون فى مكة والمنافقون فى المدينة ، فلما أمكنه الله منهم بسط عليهم جناح عفوه ، وقال لقريش يوم الفتح : يا معشر قريش ! ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ! أخ كريم وابن أخ كريم ! قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم كانت سياسته كنور الله لاتعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن ؛ إنما هى سر الخالق العظيم استعلن فى سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم ، ثم دوّى فى غياهب الآفاق ومجاهل الأبد ليكون الشعاع الهادى لكل ضال ، والنداء الموقظ لكل غافل .

إنكم تسيِّرون الجنود إلى الخنادق وتبيتون على حشايا الديباج ، وترسلون العمال إلى المهالك وتظلون فى أبراج العاج ؛ أما هو فكان يقاتل مع الجندى حتى يدمَى ، و يعمل مع العامل حتى ينصب . وكان صحبه إذا احتدم البأس واحمرت الحدق اتقوا به فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه !

ذلك محمد يازعماء اليوم وهؤلاء أنتم ! فهل تحسون بينكم و بينه صلة ، أو تجدون بين سياستكم وسياسته مشابهة ؟

لا تقولوا إنه الوحى ، فما كانت حياة الرسول كلها ولا سياسته كلها من هُدى الوحى ؛ ولكن قولوا إنها الرجولة الكاملة والخُلق العظيم والعبقرية الفذة والشخصية القوية . ووصف شخصية الرسول بالقوة لا يدل عَلَى شىء ، لأن هذه القوة لم تظهر فى أحد قبله ولا بعده حتى يقوم بها وصف . وما ظنكم بشخصية تُخضع اليتيم العديم الزارى على الآلهة والسادة الرؤوسَ الطاغية والنفوس العاتية

والقلوب الغلاظ ، فيسمتُون سَمتَهُ فى الخلال ، وينهجون نهجه فى العيش ، ويأخذون أخْذَهُ فى المعاملة ، ويجتمعون على حبه وطاعته وتفديته إجماعاً لا يخرقه إلا الكفر بالله . فأقواله سنن تتبع ، وأعماله عهود تحفظ ، وآراؤه أوامر تطاع ، وأحكامه أقضية تنفّذ . فعليكم يازعماءنا بسيرة محمد وسياسة محمد ؛ فلعل فيكم من تدركه نفحة من نفحاته القدسية فيجدد ما رثّ من دعوته ، ويجمع ما شتّ من وحدته ، ويصلح ما فسد من أمته ! «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها » .

الظلام ! الظلام !

باسم الله تخطو الرسالة إلى عامها العاشر ، و بغير اسم الله نور السموات والأرض لا يهتدى فى هذا الظلام الحالك سارٍ ولا سائر . والظلام فى هذا الكوكب طبيعة أصيلة ، فأناره الله بالشمس والقمر والدين ، وأنرناه نحن بالزيت والكهرباء والعلم ، حتى أوشك أن ينجاب الحلك الغاشى عن آفاقه وأخلاقه ولكن سلائل الطين لا تستضىء بصائرهم وسرائرهم بغير الدين ، فإذا أطفأوه فى قلوبهم تنفسوا الظلام فإذا الدنيا ضلال وجهل ، و إذا العالم دمار وهلك ! وتلك هى الحال التى يكابدها الناس اليوم : ظلام فى بلاد الأرض ، وظلام فى نفوس الناس ، وظلام فى وجوه المستقبل ، فمن يخرج يده لا يكد يراها . ومن يتعلق بسبب من أمله انقطع به ! ومن ينظر فى صفحة الغد عميت عليه ! ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور !

* * *

الظلام ! الظلام ! الظلام ! ذلك هتاف الأمان ودعاء السلامة فى كل أمة من أمم الشرق والغرب اليوم ! فليت شعرى هل تأله الشر وتحكم الشيطان وصدقت المانوية[1] !

---

(١) المانوية مذهب مانى ، وهو رجل ولد فى فارس حوالى سنة ٢٧٤ م ، وكان يقول إن العالم تتولاه قوتان متضادتان : قوة من طبيعتها الخير وهى الله أو الروح أو النور ، وقوة من طبيعتها الشر ، وهى الشيطان أو المادة أو الظلام ، قال المتنبى :

وكم لظلام الليل عندى من يد … تخبر أن المانوية تكذب

غشينا ظلام الغرب ولفّنا ليله الأليَل ، فكأنما انطفأت فى شرقنا عين الشمس !
وما كان الغرب منذ دحا الله الأرض إلا مبعث ظلمة وما كان الشرق منذ أوقد الله الشمس إلا مطلع نور فإذا دجت الآفاق واستسّرت المعالم كان معنى ذلك أن الشرق قد انكفأ فلم يرسل شمسه ولم يبلغ رسالته !

والحق أن منازل الوحى من الطور والجليل وحراء قد أصبحت ترسل أمواج النور الإلهية لغير قابل كان لها من نفوس الأنبياء أجهزة من صنع الله تقبلها وتنشرها وتهدى بها وتدعو إليها ، فلما ختمت النبوة وانقطع الوحى ، ورث الخلفاء والعلماء رسالة الله فكانوا كوراث الملك أو المال ، منهم القاعد المضيع ، ومنهم المجاهد الكاسب ولو شاء ربك أن يدرك النصرَ أولياؤه ، ويطّبق الأرض دينُه ، لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلكَ خلقهم !

لا تزال منازل الوحى ترسل الأمواج السماوية بالهدى ودين الحق ، ولكن الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء حرم الناس نعمة القبول فاستأسدت فيهم الغرائز ، وأسرفت عليهم المطامع ، وتفرقت بهم المذاهب ، وذاقوا من فساد النظام وطغيان الحكام ما لم يذقه الحيوان الأدنى من القتل والجوع والجور والبؤس والفوضى

وكان الظن بالأزهر الذى قام للدين وعاش بالدين ، أن يكون لأمواج الوحى الخالد محطة استقبال وإذاعة ، ولكنه انقطع عن ركب الحياة فخضع لعوادى الدهر القاهر ، خضوع القلعة المحصورة للمغير القادر !

على أن هذه الحرب العالمية كما قلنا القيامة الصغرى ، ومن الحتم أن سيكون بعد القيامة الخلق الجديد والحياة الفضلى والواقع فى الظن أن الأزهر

يمهد لهذا الانبعاث ، ويهيء لهذه الحياة وما هذه الروح التي دبت في (جماعة كبار العلماء) آخر العام المنصرم إلا نفحات الربيع الأولى يرسلها النيروز لتجرى الماء في الأعواد ، وتوقظ الحياة في البراعم

* * *

لعلك تسأل نفسك ما بال الرسالة لا تنفك تذكر الأزهر في معرض الإصلاح والنهضة ، وما الأزهر في رأى أكثر الناس إلا متحف آثار ومقبرة أفكار وطلل مذاهب ؟

وجوابي عن هذا السؤال أن الشرق لا ينهض إلا بالدين ، وأن الدين لا ينهض إلا بالأزهر . ولست أقصد بالدين هذا الدينَ الذي يعتقده المسلم المعاصر ، ولا بالأزهر هذا الأزهرَ الذي تراه في نظامه الحاضر ، إنما الدين الذي أعنيه هو دين القرن الأول ، والأزهر الذي أبغيه هو أزهر القرن الرابع عشر أريد الدين النقي القوي الذي فتح الممالك ، ومدّن الأمم ، وكرّم الإنسان ، واحترم العقل ، وفرض المعرفة أما هـذا الدين الذي يقول بعبادة الأولياء ، وتمجيد القبور ، وتقديس القـديم ، وإيثار التواكل ، ومخادعة الله بالحيـل ، ومهاواة القادة بالنفاق ، فليس دين الله ؛ إنما هو دين هؤلاء الأوزاع والأتباع الذين ضلوا وذلوا ، فمزقتهم الأحداث ، وأكلتهم المطامع ، وأصبحوا نهباً تتقاتل عليه الدول و يعتدل بتقسيمه التوازن .

وأريد الأزهر الجـديد الذي يضع لثقافة الشعب أساساً من الدين ، يقوى بقوة الله ، ويثبت بثبوت الحق ، ويدوم بدوام الدنيا ، ثم يقيم عليه من القواعد والنظم والأوضاع ما يقره العقل ، ويؤيده العلم ، ويتقبله العصر ، وتقتضيه الحاجة أما هذا الأزهر الذي يَعلك الـكلام ، ويجترّ الماضي ، ويقتات

القُتات ، ويبطل الاجتهاد ، ويعطل العقـــل ، فهو مسجد من المساجد الأثرية لا أقل ولا أكثر .

* * *

أما بعد فقد عوّدتك يا قارئى العزيز أن أتحدث إليك فى مطلع كل عام عن بلاء الرسالة فى الجهاد وعملها فى المستقبل . وإنك لتعلم أن هـذا الظلام الشامل الـكثيف الذى ضرب على أبواب الغد حجباً فوق حجب ، يجعل مثل هذا الحديث أقرب إلى لغو الـكلام وعبث الأمانى . فنسأل الله أن يتولانا فى هذه الزلزلة العامة برحمته وفضله !

فقهاء بيزنطة

(أول ابريل سنه ١٩٤٠)

فقهاء بيزنطة هم الذين كانوا يجادلون فى البيضة والدجاجة : أهذى أصل تلك ، أم تلك أصل هذى ، بينما كان محمد الفاتح يرسل الصواعق دراكا على أسوار القسطنطينية ، فلا يخرجهم من شدة الخلاف وحِدَّة الجدل ما فوقهم من حمم المنايا ، ولا ماحولهم من صرخات الفزع !

وفقهاء بيزنطة هم الذين يجادلون اليوم فى محراب المسجد بعد ألف ومائتى عام . أهو سنة فيبقى ، أم هو بدعة فيزول ؟ وفى محمل [1] شجرة الدر : أهو موافق للشرع فيسير ، أم هو مخالف له فيقف ! يجادلون فى هذا وفى ذاك بين أعمدة الجرائد والمساجد ، و يسرفون فى الجدال حتى يتشعب الخلاف و يتمادى ، و يتقسم الرأى و يتعادى ، فيكون لكل شيخ شيعة ، ولكل شيعة عصبية جاهلة تمزق ما وصل الدين به القلوب من وشائج الإخاء والمودة .

نعم يجادل فقهاء بيزنطة اليوم فى المحراب والمحمل ، ومن قبل كانوا يجادلون فى زر العمامة أيُبتر أم يُضفى ، وفى شعر الذقن أيُحفى أم يُعفى ، وفى قبر الميت أيسوى بالأرض أم يُقام ؟ حتى أدخلوا فى روع العامة من طول ما شغلوهم بهذه التوافه أن الدين هو هذا وليس غير هذا . فلو تسنى لك أن تكشف عن عقيدة الإسلام فى ذهن العامى أو شبهه لما رأيت إلا صورة مشوهة من رسوم العبادات

---

(١) المحمل : هو الذى تسيره الحكومة المصرية كل عام إلى مكة حاملا كسوة البيت الحرام وهو من التقاليد الموروثة عن « شجرة الدر »

وأوضاع العادات وألوان الأدعية . أما الإسلام الذى وضع الدساتير الخالدة لسعادة الفرد والأسرة والأمة والإنسانية فى كل زمان وفى كل مكان ، فذلك معنى لم يجر فى شعوره ولم يدخل فى علمه . والعوام وأشباه العوام هم جملة الأمة الإسلامية اليوم فما تسمعه من هذا تسمعه من ذاك ، وما تراه هنا لابد أن تراه هناك . وعلة هذه الجهالة الفاشية هى طريقة أهل الدين فى تعلمه وتعليمه ونشره ، فهم يقفون فى تحقيقه عند النقل ، ويقتصرون فى تطبيقه على الشكل ، ويكتفون فى نشره بهذه المظاهر الصوفية الباطلة ؛ فكان من جرائر ذلك عليهم أن قصرت مداركهم عن مداه ، وبان على القدر الذى شدَوه منه الضيق والضحل والجمود ، ووهم الناس أن ما عندهم هو الدين كله فزهدوا فيه ونفروا منه .

* * *

أى والله ! لا يزال فقهاء بيزنطة يفرقون بين الناس بصدعات الرأى[1] والهوى فى المحراب والمحمل ، وفيما هو أدنى من المحراب والمحمل ، وهم يعلمون أن الأديان البشرية التى وضعها الطغاة تحدّياً لله وتهجماً على دينه ، تحاول بقوة الجيش وحجة المدفع ودعاية المذياع أن تخفت ذكر الله فى كل أرض ، وتطفىء نوره فى كل سماء . وهذه المذاهب الأرضية إنما تجادل خصومها فيما تزعمه لنفسها من قتل البؤس ومحو الفروق ونشر العدالة ، لا فيما تتخذها لشعائرها من بِنَى ، أو تبتدعه لمظاهرها من شكول .

ثم جعلوا غاية الدين أن يتزيوا بالورع ، ويتفقهوا فى علومه بتشقيق الجمل وتوليد الألفاظ وتعديد الفروض ، فإذا زادوا على ذلك شيئاً فهو الوعظ الذى

---

(١) الصدعة : التفرق . تقول : « رأيت بينهم صدعات » أى تفرقا .

يميت الطموح ويخمد العزيمة ويحقر الدنيا ويهيء النفوس المثقفة التي أعوزها النور الهادي والصوت المهيب لأن تصغى لما يتقوله المبشرون على الإسلام من الأباطيل ويزورونه عليه من الشبه

* * *

ليس من البر بالدين يا ورثة الأنبياء أن تخذلوا دعوة الله لتنصروا دعوة الإنسان

إن الدعوات السياسية التي تتخذ شعار الاصلاح أو تلبس مسوح الدين تسلك إلى النفوس المؤمنة المطمئنة سبل الغرور والغي في غفوة من العقل أو سورة من الجهالة ، فتزعزع إيمانها بالشكوك ، وتذهب اطمئنانها بالفتون فماذا أعددتم لحماية هذه النفوس الغريرة الغضة من وساوس الفتنة وهواجس الجهل ؟ إنني ألقى هؤلاء النشء في كل يوم ، وأحدثهم في كل لقية ، وأكشفهم في كل حديث ، فلا أجد عندهم من الإسلام إلا ما كان عند نصارى القرون الوسطى منه . ثم لا تسمع منهم إلا غماغم من الألفاظ المنكورة المكرورة عن الزواج والطلاق وحرية الفكر ومجافاة التمدن فإذا أخذت تقرر لهؤلاء كيف كان الإسلام بتوحيده بين الدين والدنيا علاجاً لأدواء المجتمع ونظاماً لفوضى الطبيعة ، وتدلل على أن ميزة الاسلام التي تفرد بها هي أنه يساير التطور ويطاول الزمن فلا يمكن أن تكون فيه مناقضة للمدنية الصحيحة ولا معارضة للتقدم الحق ، سألوك دهشين . وأين نجد بيان هذا ؟

والمعضلة التي لم نجد لها إلى اليوم حلاً هي إجابتهم عن هذا السؤال : وأين نجد بيان هذا ؟ الواقع الذي يكسف البصر ويرمض الفؤاد أنك لا تجد في مكتبة الدين الاسلامي على ضخامتها وسعتها كتاباً واحداً يشرح للناس عبقرية هذا الدين وفلسفة تشريعه ووجوه إصلاحه وأسباب خلوده على

ضوء العلم الكاشف ونظام التأليف الحديث . وما أظن دينا من الأديان قد نكب فى نفسه وفى أهله بمثل هذه النكبة !

فلو أن الله وفق (جماعة كبار العلماء)[1] فألفوا هذا الكتاب بدلا من تأليفهم فى (المياه التى يجوز بها التطهير) مثلا لدفعوا عن أنفسهم معرة الجمود وعن دينهم نقيصة التخلف .

ولكن كبار العلماء لم يدخلوا هذه (الهيئة) إلا ليعظم القدر ويضخم المرتب ، فكيف نجشمهم أن يبطلوا كيد المبشرين بوضع هذا الكتاب ، أو يفصلوا بين المتجادلين المتقاتلين فى المحل والمحراب ؟

---

(١) هى جماعة من كبار الشيوخ فى الأزهر يؤلفها قانون ويديرها نظام ويرأسها الشيخ الأكبر شيخ الجامع الأزهر . ولها شروط للقبول واختصاص فى العمل ليس هنا موضع تفصيله

العقيدة الساذجة

(١٥ ابريل سنة ١٩٤٠)

العقيدة الساذجة هى عقيدة الكثرة الكاثرة من مسلمى اليوم ! وربما كان الأشبه بالحق أن نصفها بشر من السذاجة ؛ فإن أيلولة الدين فى نفوس أهله إلى هذا القدر العامى من العبادة الشكلية والزهد الكاذب والتفويض الذليل والورع المنافق والتصوف المشرك هى الفساد بعينه . وماذا بعد أن ترى كتاب الله وسنة رسوله يقرآن لالتماس البركة لا لاكتساب الفقه ، ودستور الإسلام وفلسفة وحيه يدرسان لمجرد العلم لا لإرادة العمل ؟

وماذا بعد أن ترى الأحكام والآداب والأنظمة التى أصلحت الأرض ومدنت الخليقة ، تصبح فى الجوامع والمجامع رهبنة وشعبذة لا يستقيم عليها فرد ولا تنتظم بها جماعة ؟

لقد كان من أثر فساد العقيدة فى النفس أن فسدت آثارها فى الناس ؛ فالفقه فى الدين تفيهق وجدل ؛ والصلاح فى الدنيا تبطل وفشل ؛ والعبادة مظاهر آلية لا أثر فيها للروح ولا صلة لها بالقلب ؛ والأخلاق مياسم روائية تنطق بالحق على ذلة الماضى وجهالة السلف ؛ والمعاملة ألاعيب اجتماعية تخدع الله وتزعم لنفسها الرضا والسكينة !

تذكر معنى الزكاة فى دين الله ثم قل لى أين منها ما كان يصنع أحد شيوخ الأزهر وقد كان يملك فى القاهرة شوارع بما عليها من المبانى عن شمال ويمين ؟ لقد حدثوا أنه كان يحمل زكاة ماله كلما حال الحول فى قفة ؛ ثم يعطى

الذهب والفضة بطبقة من الحنطة ؛ ثم يأمر فيأتونه بأحد المساكين الذين يتكففون على حاشية الطريق ، فإذا أدخل عليه قال له :

« هذه زكاتنا يا رجل آثرناك بها ابتغاء مرضاة الله » .

فيدعو المسكين ويهم بأخذ النفقة ؛ ولكن الشيخ قارون يريد أن يخفف عنه ويختار له فيبادره بقوله : « وما تصنع بها يا رجل وليس عندك من تطحن وتعجن وتخبز ؟ أتبيعني إياها بكذا قرشاً ؟ » فيلهج المسكين بالدعاء ، ويبالغ في الحمد والثناء . ثم ينصرف بالقروش وتعود مئات الدنانير المروعة آمنة إلى صدر الخزانة الحنون !

تدبر فكرة الصدقة الجارية في سنة الرسول ثم أخبرني : أمثلها ذلك البناء المربع الذي أقامه أحد القضاة المتقين في وسط شارع حسن الأكبر ، ثم أجرى في قلبه الماء ، وأوقف على رأسه الوز ، ووقف على نفقته المال ، وجعله مورداً للسابلة فكان مزرعة للجراثيم ومصدمة للناس !

تصور حكمة الإنفاق في سبيل الله على قواعد الدين الذي شرع ليضمن للفرد السعادة وللأمة السلامة وللبشرية الألفة ، ثم تعال أنقل إليك ما روته جريدة (الدستور) في يوم الإثنين الماضي عن مراسلها ببغداد :

كان من ضيوف العراق لعامين مضيا الزعيم الشيعي الهندي السردار طاهر زين الدين ، وهو من أنداد أغاخان في الزعامة المقدسة والثروة العريضة فلما زار ضريح الإمام علي رضوان الله وسلامه عليه ، نشأ في نفسه أن يقيم للخليفة الراشد ضريحاً يكون مضرب الأمثال على تعاقب الأجيال في نفاسة المادة وبراعة الصنعة وضخامة النفقة . ولم يكد يرجع إلى الهند حتى استحضر أمهر الصناع وأقدر الفنانين وتقدم إليهم بما أراد ، ووصل أيديهم بكنوزه العجيبة ، فصنعوا

ضريحاً من الأبنوس سمكه إحدى عشرة قدماً وقطره عشرون ، ثم زخرفوه بروائع النقش الهندى ، وغشوه بخمسة عشر رطلا من صفائح الذهب وبمثلها من سبائك الفضة حتى بلغت تكاليفه اثنين وأربعين مليون جنيه على ماروى المراسل ، أو اثنين وأربعين مليون ربيّة على ما أرجح !

هل قرأت ؟ إثنان وأربعون مليون جنيه كميزانية مصر ، أو اثنان وأربعون مليون ربية كميزانية العراق ، تنفق فى مقصورة تقام على ضريح الإمام الزاهد المجاهد الشهيد على كرم الله وجهه !

فهل تحسب أن هذا المؤمن الساذج قد بلغ بما أنفق مكانة الزلفى من الله وموضع الرضا من إمامه ؟ لا والله ! إن الله الذى يقترض من عباده القرض الحسن ليضاعفه لهم لا يقبل هذا القرض العقيم وإن الإمام الذى كان يطوى الأيام ليطعم على حب الله المسكين واليتيم والأسير ، لا يرضى هذا الاحسان الميت لو كان هذا الغنى الأمي صحيح الفقه فى الدين ، واسع الأفق فى الفكر ، بعيد النظر فى الاصلاح ، لعلم أن علياً كان سيف الاسلام ولسان الدعوة وإمام القضاء ، فكان خير ما يتقرب به إليه أن يعطى حكومة العراق هذه الملايين لتنشىء بها أسطولا جوياً فى بغداد على حب فاتح خيبر ، أو معهداً علمياً فى الكوفة على ذكر صاحب نهج البلاغة

بذلك وشبهه يكون القرض حسناً والإحسان جميلا ياسيدى الزعيم . أما أن تصفح الضريح بالذهب والفضة ، وترصعه باللؤلؤ والجوهر — وفى وطن الإمام الفقيرُ الذى لا يجد القوت ، والمريض الذى لا ينال الدواء ، والجاهل الذى لا يستطيع العلم ، والجندى الذى لا يملك السلاح — فذلك فن من العمل

الباطل لايليق أن يُجترح باسم الدين فى سبيل إمام أمته وقطب أبطاله !

* * *

لقد قرأت فى أنباء اليوم أنهم فضوا وصية المحامى الأمريكى اليهودى « صموئيل أونترماير » منذ أيام فإذا به يوصى بجزء عظيم من تركته الضخمة لبضع جامعات أمريكية . ثم كان نصيب الجامعة العبرية فى القدس منها مائة ألف دولار !

فليت شعرى متى يعلم هذا الذى ينفق دماء الشهداء على ملاهى القصور ، وذاك الذى يبذر أموال الأحياء على شواهد القبور ، أن الحياة من غير إحسان موت ، وأن الإحسان فى غير موضعه إساءة !

فى سبيل الأزهر الجديد

(٢٢ أبريل سنة ١٩٤٠)

من بشائر الأمل فى النهوض ودلائل الثقة بالفوز أن النفوس الشابة مهيأة لدعوة التجديد ورسالة الاصلاح ؛ فهى كالأرض الطيبة تشتمل على مذخور الحياة وموفور البذر ثم لا تنتظر غير الحراث والغيث .

منذ أخذنا على بعض العلماء اشتغالهم بالمراء الباطل والبحث العقيم ، ووقوفهم عند المماحكة فى اللفظ والمعاياة بالاعتراض ، وتركهم أصول الدين تتشجن[1] عليها الأضاليل ، والرسائل تنثال علينا من شباب المراغى فى أقسام الأزهر وكلياته يشايعوننا على الرأى و يسألوننا أن نزيد .

و (شباب المراغى) تعبير لم نضعه ، و إنما وجدناه فى جميع الرسائل التى ألقيت إلينا ، فهو إما إلهام جاء من اتحاد النية ، و إما اتفاق أبرم على إرادة الإصلاح

نعتقد مخلصين أن الأزهر متى استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة ، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل فى أصوله . ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحى وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هى وهو فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه و إدامة ذكره

كذلك نعتقد مخلصين أن رجعة الأزهر إلى ماضيه البعيد خير له وللناس

---

(١) تشجن الشجر : التف .

من جموده على شأنه الحاضر . والرجعية لا يمكن أن تكون فى منطق الطبع سبيلاً إلى التقدم ، ولكنها فى نظام التعليم الأزهرى خرق لهذا القانون لا ينكره العقل . ذلك لأن رجعية الأزهر معناها العودة فى استنباط الدين إلى منابعه الأولى من صريح الكتاب وصحيح السنة ، وفى فقه الأحكام إلى مثل كتابى الأم والرسالة للشافعى ، وفى تعليم النحو إلى كتاب سيبويه وخصائص ابن جنى ، وفى تدريس البلاغة إلى كتب عبد القاهر وأبى هلال . وفائدة هذه الرجعية الخلوص من أمثال كتابىَ (الجمع) و (الهمع) ، وما حشد الأعاجم فى عصور الشروح والحواشى والتقارير مما أفسد الملكات وأفند[1] العقول وصرف الأذهان عن جوهر الدين ولب العربية وسر البلاغة .

* * *

إن الدين الإسلامى ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب وقيام معجزته على البلاغة . فإذا حثر[2] ذوق العربية فى رجاله بما قمش[3] السكاكى والقنرى وملا جلبى من الغثاء والهراء ، تقطعت الأسباب بينهم و بين محمد فضلوا سبيله وجهلوا علمه . فالدين الإسلامى والأدب العربى متلازمان تلازم المعنى واللفظ أو الفكر والأداء . ولا يتسنى لرجل الهداية والإصلاح أن يبلغ دعوة محمد إلا إذا تمكن منهما تمكُّن الجاحظ والزمخشرى ومحمد عبده ورشيد رضا والمراغى . أما المضمضة بالألفاظ الاصطلاحية ، والجمجمة بالجمل المعقدة على أنها هى العلم والأدب ، فتطور إلى العكس لا يجوز أن ينتج إلا ما نحن فيه .

---

(١) أفند العقول : أضعفها .

(٢) من قولهم : حثر اللسان إذا لم يجد طعم الطعام.

(٣) قمش الشيء : جمعه من هنا وهنا .

من الطبيعى أن ينشىء هذا الكلام فى ذهنك هذا السؤال فتلقيه على : إذا كان المراغى أجدر الناس بإصلاح الأزهر كما نعتقد ؛ وكان شباب الأزهر راغبين فى هذا الإصلاح مؤمنين بقدرة شيخهم عليهم كما نرى ؛ فما الذى يعوق هذا الإصلاح ويعارض هذه الرغبة ؟ . والجواب المفصل عن هذا السؤال يقتضى شيئاً من الصراحة لا تحتمله بعض النفوس فيما أظن فإذا وقفنا عند الأسباب الظاهرة المباشرة قلنا إن إصلاح الأزهر لا يمكن أن يتم فى سنتين أو فى أربع ، لأن ملاك هذا الإصلاح منوط بأمرين اثنين : أحدهما إعداد المعلم ، والآخر تأليف الكتاب

فأما إعداد المعلم فيقوم على أن يكون متمكناً فى علوم الدين وصاحب ملكة فى الفقه ، وأن يكون متبحراً فى فنون العربية وصاحب قريحة فى الأدب ، وأن يأخذ بعد هـــذا وهذا من ثقافة الغرب بأوفى نصيب . وهذا الإعداد على هذه الأساس لا يؤتى ثمره قبل عشر سنين إذا أخذوا منذ اليوم يتنخلون ممن تخرجهم أقسام التخصص المختلفة فى كل سنة نوابغ الفقهاء الأدباء ؛ ثم يبعثون بهم إلى جامعات انجلترا وفرنسا وألمانيا ليبلغ كل منهم أقصى الدرجات فى العلم الذى تخصص فيه .

وأما تأليف الكتاب فلا يتيسر إلا بعد إعداد المعلم ، لأنه هو وحده الذى يدرى كيف يؤلفه ويدرّسه . ومتى توفر للأزهر المعلم والكتاب فى ظل هذه الإدارة البصيرة صح لك أن تقول : « إن مصر ظفرت بجامعتها الصحيحة التى تدخل المدنية الغربية فى الإسلام ، وتجلو الحضارة الشرقية للغرب ، وتصفى الدين والأدب من شوائب البدع والشبه والركاكة والعجمة »

ذلك فيما نعتقد ما كان يعنيه الملك « فؤاد » حين قال لأحــــد كبار العلماء . « إن أنجع الوسائل فى إصلاح الأزهر أن يغلق عشر سنين ثم يفتح من جديد » .

وذلك فيما نعتقد أول الأصلاح الأزهرى وآخره . وما دام التعليم الدينى قائماً على براعة المعلم فى حل المعميات وخلق الاعتراضات ، وإمعان الكتاب فى الاستطراد والاستغلاق والحشد ، فهيهات أن يتجدد الأزهر وإن شيد بالمرمر وفرش بالطنافس وأنير بالكهرباء !

الرجل المنتظر

(٢٩ أبريل سنة ١٩٤٠)

بهذه الرجة العظمى[1] تبدد النظام العالمى كله ؛ فكأنما اجتمع اللاعبون بأقدار الأفراد ومصاير الأمم وقالوا لمثل أجرأ العابثين : (بَوِّظ)[2] ! !

وهاهم أولاء يتحكمون فى قِطع اللعب ، فيجمعون ثم يفرقون ، و يبددون ثم ينسقون ، وكل ما ورث الناس أو كسبوا من أديان ودساتير وقوانين وأنظمة وسنن قد أصابه كما يقول النحاة الإلغاء أو التعليق . والواقع أن العالم العربى بأجمعه ليس منه فى هذا اللعبة العالمية لاعب ؛ إنما هو تلك القطع الجامدة التى تقسم و تقدم وتصك ثم تذهب وتجىء بين اللاعبين دواليك حاملة على وجوهها الملس قِيَمها الكتبية المختلفة من (الدش) إلى (البياظة)[3] . فإذا طلبنا أن يكون لنا فى الدَّست حساب وليس فينا حاسب ، أو يعود علينا من وزائه اكتساب وليس منا كاسب ، كان ذلك من خداع النفس بالمحال وتعليلها بالباطل . والمتوقع الذى لا حيلة فيه أن نظل كما نحن لعبة تلعب ، أو نُهبة تنهب ، حتى يبعث الله فينا الرجل الذى ننتظر .

ولست أعنى بالرجل الذى تنتظره الأمة العربية : (المهدىّ) أو (الإمام) أو (المسيح) ، فإن ظهور أولئك أحدهم أو كلهم شرط من أشراط الساعة ،

---

(١) الحرب العالمية الثانية .

(٢) التبويظ كلمة مصرية معناها فى اصطلاح لاعبى (الدومينو) أن تقلب القطع على وجوهها قبل اللعب أو بين الدست والدست ، ثم تجال ويضرب بعضها فى بعض كى لا يكون بينها نظام ولا توافق . والدش والبياظة من أسمائها

(٣) الدش : إثنا عشر ، والبياظة صفر

فانتظار الناس إياه كانتظار الطامع المطول راحة الفوت، أو المريض المشفى سكينة الموت. إنما أعني الرجل الذى ينتظره الناس انتظارهم طلعة الشمس، وتنتظره الأرض انتظارها رجعة الربيع. هو كالشمس لأنه يرسل النور والحرارة: وهو كالربيع لأنه يبعث الحياة والنضارة. وظهوره كطلوع الشمس ورجوع الربيع سنة من سنن الله فى الكون، يجرى بها حكمه كما شاء للعقول الحائرة أن تهتدى، وللقلوب الشتيتة أن تتحد، وللنفوس العليلة أن تصح.

كان هذا الرجل فيما خلا من الدهر يسمى رسولاً، فلما خُتمت الرسالة وانقطع الوحى، كان يظهر فترة بعد فترة فى صورة ملك أو فاتح أو حاكم أو عالم أو مفكر، فيبين ما التبس من معانى الحق، ويجدد ما انطمس من معالم الطريق. وكان نجاحه أو فشله فى التجديد أو فى الإصلاح أثراً من آثار قوته أو ضعفه؛ فهو بين أصحاب السلطان يكون أسرع نجاحاً وأوسع إصلاحاً منه بين أصحاب الفكر. وقلما يأبه الناس لدعاة التجديد بالكلام ما لم ينتشر صداه فى الأرض ويتسع مداه فى الزمن. لأن أصحاب الكلام إذا ملكوا الرأى فلا يملكون التنفيذ، وإذا استطاعوا التشريع فلا يستطيعون الحكم. وقطرة القلم قد يفطن لها الفؤاد اليقظ، ولكن وخزة السيف يثور بها الجسد العليظ وما كانت الوثبات الاجتماعية التى خلقت ناساً غير ناس، وأبدلت نظاماً من نظام، وفصلت تاريخاً من تاريخ، إلا نتيجة لدفع المصلحين المسلطين الذين وضعوا الكتاب فى يد والسيف فى يد، ثم كتبوا دستور الإصلاح بالمداد والدم.

ولهذا الرجل الذى تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه: فمن الآيات الممهدة لظهوره انحلال الأخلاق فلا تماسك فى قول ولا فعل، وتقاطع

القلوب فلا تتواصل فى وطن ولا دين ، واستئثار النفوس فلا تتعفف فى صداقة ولا نسب . وجموح الشهوات فلا تنقدع بلين ولا شدة ، واستبهام المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس ، وانقطاع الأمة عن رَكب الحياة فلا تتحرك قِبلة ولا دِبْرة .

ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه ، ولأمته قبل أسرته ، ولإنسانيته بعد وطنيته . وبهذه الصفة الأخيرة يختلف المصلح القومى عن الرسول ومصداق تلك الآيات أن تموت (أنا) فى لسانه وتحيا فى ضميره ، ويتحد فى ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه ؛ فهو يحس أله لأنه مجتمع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، ويملك قياده لأنه مظهر إرادته. وهو فى سمو نفسه ونزاهة هواه قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض ؛ فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابى لأن فضله أوسع من العصبية ، ولا يقول قولاً أو يعمل عملاً إلا إذا وافق الدين الذى يعتقده ، والمبدأ الذى يؤيده ، والشعب الذى يقوده .

ثم هو فى ألمعية ذهنه ورصانة لبه وصلابة عوده وبعد همته يعظم على الأحداث ، ويعلو على الحوائل ، فلا ينضج رأياً إلا أمضاه ، ولا يرمى غرضاً إلا أصابه ، ولا يروم أمداً إلا أدركه .

هذا الرجل الملهم الموهوب هو الذى ترقب ظهوره كل فرقة ، وترصد نجمه كل أمة . ولقد ظهر أمثاله فى بعض الأمم وهى على شفا الهاوية فأعادوها إلى الحياة وردوها إلى الجادّة . ولا تزال الأمة العربية تحدق النظر الحيران فى الأفق الغائم ترجو أن تنشق الحجب عن نوره . فهل آن يا أرحم الراحمين أوان ظهوره ؟

إن القطعان المهملة تدخل فى عهدة الذئب . وإن القوى المتفرقة تجمع

فى حساب العدو وإن اللآلىء المبددة إذا لم يضمها سلك لا ينتظم منها عقد .
وإن الأمة التى لا تملك يوم الجد والفخار إلا أن تقول : كنت وكنت ، لا يزيد
قدرها على قدر الرماد الذى يقول : كنت فيما مضى جمرة متقدة !

* * *

رباه ! لقد امتد بنا التيه فى مجاهل الأرض إلى قرون ، وفسد فى نفوسنا
الإيمان بالحياة حتى تحول إلى ظنون . فمتى نخرج من التيه يا رباه خروج موسى ،
ونتبوأ من صدر الحياة العاملة مكان محمد ؟ اللهم إنا نسألك الراعى الذى يطرد
الذئب ، والنظام الذى يجمع الحب ، والدليل الذى يحمل المصباح ، والقائد الذى
يرفع العلم ، والأستاذ الذى يعلمنا أن نصنع الإبرة والمدفع ، ونشق المنجم والحقل ،
ونوفق بين الدين والدنيا ، ونوحد بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة . وكل
أولئك يا رباه يجمعهم رجل واحد هو أشبه الناس بالمهدى المنتظر والإمام المرتقب
والمسيح الموعود .

قلت لنفسى ...

قالت لنفسى : عجيبٌ أمر ابن آدم اليوم ! يكاد لا يعطف بعضه على بعض إلا المادة أو السطوة أو الشهرة ! أما ألفة الجنس للجنس ، ومتعة الإنس بالإنس ، وإجابة الحس للحس ، فقد أصبحت في هذا الزمان ، من الصفات الأثرية في الإنسان.

كانوا يقولون إن الناس مع الزمان ، يقبلون متى أقبل ، ويدبرون متى أدبر . فكنا نقول : كان ذلك والزمان كلب يجرى وراء سيده ، مادام الرغيف فى يده أما اليوم فالزمان إنسان حر مفكر لا يتبع إلا المبدأ ، ولا يطيع غير الضمير .

ولكن لواقع وا أسفا علمنا أن الزمان لا يزال كلبا ، وأن المال لا يزال ربا ، وأن حكمة الأولين لا تزال صادقة !

لى صديق من رءوس العراق المرفوعة بالفضل والنبل والكفاية ، كان وهو فى سلطان السيف وعزة القلم مرجع الرأى والهوى والحاجة . فلما نكبته فى نفسه وأهله السياسة العشواء الجموح ، تجرد كالسيف ، وتفرد كالأسد ، وأصبح فإذا الوجوه أقفاء ، والأنصار أعداء ، والأحياء فى دنياه موتى ؛ فلا رأس ينحنى ، ولا لسان يحيى ، ولا يد تصافح . وظل وحده يعالج مرارة الحزن والحرمان والغربة حتى صحا الدهر من غفوته ، ونهض الحظ من كبوته ، فعاد إلى الوزارة ، وعاد الناس إلى الزيارة ، وقال الوجه الذى عبس وأشاح ، واللسان الذى ذم ونم : والله يامولانا لا يعدل حزننا لغيبتك ، إلا فرحنا بأوبتك . . . ثم انعكست الصفات فى الصحف ، فصارت الخيانة أمانة ، والبلادة زكانة ، والعقوبة شهادة .

إشعاع الإيمان

(٦ مايو سنة ١٩٤٠)

لكل إنسان إشعاع ينتشر عليك من روحه كلما جلست إليه أو دنوت منه وهذا الإشعاع يختلف فى القوة والضعف وفى الكثافة واللطف باختلاف الروح فى أولئك كله . ولكن لرجل الدين ورجل الحكم إشعاعاً عرضياً آخر ينبثق عن العالم ما دام متصلاً بالله ، ويصدر عن الحاكم ما دام متصفاً بالسلطان فإذا انقطع ما بين أحدهما و بين القوة السماوية أو الأرضية انقلب كسائر الناس يشع على حسب اقتداره واعتباره .

تدخل على رجل السلطان أو تلقاه فتغشاك منه مهابة تطأطىء من نفسك وتكسر من نخوتك ، فإذا خرجت من مدار هالته ، أو خرج هو من ملكوت سلطانه ، وجدته فى رأيك الحر أشبه بالجذوة الواهجة إذا ما تحولت إلى رماد بارد .

وتجلس إلى رجل الدين أو تراه فتغمرك منه جلالة تثلج صدرك بالرضا وتنقع نفسك بالسكينة ، فإذ قمت عن مجلسه بقى فى بصرك نوره وظل فى بصيرتك هداه . وذلك هو الفرق بين قوة تسيطر بمادة الإنسان وقوة تؤثر بروح الله .

كان هذا الإشعاع الإلهى من رجل الدين فى الأيام الخالية يفعل فعله فى القلوب والأبصار من غير إرشاد ولا وعظ . كان العالم أو شبه العالم إذا دخل قرية أشرقت أرضها بنوره واهتز أهلها لمقدمه ، فيهرعون إليه و يعكفون عليه و يجدون فيه الدليل إلى الله فمصافحته عهد لا ينقض ، و إشارته حكم لا يرد ، ودعوته بركة لاتنقطع وكنا فى ذلك العهد أحداثاً ننظر إلى الشيخ وهو فى بهرة المجلس

كأنه برهان الله ، يعبر وهو صامت ، و يؤثر وهو ساكن ، والقوم من حوله مطرقون مستغرقون قد فرغت قلوبهم من مطامع الدنيا ، وخلت صدورهم من وساوس الشر فإذا ترك القرية خلف بها عهد الله يتصل به ما انقطع من الأسباب ، ويقوى عليه ماوهن من المودة .

ذلك لأن الشيوخ كانوا يومئذ يسمتون سمت الأنبياء فيجعلون دينهم ودنياهم وحدة لا تتجزأ ؛ فإذا قالوا وعظوا ، و إذا فعلوا أرشدوا ، و إذا صمتوا كانوا كأعلام البَر تدل بالاشارة ، أو كمنائر البحر تهدى بالشعاع . فلما تشوف العلماء إلى زهرة العيش ، واستشرفوا لعزة المنصب ، انطفأت من حولهم هالة الورع فأصبحوا كالناس يفعلون فيرُمون بالرياء ، و يقولون فيُتهمون بالكذب .

* * *

تعال أقص عليك حديثاً من أحاديث الواقع لا يزال الناس يروونه كلما حلا لهم أن يوازنوا بين عالم يجرى دينه على لسانه فيذهب فى قوله ، وعالم يجرى دينه فى قلبه فيشع من مسامه :

كان الشيخ عمر فقيهاً من النمط القديم ، قد شغل فكره بالدين ، وقصر جهده على العلم ، ووهب جهوده للأزهر ؛ فهو يقضى النهار وطرفى الليل فى التدريس والمطالعة والصلاة . لايكاد يخرج من درس إلا إلى درس ، ولا يترك ملزمة إلا إلى ملزمة [1] . فإذا جاء يوم الجمعة خرج ماشياً إلى زيارة الأولياء فى المقابر أو فى المساجد ، ثم يعود مع المساء قرير العين مطمئن النفس إلى حجرته الأزهرية ذات الفراش الخشن والضوء الشاحب ليعُد درسه الذى سيلقيه فى فجر السبت

وفى ذات يوم من أيام الجمع وقع فى نفسه أن يصلى الجمعة فى مسجد أبى العلاء ببولاق ، فخرج من الأزهر فى ضحوة النهار وأخذ يسأل عن الطريق إلى ذلك

---

(١) الملزمة فى اصطلاح الأزهريين والوراقين جزء منفصل من الكتاب ، مقداره ثمانى صفحات أو ست عشرة .

المسجد والناس يدلونه أو يضلونه حتى دفعه القدر إلى المكان الرسمى للمومسات بالقرب من ميدان (العتبة الخضراء) !

كان الشيخ يسير فى هذا الشارع العاهر بعمته العظيمة وجبته الفضفاضة كما يسير الجمل فى شارع من شوارع لندن ! كان موضعاً للنظر الساخر وموضوعاً للتنادر البذىء ولكنه كان يمشى ناكس الطرف مشغول الخاطر فلم يفطن لشيء ثم فطن إلى انتقاض وضوئه حين لمست يده بغى من البغايا تريد أن تعبث به ، فاستغفر الله وحوقل ، ثم سأل صبياً من صبيان ذلك الحى أن يدله على مسجد يجدد فيه وضوءه ، فقد كان يكره أن يمشى على غير وضوء ، وكان الصبى خبيث الفطرة فاحش الدعابة فدله على بيت مومس وقال له : هذه ياسيدى دورة مياه الجامع الأحمر !

دخل الشيخ الدار فإذا فتاة كصورة (القارئة) فى متحف (اللُّوفر) بباريس قد اضطجعت على كنبتها الوثيرة وهى نصف عارية فلما رآها أسبل عينيه وغمغم بالاستغفار والدعاء ثم قال لها :

— استرى نفسك يابنيتى فقد قربت الصلاة وأوشك المصلون أن يجيئوا

فنهضت الفتاة وقد اعتراها نوع من الوجوم ينشأ من الدهش والعجب . فوضعت عليها بعض ثيابها وقالت

— ماذا تريد ياسيدى الشيخ ؟

— أريد أن أتوضأ . نادى أباك يقودنى إلى الحنفية ! ألست ابنة خادم المسجد ؟

فأجابت الفتاة وقد أدركت كل شيء :

— بلى ياسيدى أنا ابنته وسأقودك بنفسى إلى الحنفية فافتح عينيك واتبعنى فقد لبست ثيابى .

وأرشدت المومسُ العالم إلى مكان الطهارة وهو مغسلها الوردى الأنيق فوقف أمامه ذاهلاً يرى أداة الزينة ويجد رائحة العطر، ولكنه لم يستريب . ولم يستريب ؟ أما يجوز أن يكون فى القاهرة طراز من المساجد لم يره ؟

وفتح الشيخ الحنفية وتوضأ . وجاءته الفتاة بيشكير أوبر(١) فأمرته على وجهه فسطعه أريجه . ثم أقسمت عليه المرأة ليجلسن على الكنبة ريثما تهيئ له فنجاناً من القهوة . فجلس الشيخ يذكر الله وجلست هى بجانبه تغلى الكنكة وتديم النظر إلى وجهه . فلما تمزز(٢) الفنجان سألته إلى أين يذهب ؟ فقال لها : إلى مسجد السلطان أبى العلاء . فخرجت أمام الدار ونادت عربة من عربات الركوب فأجلست الشيخ فيها ، ثم أعطت الحوذى الأجرة وأمرته أن ينزله أمام الجامع المقصود . ورغبت الفتاة أن تقبل يد الشيخ ، ولكنه أدخلها مسرعاً فى ثوبه وقال : لقد ضاق الوقت يابنيتى عن وضوء جديد أسأل الله لك الهداية والمغفرة .

قالوا : ورجعت المومس إلى دارها وعليها من الشيخ شعاع نفذ إلى ظلام نفسها فأشرقت بالصلاح والخير . ثم لم تُرَ بعد ذلك اليوم إلا فى ثوبها الأسود قاعدةً تخيط أو قائمة تصلى !

(١) أوبر ذووبر : (٢) تمزز الشراب : تمصصه :

مصطفى كامل بعد ثلث قرن

بمناسبة ازاحة الستار عن تمثاله

(٢٠ مايو سنة ١٩٤٠)

كل شيء في مصر ينسى بعد حين كما قال شوقي وليست مصر بدعاً من الأمم في ذلك؛ فإن الرجل أو العمل لا ينطبع ذكره في الذهن إلا إذا كان ندىّ الصوت قوى الأثر. ومصر في عهدها القريب إنما كانت تجرى في خلاء من التاريخ لا يكاد يظهر فيه إلا فقاعة تنفجر أو ومضة تنطفىء

وليس لهذه أو لتلك من الأثر ما يملأ الشعور ويشغل الذاكرة

على أن السائر في الصحراء مهما يضعف وعيه وتشتد غفلته لا بد أن يذكر المنار الذي دله على الطريق، والواحة التي أعادته إلى الحياة. وهيهات أن تعرض القلوب عن ذكر محمد على ومصطفى كامل وسعد زغلول! وإذا جاز للزمن العابث أن ينال من رجل الدولة أو بطل الثورة، فإن مصطفى كاملاً يظل على تراخى الحقب أنوط بالقلب وأعلق بالذاكرة ذلك لأن زعامته كانت أشبه بالنبوة في تهيئة الفطرة وثبات العقيدة وعصمة النفس واختيار القدر. وهو الزعيم

الوحيد الذى لم تلده الظروف ولم تبعثه المطامع . لم تلده الظروف ، لأن مصر كانت فى إبان حداثته قد استأمنت إلى الجهل والاحتلال فنامت فى ظلهما نومة الضاجع الأبله ! وكانت دعوة الأفغانى قد جمعت من ومضات الأذهان النيرة شعلة أضاءت جانب الطريق فسلكه العرابيون ؛ ولكنهم لم يكادوا يبعدون حتى أدركهم الظلام فى (التل الكبير) ، فلا يصح فى العقل إذن أن نقول إن مصطفى كان أثراً للأفغانى وعرابى ، كما نقول إن سعداً بعد عبقريته كان أثراً لهؤلاء الثلاثة إنما أرسل المصطفى على فترة من رسل الوطنية . وكان إرهاصه وهو فى المدرسة الثانوية أن الوزير على مبارك باشا زار مدرسته يوماً فسأله فيمن سأل من التلاميذ : ماذا اعتزم أن يعمل بعد نيل الشهادة ؟ فأجابه مصطفى اليافع فى خطاب طويل : « إن أرفع الرجال شأناً من يحرر بلاده . وسأكون أنا ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب حتى ترفع الأغلال عن عنق مصر وكان إرهاصه وهو فى مدرسة الحقوق أن أنشأ مجلة سماها « المدرسة » أشرقت فيها نفسه الكريمة إشراق النفس الزعيمة ، ، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويترسمون خطاه ، حتى نال إجازة الحقوق ففرغ لرسالته وخلص لوطنه . وحينئذ رأيناه يكتب إلى أمه الروحية الفرنسية (مدام جوليت آدم) يقول : « إنى لا أزال صغيراً ، ولكن لى آمالا كباراً . أريد أن أوقظ فى مصر الشيخة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له ؛ وأنا أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له فى نفسى من الحب الشديد الذى سيتغلب على كل حب سواه سأنفق فى سبيله كل قواى ، وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفاً عليه ... »

ثم اضطرمت فى ذلك الجسد الناحل روح الله فقار فورة الجبارين ،

وثبت ثبات الرسل ، وقام فى وحدة النبى و إيمان الشهيد يجاهد الإشراك بالموطن والكفران بالأمة ، ويقارع بالحجج الثائرة الملزمة طغيان المحتل ، وأمة هذا المحتل كانت يومئذ علة العلل ودولة الدول ! .

ومصطفى لم تبعثه المطامع لأنه أدرك وهو فى طراءة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضا الخلافة وخصومة المحتل . وكان فى مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة فى سبيل الثراء والحكم ؛ ولكنه زهد فى ذلك كله زهادة الحكيم ، فعاش للمبدأ والفكرة ، ومات للقدوة والعبرة .

وهل أدل على نزاهة مصطفى ونبل نفسه من نبوه على الخديو عباس وانحرافه عنه حين رآه يستيئس ويستكين بعد الاتفاق الودى الذى أبرم بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ؟ لقد كان فى مسايرة الخديوية ومياسرة الاحتلال ما شاء الطامع من جاه وألقاب وسطوة وثروة . ولكن مصطفى كان يريد أن يقود لا أن يسود ، ويطلب أن يخدُم لا أن يحكم . والزعيم الحق هو الذى يدافع عن أمته ولا يحاول أن يحكمها ؛ لأنه متى حكمها أدركته حقارة الإنسان فاستطال وترفع وفاش وطاش حتى يصعب عليه أن يوفق بين رغائب نفسه وبين مطالب الناس !

وهكذا قضى الصدق فى الجهاد والاخلاصُ للمبدأ على مصطفى العليل الواهن أن يحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، ويذكى خمود جيله بحرارة دمه ، ويضىء ظلام وطنه بوميض روحه ، ثم يموت رضوان الله عليه ميتة الأنبياء لا (عمائر) تحجب سماء المدن ، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى (١)

---

(١) العمائر جمع عمارة وهى الدار العظيمة التى تبنى للاستغلال . والدوائر جمع دائرة وهى مركز إدارة الأملاك الواسعة .

لو أن زعيمنا الخالد كان قد سعى ما سعى لينال كرسيًا فى (وزارة) أو مكتباً فى (شركة) لما أقمنا له هذا التمثال بعد ثلث قرن ؛ فإن الزعيم الذى يجعل همه السياسى أن ينتفخ لغدوده وجيبه لا يمكن أن يعيش فى ذاكرة الناس هذا العمر ولكن مصطفى عاش كأصغرنا ، وسعى كأقدرنا ، ومات كأفقرنا ، فكان حقا علينا أن نقيم تمثاله رمزاً للوطنية التى لاتتاجر ، وللوطنى الذى لايداجى ، وللزعيم الذى لايخون .

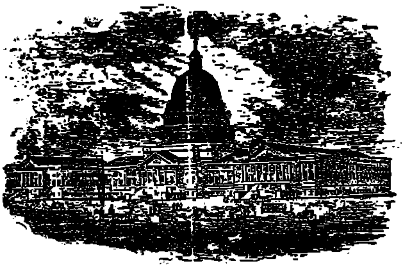

الفكر والحرب

(٢٧ مايو سنة ١٩٤٠)

قال الأستاذ « دومينيك[١] » فى تحليله البليغ للكتاب القيم الذى ألفه « نيفل هندرسون » سفير إنجلترا فى برلين بعنوان (سنتان عند هتلر) :

« إن المتمدنين الذين يعيشون فى هذا القرن بإنسانية القرن التاسع عشر ومسيحيته ليقضون من الدهش إذ يرون هذا « الهتلر » يرجع بالعالم إلى عهود الجاهلية القيصرية فيحمل أتباعه على أن يعتقدوا أن الله قد حل به ، وأن ألمانيا قد تجسدت فيه . وإن المفكرين ليفزعون فى وسط هذه الزعازع الهوج إلى الله جزعين أن يرتكس الفكر والحضارة فى مهوى البربرية الأولى »

وقال المستر « سمنر ولز» فى خطبته الختامية بالمؤتمر العلمى للأمم الأمريكية :

« ليس من الصعب أن نتنبأ بنكسة القرون الوسطى فى بلد أصبح التفكير الحر مستحيلاً فيه . وأى أمل يبقى للأخلاق بعد هذا الطغيان الذى موه الباطل على الناس حتى اعتقدوا أنه الحق ؟ » ثم دعا الولايات المتحدة إلى أن تذود عن المدنية التى تدين لها بأكثر مما تنعم به .

وقال صديقنا الأستاذ « الحكيم » فى جريدة (الأهرام) :

« إن نذير الدمار المسلط على شؤون الفكر والروح كفيل بأن ينهض برجال الفكر والأدب للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم فى وضع أحجارها الأولى »

---

(١) مجلة النوفيل ليتررير (الأخبار الأدبية)

وكلام هؤلاء السادة على اختلاف الوطن والمذهب ترجمة لطائفة من المعانى الخداعة التى قدمها الإنسان الحديث فأقام عليها ثقافة المدرسة ، وراض بها نفسية المجتمع ، وجعل منها خصائص لحيوانيته تميزه فى زعمه على الإنسان القديم والوحش الآبد . وليس فى منطق الطبع أن يكون أثر الفكر دائماً من الخير المحض ما دام مصدره الإنسان وهو يفسد ويصلح ويخبث ويطيب تبعاً لوحى غريزته وخضوعاً لهوى منفعته . أليس الفكر والأدب والعلم والمدنية التى يدعو الأساتذة الكتاب إلى النضح عنها هى نفسها التى جعلت ألمانيا الهتلرية جحيما يستعر باللظى والغاز والحمم ، فزلزل الأرض من القطب إلى القطب ، ورمى الدنيا جمعاء بغاشية من الموت الوَحِيّ والفلق المميت ؟

لو لم تعتمد النازية على الفكر الألمانى القوى الخصيب لما استطاع هتلر ناسك « برجوف » أن يفاجىء العالم الآمن بأهوال من الشر ينكرها الشيطان ، وأساليب من الموت يجهلها الموت

إن الفكر الفعال فى الأرض لا ينفك عنه قصور الإنسان وضلاله ، فهو عاجز عن هداية الناس ما لم يهده الله بنوره . ولا يجرؤ المسكين ابن آدم على أن يزعم أنه استطاع بفكره أن يحل مشكلاته بالمفاوضة ، ويقسم أرزاقه بالعدل ، ويوثق علائقه بالمودة ، ويضع لدنياه أنظمة ثابتة تكفل له السعادة الخالصة والسلام الدائم .

وإن الأدب المحرك لهوى النفوس لم يستطع الإنسان الأثر أن يسمو به على الأهواء النفسية والأغراض الحزبية والأطماع القومية ؛ فظل فى كل أمة خاضعاً لمنهاج المدرسة وسياسة الدولة وطبيعة الشعب لا يتجاوز حدود المكان ولا فصول الزمن ، فكان عاملاً من أشد عوامل العصبية والوحشية والفرقة .

وإن العلم الذى ناط به العقل كشف أسرار الكون لفهم الحياة ، وتسخير قوى الطبيعة لخير الناس ، جافاه الضمير فاستبد به الشر وراح يستعديه على نتائج الخير وآثار الصلاح ، فرماها بآلات البوار والدمار من طائر يقذف الشهب ، وسائر يطلق السموم ، وزاحف يرسل اللهب !

وإن المدنية التى عمرت بها الأرض ، ونمت عليها الأنفس ، وزخرفها النعيم ، وتبجح بازدهارها الإنسان ، قد سطت عليها المادة القاسية فسلبتها الروح وحرمتها القلب ، فوقعت الجفوة بينها وبين الدين ، وانقطع السبب بينها وبين الحب ؛ فتشتتت الألآف ، وتباعدت القربى ، وتشعبت الحاجات ، وتنافست المطامع ، وتكاشفت الأحقاد ، واضطرب الناس فى سبل الكدح ، وألهبتهم حوافز الهم ، حتى عجزوا بخلقتهم وطبيعتهم عن مسايرة الحضارة فسعوا بالطائرات ، وعملوا بالآلات ، ونظروا بالتلسكوب ، وسمعوا بالميكرفون ، وضاقت عليهم الأرض برحبها فضربوا فى الآفاق واختصموا على ديار المستضعفين فحكموا بينهم السلاح فكانت هذه المدنية المادية أشبه بسعير الآخرة تنضج الجلود ولا تزهق الأنفس ليستمر الاضطراب ويتجدد العذاب ويدوم للطبيعة الخداعة هذا الثوب الأنيق الموشى بفضل هذا الإنسان الأحمق الذى يعمل ولا يعرف لماذا ، ويسرع ولا يدرى إلى أين !

* * *

هذا الفكر العاجز ، وهذا الأدب القاصر ، وهذا العلم المجرم ، وهذه المدنية الفاجرة ، لاتستحق الاحتفاظ بها ولا الذياد عنها يا زملاءنا الأعزة . لقد اشتد بأسها وعظم سلطانها فى ألمانيا (الراقية) فولدت الهتلرية بوحشيتها وعصبيتها وبلاياها . وإن من الخير للانسانية أن تذهب هذه العقلية

مع المتلوية إلى غير رجعة .

إن الفكر الذى نريده هو الفكر المدبر النفاذ الذى يُشرق فى جوانبه نور الله ، فلا يشت به ائتلاف ولا يضل عليه سائر .

وإن المدنية التى نرجوها هى المدنية الإنسانية التى تنبث فى طواياها روح الله فلا يولد بها شقى ولا ينجم فيها ثائر .

إن شمس المدنية الصحيحة قد أشرقت من الشرق ثم غربت فى الغرب ، ولا بد أن يدور الفلك فتعود إلى مطلعها لتشرق على العالم من جديد .

الحرب بين أمس واليوم

(١٠ يونية ١٩٤٠)

يقول الأغرار من الناس إن السرعة الخاطفة عبقرية هذا العصر ومزيته ، من لم يجرِ مرّ على ظهره المتأخر وغبّر في وجهه المتقدم . وواجب السرعة أن تعمل ولا تستريح ، وتفكر ولا تتأمل ، وتأكل ولا تتذوق ، وتنام ولا تحلم ، وتموت ولا تمرض . ونحن نقول لهم إن السرعة ليست عبقرية ولا مزية ؛ وإنما هي مس من الجنون أصاب العالم منذ اخترعت الآلة . ذلك أن الآلة مخلوق أرضي جهزه العلم بعشرات الأعضاء ليس بينها اللسان ولا القلب ولا العقل ولا الروح ، فهي تلد ولا ترأم ما تلد[1] ، وتعمل ولا تضمن ما تعمل . وهي تكون للشر كما تكون للخير ، وتنتج للموت كما تنتج للحياة . وطبيعة الآلة سرعة الحركة ووفرة الإنتاج ؛ فلم تكد تسيطر على مجاري العمل في أقطار الأرض حتى دفعت العالم دفعاً عنيفاً إلى الاهتلاك والاستهلاك والتسابق والتنافس والاصطراع والكدح ؛ فهو دأب لا يفتر ، ونصب لا يستروح ، ونهم لا يشبع ، وعراك لا ينقطع . ولئن سألت المتبجحين بعصر السرعة على الأعصر الخوالي كيف يجد الجسم راحته في هذا الاضطراب الدائم ، وأين يلتمس القلب سعادته في هذا الجحيم المستمر ؛ وماذا أدرك راكب السيارة أو الطائرة أكثر مما أدرك صاحب الجمل والحمار ، أو راكب الخنطور والقطار ، لا تسمع منهم غير جواب أشعب الطماع حين أجرى الصبيان إلى الوليمة خادعاً بالحيلة ، ثم جرى هو معهم مخدوعاً بالوهم !

---

(١) رئمت الأم الولد : عطفت عليه ولزمته .

هذه هى الحرب التى عرفها العالم منذ خلق الله آدم و إبليس ، قد انقلبت فى عصر السرعة آلية لاتعتمد على فضائل النفس ولا على خصائص الروح ، وإنما تعتمد على سرعة الدواليب فى الطائرة والسيارة والدبابة والدراجة والغواصة والبارجة . فأصبح الفرق بين الآلة والسيف فى حصد الأرواح كالفرق بين الماكينة والمنجل فى حصد الحنطة !

إن معركة الفلندر التى شبت بين الألمان والحلفاء أهلكت فى أيامها المعدودة من الأنفس والأموال أكثر مما أهلكت حرب البلوبونيز التى نشبت ثمانيا وعشرين سنة بين إسبرطة وأثينا ، والحرب الميدية التى اشتبكت أربعين سنة بين الفرس والإغريق ، وحرب البسوس التى اضطرمت أربعين عاما بين بكر وتغلب ، والحروب الصليبية الثمان التى ظل ضرَمها يحتدم ويخبو قرناً وثلاثة أرباع القرن بين الغرب المسيحى والشرق المسلم !

اشتعلت هذه الحروب بين المدن أو بين القبائل أو بين الأمم قبل أن يوضع القانون الدولى وتنشأ عصبة الأمم ، ومع ذلك تكشف عجاجها الأقتم عن خلال مشرقة من الفتوة والبطولة والنبل والإيثار والوفاء والتضحية كانت للأدب الإنسانى الخالد مصدراً لاينقطع رِفده ولا يفتُر وحيه .

وكانت الحروب الإسلامية على الأخص فى الفتوح أو فى الفتن تجرى على سَنَن مستقيم من الدين والخلق والأدب لا تزيغ عنه فالقلوب التى تجيش بالغل لا تلبث أن تخضع للصلاة ، والألسنة التى ترتجز بالحماسة لاتنسى أن تتناشد الشعر . وما ظنك بجيش يفرض عليه دينه أن يؤدى الصلاة جماعة فى المعركة ؟ أتراه حريًا أن يجاوز الحد إذا قاتل ، أو يجانب الوفاء إذا عاهد ؟ وما رأيك فى جيشين يتهادنان ساعة ليحكم فارس بين رجلين اختلفا فى المفاضلة

بين شاعر وشاعر ، وكان الحكم من جيش والمختلفان من جيش آخر ؟

لقد رووا أن رجلين تنازعا فى عسكر المهلب بن أبى صُفرة فى جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج ، فصارا إليه ، فقال : لاأقول فيهما شيئاً ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما : عبيد بن هلال ، وهو يومئذ فى عسكر قطرى ابن الفجاءة . فأتيا فوقفا حيال المعسكر ، فدعواه فخرج يجر رمحه وظن أنه دعى إلى المبارزة ، فقالا له : آلفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنة الله ! فقالا : نحب أن تخبرنا ثم ننصرف إلى ما تريد . فقال : من يقول :

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها طي التِّجار بحضرموت برودا

قالا : جرير . قال : هو أشعرهما !

فقل لى بربك : أين تلك الحرب التى كان يبرز فيها رجل لرجل فيتقاولان ويتصاولان على مسمع ومرأى من الجمعين المتقابلين ، حتى إذا حميت الصدور واحمرت الحدق ، حمل بعضهم على بعض فيُقتل نفر ويجرح نفر — من هذه الحرب الميكانيكية التي يقف فيها المليون حيال المليون فتغشاهم ظُلل من السماء ترسل الشهب والصواعق ، وتكر عليهم قُلل من الحديد تقذف اللهب والقنابل ! ثم يُرعد الجو والبر والبحر بآلات الموت والدمار ساعة من الليل أو النهار فإذا بك لا ترى بعد ذلك عشرات من البلدان عمرتها الحضارة فى دهر ، ولا ألوفاً من الشبان نشأتهم المدنية فى جيل !

لقد اتخذ الفرس يوم القادسية دبابات من الفيلة هولوا بها على المسلمين بعض الوقت ، ولكن العرب لم يلبثوا أن أصابوا مقاتلها فى الخراطيم فمسحها الشهداء بالسيوف ، فانقلبت الفيلة إلى أهلها فعجنتهم بأرجلها وهى مولية ولكن دبابات هتلر كضمير هتلر لاتحس الوخز ولا تحفل الصدام ولا تبالى

العاقبة ؛ فهى تهجم هجوم الجراد الجهنمى على النبت العميم (١) ، فلا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .. فإذا أضفت إلى ذلك الويل أن الذين أوقدوا نار هذه الحرب حلوا أنفسهم من روابط الدين والخلق والقانون والعرف والشرف أدركت مبلغ ما تعانيه الانسانية اليوم من يأجوج ومأجوج فى أمة بسمرك ونيتشه وغليوم وهتلر !

ليت للعالم يارباه كرَّةً إلى عصر الجمل والحصان ، وحرب السيف والسنان ، ومدنية القلب واللسان ، لينجو من هذا العلم الذى يدمر ما يعمر ، ويخلص من الحضارة التى تأكل ما تلد !

---

(١) العميم : المجتمع المتكاثر .

فرنسا تنهار

(٢٤ يونية سنة ١٩٤٠)

سبحانك اللهم مالك الملك وصاحب القدرة ! أفى أقل من دورة القمر تخشع باريس محرابُ الأدب للقوة ، وتخضع فرنسا منجم الذهب للمادة ؟

أفى أسرع من كسرة بولندة والنرويج وهولندة والبلجيك ينهزم أبسل جيش على الأرض ، وتنهدم أرفع أمة فى التاريخ ؟

أبعد القارعة العالمية الأولى ونجاة (فوش) من (فون كلوك) بالمعجزة الفاجئة يُخلد (بيتان) و (فيجان) إلى الدعة ، ويسترسلان إلى النعيم ، ويطمئنان إلى الأمن ، ويسالمان الأحداث فى أفياء « ماجينو » [1] ، ويهملان الشباب فى أفناء (سان سير) [2] ، فلا يهتمان بسلاح ولا يفكران فى خطة ؟

لقد كانت (سيدان) فى جسم الدفاع الفرنسى كعب أخيل [3] : جثا فيها نابليون الثالث أمام بسمرك ، فلم يستطع (تيير) و (غبتا) أن ينقذا شرف فرنسا ويفديا عاصمتها إلا ببذل الألزاس واللورين وخمسة مليارات من حُر الذهب . وانخرع فيها جيش (كوراب) فانثغر عندها خط الدفاع الرئيسى فوقعت

---

(١) ماجنو . خط دفاعى مسلح أقامته فرنسا على الحدود الألمانية بقوة العلم والمال فلم يغن عنها شيئاً (٢) سان سير : المدرسة الحربية فى باريس

(٣) الكعب : مؤخر القدم ، وأخيل أشهر أبطال الألياذة غمسته أمه وهو وليد فى أستكس أحد أنهار « الأنفيرا » ؛ وخاصة هذا النهر أن ماءه إذا مس جسم إنسان لا يعمل فيه سيف ولا رمح ، ولذلك كان جسم أخيل معصوما من الجرح إلا من كعبه ، لأن أمه كانت ممسكة به حين غمسته ، ومنه كان مقتله .

الكارثة التى لا حيلة فيها ولا نجاة منها وليس يدرى إلا الله ماذا يملى الدكتاتوران على فرنسا الضارعة من شروط الصلح فى (فرنكفورت) العانية . فكيف غفل القواد الفرنسيون عن هذا الثغر فلم يحصنوه ويؤمنوه ؟ لقد قال رئيس الحكومة الفرنسية : إن القيادة ارتكبت أخطاء لا يتصورها العقل . وأشار رئيس الوزارة الانجليزية إلى تهم لا يرى الوقت ملائماً للافضاء بها . ونحن نعيذ فرنسا مثل الوطنية العالية ونموذج العسكرية الرفيعة أن تكون ميداناً لجيش المتلرية الخامس[1] ، فما علم الناس على ضميرها الوطنى من سوء ؛ وإنما نعتقد أن الديمقراطية دهاها مادهاها من بطر الغنى وغرور الأمان واعتقاد السلامة . فلو أن الحلفاء يوم صرعوا الأفعى قطعوا ذنبها ورأسها لما تفتحت الجحيم عن شياطين النازية الذين زلزلوا الدنيا و بلبلوا العالم ولكنهم دوخوها وسلخوها وتركوها فى فجوة من الأرض تتحوى وتتقوى وتستعد ، وانطلقوا فى جنتها الفيحاء ينعمون ويقصفون حتى أذهلتهم نشوة الفوز عن كيد الموتور وحنق المقهور ، فأغفلوا الحيطة وأهملوا العدة إلى أن انفجرت عليهم السموم من كل وجه . والدولتان الحليفتان قد اعترفتا بهذا الخطأ الذى جر عليهما هذه النكبة . فقد قال المستر تشرشل فى خطبته الأخيرة : « لقد انهارت قوى العدو فى سنة ١٩١٨ فجأة . فشاءت حماقتنا أن نلقيه جانباً ثم نستنيم إلى سكرة الفوز » وقال المرشال بيتان فى ندائه الأخير : « بعد انتصارنا على الألمان فى سنة ١٩١٨ تغلب فينا مرح السرور على روح التضحية ، وحرص الناس أن يأخذوا أكثر مما أعطوا ، واستشعروا برد الراحة فأراحوا أنفسهم من عناء الجهد »

لذلك لم يكن بالعجيب أن تعقم فرنسا من الأبطال فلم تنجب فى زهاء ربع

---

(١) يراد بالجيش الخامس أو الطابور الخامس الخونة والمنافقون ودعاة الهزيمة .

قرن من القادة العباقرة من يخلف جُفْر وفوش ، فاضطرها الأمر أن تلقى بمقاليدها إلى رجال المدرسة العسكرية القديمة كغاملان و بيتان ممن أوهنت السن العالية عواتقهم فلا يقوون على حمل النجاد .

كذلك لم يكن بالعجيب أن يفجأهم النازيون بالخطط المبتكرة والأسلحة الحديثة ، فيقفوا حائرين ذاهلين أمام الدبابات التى تقذف اللهب وتعبر النهر ، والطائرات التى تنقض كالصاعقة وترتفع كالقذيفة ؛ فيذهب غاملان ويجىء فيجان ، و يستقيل رينو و يتولى بيتان ؛ ولكن القدر القاهر فوق الناس يأبى إلا أن يكفِّر الخطىء و يخسر الغافل .

ليت شعرى ماذا قال الفرنسى الحزين المهان المحطم حين سمع المرشال بيتان يقول ليلة الأمس فى أول ندائه : إننا فى قلة من الجنود ، وقلة من الأسلحة ، وقلة من الحلفاء ، ولذلك انهزمنا »

لعله قال : وأين إذن يا مارشالى العزيز السعى الذى سعيته والمال الذى أديتُه ؟ إن فرنسا وانجلترا ومستعمراتهما يبلغون ستمائة مليون نسمة ، فهل يجوز على مثل هذا العدد القلة والضعف لولا أن هناك خطأ من الإنسان أو خذلاناً من الله ؟

لقد برهن الفرنسيون فى معركتهم الخاسرة أنهم جديرون بمكانهم من ثبت الشرف وتاريخ البطولة . وما غلبوا إلا لأن الديمقراطية التى يعتقدونها لا تفكر إلا فى السلم ولا تتسلح إلا بالعهود والمواثيق والقوانين والشرف ، وأن الدكتاتورية التى يعادونها لا تفكر إلا فى الحرب ولا تتسلح إلا بالحديد والنار والدعاية والخيانة والكذب .

على أن الله عوّد فرنسا العريقة أن يحفظ عليها الشرف إذا شاء أن تخسر المعركة . و بقاء الشرف ضمان لبقاء العزة . والعزة حافز دائب الوخز يدفع إلى الحياة بالموت ، و يرفع إلى السيادة بالتضحية

ويقيننا أن هذا الصلح الذليل الّذى طلبه الفرنسيون العسكريون عارض من اليأس أصابهم فى حال سيئة أما سائر الفرنسيين فى القارة وفيما وراء البحر فسيختارون المنية إذا خُيِّروا بينها و بين المذلة .

* * *

إن فرنسا المنكوبة ضحية جديدة لجبروت العلم الفاسد . والعلم الفاسد هو الذى قصدناه بالغضب فى مقالنا الذى عقب عليه صديقنا الأستاذ العقاد وهو الذى عناه المستر تشرشل فى بيانه بقوله : « إننا إذا انهزمنا سقط العالم كله فى عصر من الظلام سيكون أطول العصور وأشأمها بفضل العلوم الفاسدة » .

وفساد العلم أن يضع الإنسان فيه شهواته الدنيا فيجعله شراً خالصاً لا خير فيه . ورحم الله جان جاك روسو فقد أجهد قريحته فى التدليل على أن العلم يفسد الإنسان[١] ولو تنفس به العمر إلى عهد النازية لأيقن أن الإنسان هو الذى يفسد العلم .

(١) Discours sur les sciences et les arts.

بين المهاجرين والأنصار

(١٢ يوليو سنة ١٩٤٠)

كان من أثر الفازعة الشديدة التى نالت الناس من الغارات الجوية الإيطالية أن لجأ سكان العاصمة والثغور، إلى القرى والعزب والكفور، يلتمسون الأمن فى ظل الريف الوريف، وينشدون الهدوء فى حضن الطبيعة المشبل.

وكان الطيار الذى يحلق ذات صبح من هذه الأصباح المضطربة ، فى سماء مصر المشرقة المخوفة ، يرى الطرق الرئيسية تسيل بحاملات الأنفس وناقلات المتاع بين القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية وبورسعيد ، فلا يجد نوعاً ولا شكلا من عربات النقل أو الركوب التى تسيرها الأحصنة الحيـــوانية أو الميكانيكية إلا جمع لهذه الهجرة التى لم تر مثلها مصر فى ماضيها الطويل!

هذه سلاسل من عربات النقل تجرها الخيل أو الحمير فتسير على يمين الطريق وئيدة السكر تقعقع عجلاتها مخنوقة فى التراب، وتجلجل أجرامها خافقة فى الجو، من ثقل ما تحمل من الأثاث و (الكرار) والماعون...

وهذه قوافل من سيارات النقل المكشوفة والمغطاة موقرة بالأثاث الفخم والرياش الثمين ، تهتلك دُروجاً فى وسط الطريق المترب فتثير غماماً من الغبار الخانق يحجب وراءه الأشخاص والأشياء إلى مسافة بعيدة،

وهذه أرتال السيارات المملوكة أو المأجورة تشرق بمن فيها من النساء والرجال والأطفال ، وهى تنتقل من الوسط إلى الشمال لتخطف طريقها من (الكميونات) العنيدة

ولدى كل نقطة من « نقط المرور » ، وعلى كل رأس من رءوس الجسور ، طوائف من القرويين والقرويات ، يُلوِّحون بالفواكه والمرطبات ، فلا يكاد المهاجرون المفزَّعون يحسونهم لتوزع قلوبهم بين أهوال الحرب المتوقعة ، ومخاوف الحياة الجديدة .

* * *

أشرقت القرى العوابس بألوف من ناشئة النعيم ذوى الوجوه الرقاقة والأطراف الناعمة والطرر المصفوفة والبنائق المقوّاة والطرابيش القانية ، وألوف من نابتة المطبخ الحضرى ذوى الوجوه المطهمة واللغاديد الضخمة والبطون الشحيمة والجسوم الرهلة ؛ وازدانت الأكواخ والمصاطب وحواشى البرك وحفافى السكك برواد السكنتنتال والكرسال وسان جمس واعترى القرى بادىء الأمر من التزايل(١) والانزواء ما يعترى القروية إذا رأت أحد الأفندية على حين فجأة . ثم أدرك القرويون أنهم ملاذ هؤلاء الضيوف فاستشعروا قليلاً من الجرأة ، فخالطوهم وباسطوهم حتى ارتفعت الكلفة بين أهل المهجر وأصحاب الدار ، وأصبح بينهم من التعاون والألفة ما كان بين المهاجرين والأنصار .

وفى سقيفة من شجر الصفصاف وحطب القطن ، بين تل من تلال السماد الطرى ، ومستنقع من آسن الماء الوحِل ، جلس ذات يوم جماعة من المهاجرين بعد شهر من الهجرة وقد حف من حولهم رجال القرية بين مضطجع فوق الحصباء ومحتبٍ بحضيض التل ، ومستند إلى جذع الشجرة . وكان كل رجل من هذه الجماعة قد نال من جسمه الشحوب ، وشاع فى نفسه السأم ، وانتشر على جبينه الأبلج حَبَر(٢) البراغيث والبعوض ! فهو يتكلم من غير شهوة الكلام ، ويجيب من غير تفكير فى الجواب ، ثم يذهل ذهول شارب الأفيون فلا كلمة ولا حركة .

---

(١) التزايل : الحشمة والانقباض . (٢) الحبر : الأثر الذى يتركه لدغ البراغيث وما يشابهها .

ولكن الشيخ . وهو رجل أزهرى الثقافة سليط اللسان جرىء القلب ، أراد أن يشفى صدور الفلاحين من هؤلاء المترفين الذين سلبوهم نعمة الله وراحة الدنيا وحق الحياة . فقال فى خبثه المعهود يسأل أحدهم وهو من الملاك الغلاظ المتأبهين :

— لعلك سعيد بجمال الطبيعة وبهجة الحقول وصفاء الهواء وهدوء القرية !

ولم يكد الشيخ يتم جملته حتى تحرك ساكن القوم ، ثم جاشت حركتهم ففارت على ألسنتهم خليطا من الكلام فيه الضجر والسخر والملال والسب . قالوا :

— أين الجمال وهذه المزابل والزرائب والخرائب والبرك تقذى الأعين ؟ وأين البهجة وهذه الأجسام الضاوية والثياب البالية والمساكن التى فى بطنها الوحل وعلى ظهرها الروث تقبض الأنفس ؟

وأين الصفاء وهذه الدور المنتنة والأزقة القذرة والمراحيض المكظومة تسم الأبدان ؟

وأين الهدوء وطنين البعوض والذباب ، وتجاوب الكلاب والذئاب ، ونقيق الضفادع ، ونهيق الحمير ، وصراخ الأطفال ، تؤلف جوقة من الموسيقى الشيطانية تحطم الأعصاب ؟

إن القرية الأوربية خميلة من خمائل الفردوس فيها متعة الحس والعقل والجسم . وكان الظن بالقرى المصرية أن تكون قريبة الشبه بتلك . فلما رأيناها أنكرنا أن يكون سكانها من الناس ، لأنهم يأكلون ماتعافه الكلاب فى المدن ، ويشربون مالا يجوز أن تغسل به الأقدام فى العواصم ، ويعانون من مختلف الأمراض فى القرية الواحدة مالا يجتمع مثله إلا فى المستشفيات

المتعددة . فنحن بهجرتنا إلى القرية قد فررنا من موت متوقع إلى موت محقق . لذلك عقدنا العزم على أن نعود إلى القاهرة فإن الموت بالشظايا على دفعة ، أخف من الموت بالجراثيم على دفعات .

فما كان جواب الشيخ والذين معه إلا أن قالوا بلسان واحد : الحمد لله الذى أراكم بعد العمى وأنطقكم بعد البكم ! لقد خطبنا حتى نشف الريق ، وكتبنا حتى جف الحبر ، فلم تصدقوا أنكم عمرتم المدينة وخربتم القرية ، وأبطرتم الباشا وأفقرتم الفلاح ، واتخذتم من عرقنا ودمنا أفنانا من لذائذ البطن أعلاه وأسفله ، حتى ضوينا وسمنتم ، وفزعنا وأمنتم ؛ وكانت بلية كل أولئك على الإنتاج والدفاع !

ثم افترقوا ، هؤلاء ساخطون وأولئك قانطون ! فعسى أن يلتقى هذا السخط وذلك القنوط عند معالى وزير الشؤون الاجتماعية !

نهاية أديب

(٥ أغسطس سنة ١٩٤٠)

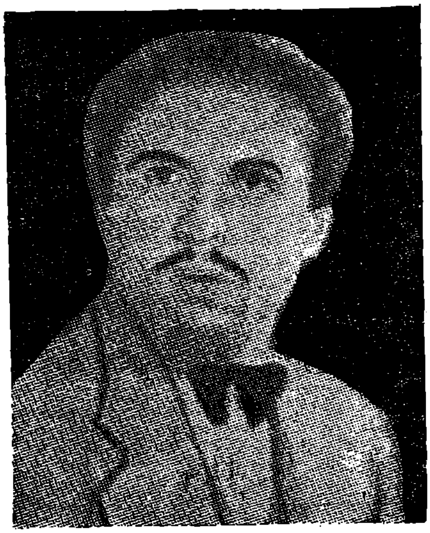

فى الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر يوليه ، لفظ البحر على ساحل « جليم » بالإسكندرية جثة كانت فى رونق العمر وإن بدا على محاسرها مسحة من شفوف الهم وشحوب الألم . لم يكد يلقيها الموج الصاخب المتعاقب بالرمل المستوى المنضوج حتى أخذتها عيون الحرس الساحلى ، فظنوها لأول وهلة ضحية من ضحايا الحرب الانجليزية الايطالية فى البحر المسجور بالعذاب والموت ؛ ولكنهم علموا من بدلة الغريق ومعطفه وسلامة بدنه أنه مدنى سقط فى البحر أو أُلقى فيه فلما فتشه رجال الشرطة ليكشفوا عن هويته عثروا فى جيب معطفه على كتاب منه إلى رئيس النيابة يقول فيه :

« إنه قتل نفسه بالغرق يأساً من الدنيا وزهادة فى العيش ، ويوصى بأن يحرق جسده ويشرّح رأسه »

إذن هو رجل من رجال الفكر والرأى ، جعل للحياة مثلا لم يحققه فهو يحتويها ، ورأى فى العقيدة رأياً لم يرقه فهو لا يرتضيها ، واعتقد أن فى مخه عبقرية فهو يرجو أن يظهرَ بالتشريح خافيها

فهل تدرى من هو ؟

هو الدكتور إسماعيل أحمد أدهم عضو أكاديمية العلوم الروسية ، ووكيل المعهد الروسى للدراسات الإسلامية ، كما كان يخبر عن نفسه وهو صاحب المقالات العلمية والنقدية فى الرسـالة والمقتطف ، ومنشط الحركة الأدبية فى الاسكندرية وجمعية الثقافة ، تَجَاذبه أبوان مختلفان : تركىٌّ وروسية ، ثم غُذى فى يفاعته بثقافة البحر الأسود ، فتأثر بنفسية الترك الجمهورية ، وعقلية الروس الشيوعية . وتزوج أبوه مرة أخرى من مصرية فعاش معه فى الأسكندرية حيناً من الدهر تعلم فيه العربية ثم ترك له بعد موته بيتاً صغيراً كان يعيش على أجرته هو وأخته عيش الكفاف الضيِّق واعتراه داء السل فكان يراوغه بالسكنى فى جفاف « أبو قير » ، ولكنه كان مضطراً إلى أن يشق طريقه فى زحمة الحياة بسن القلم فكتب وألف وحاضر وناظر ، حتى كان له فى كل كتاب رأى ، وعلى كل مسألة اعتراض ، ومع كل كاتب موقف وأعانه على هذا الجهد العظيم قريحةٌ طيعة و بصيرة ناقدة وعزيمة نافذة وطبع عمول ومع ذلك ظل فى عزلة عن القلوب المؤاسية أو المشجعة من جمهرة القراء وقادة الأدب ، لأن نشأته اللادينية ، ونزعته العلمية ، وطبعه الجرىء الحر ، وأسلوبه الجاف القلق ، كانت تجعل لسطوره ظلالا من الإلحاد والمادية والغثاثة تبغّضها إلى صاحب الدين وصاحب الفن ثم وصل أسبابه ببعض ذوى القلم فاستخدموه فيما لا يكسبه المودة والعطف . وجابه قوماً من المتصوفة وطلاب العلم بوقاح الرأى

فى الدين فآذوه فى بدنه وسمعته ووجد رضا نفسه وراحة عقله فى تسليط الطبيعة على العقيدة ، وتحكيم الفلسفة فى الشعور ، فساءت ظنون الناس فيه ، وأرهفت الألسن عليه ، حتى عجز أن يعيش على ثمرات فكره .

وكان المرحوم إسماعيل أدهم عفيف النفس يتقنع بميسور الرزق ، ويتكرم عن طلب المعونة ولو كانت جزاء على عمله وكان مرضه الدخيل المزمن يقتضى وفرة الغذاء وجودة الهواء وراحة الجسد ، ولكنه كان لا يجد الكفاف لضيق مضطربه ، ولا ينال الدعة والجمام لقوة عزمه ؛ فتظاهر عليه الداء والشقاء والإباء واليأس من روح الله حتى زلزلت هذه المحن فى نفسه الثقة ، وأذهبت عن قلبه السكينة .

ونكبت الإسكندرية الجميلة بالغارات الجوية الإيطالية ، فجلا أكثر الساكنين عن الثغر المروع ، فأقفرت المنازل حتى منزل أدهم وهو مرتزقه الوحيد ، فلم يكن بد من النهاية المحزنة التى انتهى إليها هذا الأديب البائس .

* * *

كان الدكتور أدهم — غفر الله له — شديد الذكاء أصيل العقل رياضى الفكر واسع الثقافة لا يؤمن إلا بالعلم والمنطق . وقد أضاف إلى ثروة الأدب العربى الحديث جهداً مهما تختلف الآراء فيه فإن له قيمته . وكان من الممكن أن يعيش فى ظلال أدبه رخى البال مكفول الرزق لو أنه وصل ما بينه و بين الله ؛ ولكنه خضع لسلطان طبيعته ونشأته فعالج الموضوعات الإسلامية معالجة الملحد المخلص الذى يجد سعادته فى الكفر ورسالته فى التكفير . ولو أنه خادع الناس كما يفعل بعض الأكياس من الأدباء ، لأدرك السلام فى الأرض وإن لم يدركه

فى السماء؛ ولكنه كان أشبه بشهداء الفكر الذين يجدون اللذة فى الألم، ويبتغون الخلاص فى الموت!

* * *

رحم الله الدكتور أدهم! حسب أن أرقام العلم وأقيسة المنطق هى كل شىء فى تقدير المعلوم واكتناه المجهول، فاعتمد فى أدبه على العقل القعيد الذى يرى ولا يطير، واتكأ فى فلسفته على الفرض البعيد الذى يطير ولا يرى، وتحامل فى معتقده على الضمير البليد الذى خبا وهجه بين فتور الخيال وخمود العاطفة. ثم غره أن معارضة الدين سبيل من سبل الشهرة فأوغل فيها بعنف حتى انقطع فى صحراء الحياة عن الله والناس! فهو لا يملك النور الذى يضىء ظلمة القلب، ولا الرجاء الذى يخفف وطأة الكرب، ولا الحب الذى يؤنس وحشة الطريق. وحكم القدر على السائر فى الظلام والوحدة أن يزلق من صخرة الحرمان إلى لجة العدم[1] وهناك لا يدركه إلا رحمة الله التى وسعت كل شىء وشملت كل شخص!

إن الأدب الملحد قد يعيش فى الغرب لأن الظلام يمد الظلام، ولكنه لا يستطيع أن يعيش فى الشرق لأن الظلام ينسخه النور!

---

(١) إشارة إلى انتحاره بإلقاء نفسه فى الماء من فوق صخور الشاطىء.

الشتاء

ترجمة صورة

الشتاء ! الشتاء ! وماذا تفهم من الشتاء يا ابن مصر الضاحية الضحوك ؟ هل تفهم منه إلا أنه أسابيع من عمر العام لا تدرى أهى أواخر خريفه أم أوائل ربيعه ؟ هل تجد فى جسمك غير

دفء النعمة ، وفى نفسك غير بهجة الأنس ، وفى عينك غير إشراق الجمال ؟ انظر الصفحة اليمنى تر الشتاء الغربى الذى جعله الله شيخوخة الطبيعة ، يُسلبها الرواء فلا تُعجب ، ويحرمها النماء فلا تخصب ، ويلقى عليها الهمود فهى سكون خافت وصمت ثقيل ، ويلفها فى كفن من الثلج نسجته ريح بليل ثم تقشعر الأرض ، وتكفهر السماء ، وتقع الحياة بين القحط والموت فتئن بالرعود وتتأوه بالأعاصير ، وتتساقط على الشجر السليب والثرى الكئيب والقرى الموحشة هما فى الصدور ، وبؤساً فى الأكواخ ، ورهقاً فى العزائم

إن الشتاء فى غير مصر زمهرير جهنم تتنفسه كما تقول الأساطير فلا يذر من شىء يهبُّ عليه إلا أحرقه بالقر وأغرقه فى الصقيع أما فى مصر فالشتاء فى الناس لا فى الطبيعة . والشتاء فى الناس برد فى الدماء ، وخمود فى العواطف ، وقحط فى الأنفس فلو كان كل من على النيل صافى القلب كسمائه ، عذب الخلق كمائه ، طلق اليد كفيضه ، ضافى المعروف كأرضه ، لكان هذا الوادى الحبيب جنة الله فى الدنيا ، أزلفها لجنس من خير الأجناس ، خلقه وسطاً بين الملائكة والناس ! ولكن وما أسخف الحياة مادامت فيها لكن !

خواطر مهاجر

(١٩ أغسطس سنة ١٩٤٠)

— ١ —

تفيأ كعادته كل يوم ظلال الكافورة الغيناء من قهوته المختارة على شاطىء النيل الجميل فى « المنصورة » بلد الشعر والسحر والجمال والفتنة وكان مجلسه تحت هذه الدوحة الفينانة أشبه بالعش الناعم قد احتضنه النهر وحنت عليه الغصون وتنفس فوقه الماء بالنسيم الرطب فأصبح للحس الشاعر قطعة من رياض عدن ، أو بقعة من بقاع عبقر ! فإذا أضفت إلى جمال المكان وبهجه المنظر ، أنس الصديق المخلص ، ورقة الجليس المهذب ، و بشاشة الوجوه النامّة عن الود ، وعطف القلوب المتآخية فى الأدب — جمعت فى ذهنك صورة مقاربة للحياة الروحية الوادعة التى يحياها هذا المهاجر فى زمن روعت الحرب فيه معالم الأرض ومجاهلها حتى ما كان ممتنعاً منها على شرور الإنسان منذ الأبد كأجواء السماء وأثباج البحر وقفار البيد .

مال ميزان النهار وأوشكت جمهرة النادين من الأهلين والمهاجرين أن تنصرف عن مناضد القهوة الحافلة ، فلم يبق إلا جماعة هنا وجماعة هناك من الذاهبين إلى (رأس البر) أو الآيبين منها ، جلسوا يستروحون من عناء السفر ليستأنفوه بعد الظهيرة . وسكت النداء عن السقاة فجلسوا يرفهون عن أقدامهم على أبواب القهوة وانقطع الرجاء بماسحى الأحذية و بائعى اليانصيب ومحترفى

السؤال فناموا متربصين على إفريز الطريق وهمدت الأصوات والحركات حول المهاجر فاتجه بعينه وقلبه إلى النهر الخالد ، وقد ظمىء شاطئاه ونش مجراه حتى سحب الملاحون قواربهم على قاعه . هنالك رأى زمر القرويين الوافدين على السوق يملأون الزوارق فى المَعْبر الذى لم يتغير منذ رآه وهو طفل ، فأتبعهم نظرَه الحالم حتى صعدوا درج الموردة وانسابوا بعصيهم وأخراجهم فى شارع فاروق . فلما مروا به على قرب رأى لهم صوراً غير التى عهدها لآبائهم وهو يافع .

كان الغالب على آبائهم الجسامة والوسامة والسذاجة والصحة وكان بين أبدانهم الوثيقة ولحاهم المرسلة وثيابهم الفضفاضة وعمائمهم الضخمة تناسق عجيب يملأ النفوس مهابة وروعة . فإذا حادثتهم فى شىء من الأشياء ، أو عاملتهم فى أمر من الأمور . وجدت صفاء القلب مشرقاً فى الحديث ، وأثرا الدين طاهراً فى المعاملة . وكنت تخالط سوادهم أو آحادهم فلا ترى إلا عفة فى القول ، وصراحة فى الفعل ، وقناعة بقسمة القدر ، وزهادة فى مال الناس ، ومساهمة فى تكاليف العيش ، ومواساة فى محن الدهر ، ونية صادقة فى أن تكون القرية للكل ، وأن يكون الكل للقرية .

ذلك لأن الرزق كان أكثر من الناس ، والرضا كان أوسع من الهمّ ، والأمل أطول من الحياة !

زِدْ على ذلك أن أولئك الآباء السعداء ما كانوا يعرفون عداوة الانتخاب ولا دعاية الأحزاب ولا مكاره السياسة ولا تهاويل الحرب ؛ إلا ما كان يقع فى أسماعهم الحين بعد الحين من أخبار الحرب بين (العثمانلى والمسكوف !)

أما فلاحو اليوم فهم كما يراهم ضئال الأجسام قصار القدود مبذوء والهيئة يتبين الناظر فى وجوههم لوائح المرض ، وعلى مظاهرهم دلائل الفقر ثم يتمثلهم

وهم فى طواقيهم الحقيرة و جلابيبهم القصيرة مسوخاً من تشويه الطبيعة ينسجم فيها خبث الطوية مع قبح الصورة !

لم يرث قروى اليوم عن قروى الأمس إلا الجهل . أما سلامة الصدر وسماحة النفس وعفة الطعمة ، فيقولون إنها ارتفعت مع البركة من أرض القرية . فالفلاح يكدح ولا ينجح ، و يسعى ولا يبلغ ؛ لأن عدد الناس زاد إلى الضعف ، وموارده هو ظلت على الضيق . وتشوفت نفسه إلى متاع الدنيا ويده من محصول عمله أو ملكه صِفْر لشره المرابى وطمع المالك ، فاضطر إلى أن يساعد الجهل بالحيلة ، ويرفد الحلال بالحرام ، ويمزج الطيب بالخبيث . وذلك بأخذ من راحته وصحته وخلقه ودينه مالا يعوضه طب الطبيب ولا وعظ الواعظ .

والفلاح لإخفاقه الغالب وحرمانه المتصل ينفس على الناجح ويحقد على الغنى ولعله يعانى حُمَّى الحسد أضعاف ما يعانى من تبريح العلة .

ولقد ركبه الغرور باستفحال الجهل فيه . وألهبه الطمع بإلحاح الحرمان عليه : والجهل إذا طغى خيَّل لصاحبه أنه العلم والحرمان إذا استمر زيَّف فى ذهن المحروم معنى الحياة . والشر إذا دأب على معاندة الطبع أفسد فى نفس الشرير صلاح الفطرة فالفلاح يقول الزور ويعتقده الحق ، ويفعل المنكر ويظنه المعروف ، ويعمل مع الطبيعة فى استثمار الأرض ولا يتفق معها ، ويعتمد على الله فى اكتساب الرزق ولا يتصل به !

والفلاح التام الجهل كالحضرى الناقص العلم ، كلاهما ضحية من ضحايا الانتقال الاجتماعى فى هذا العصر ؛ لأن القروى المغرور يحاول أن يكون مدنيًّا ، والمدنى المفتون يريد أن يكون أرستقراطيًّا ، فقعد بهذا وذاك فشل القدرة دون الغاية . وعيش المسيخ المشيَّأ[1] لا يصلح أن يكون فى نسيج الكون لُحمةً ولا سداة

---

(١) المشيأ : الذى فيه شىء من كل شىء

هذا الفلاح المزيف لا يصلحه تنظيم قريته ولا تجميل داره ؛ إنما يصلحه تربية ذوقه وإرهاف حسه . فإن صاحب الذوق يبنى الدار الجميلة ويخط الحديقة البهيجة ؛ أما فاقده فخليق به أن يجعل القصر زريبة والبستان مزبلة . ووسيلة إصلاح الفلاح التعليم ولاشك . ولكن التعليم وسيلة بطيئة وإن كانت مضمونة . فإذا أردتم سرعة الإصلاح فلم لا تجربون مع التعليم أن تجعلوا مكان العُمَد (كنستبلات) تكون لهم عجرفة الترك وعقلية الإنجليز ؟ إن هؤلاء خلقاء أن يُعلموا الفلاح الجاهل بالفعل كيف يعيش ؟

— ٢ —

كأنما أقبل فيضان النيل فى هذا الموسم متلكئاً منزوراً ليوائم طبع هذا العام فى خصومة السلام وعداوة الخير!

وكأنما كانت كل سنة من عمر الدنيا نشيداً من ملحمة القدَر تتألف أبياته من تفاعيل الخير أو من تفاعيل الشر ليصح منطق الكون فيما ينتج من أفعال الناس ومنطق الطبيعة!

كل شىء من الأشياء قد انحرف اليوم عن وضعه أو خرج عن مداره؛ لأن زلزلة الشر للأرض، وانفجار الدواهى على الناس، لابد أن يحدثا الفساد فى كل معنى، ويبعثا الاضطراب فى كل ذات. فمن توقع فى هذه السنة النازية الجهنمية خيراً أو سكينة كان كمن يتلمس الصلاح فى عمل الشيطان، ويتحسس الطرب فى لحن الحزن!

يُخيَّل إلىّ وأنا أقرأ أنباء الحرب وأطالعُ أحوالَ الناس أن وشائج الإنسانية قد تقطعت بين بنى آدم فوقعوا فى فترة منكرة من فترات الوحشية الأولى، فلا وفاء بينْ الآحاد، ولا ثقة بين الأمم، ولا حِجاز بين النفوس؛ وإنما يعيشون على الترصد والغيلة فى فزع لا يُغبّ وحذر لا يغفل. فإذا أخلف النيل هذا الإخلاف — وهو فى رأى مترجمه « إميل لدْوج » معروف بخصائص الإنسانية العليا من الوفاء والسخاء والعدل — فإن ذلك لا يتنافر مع هذه الفوضى العامة المهلكة التى أصبح فيها الكذب سلاحاً مشروعاً يسمى الدعاية، والغدر سياسة مرسومة تسمى الوقاية، والخيانة خطة مدبرة تسمى الطابور الخامس!

* * *

على أن النيل أوفى منذ أيام فطمَى وزخر ! ففى ذات بُكرة من بُكر المنصورة الغريقة فى النور والفتور والهدوء والعطر ، رأيت من مشرف القهوة شاطئيه الظامئين قد شَرِقا من فيضه بدم الحياة أو بذوب النضار ، فهما يفهقان كما يفهق اليهودى ذو الربو الهرم ! وأبصرت الزوارق التى كانت تجر بالأمس على رمال القاع قد غدت على صفحته الذهبية المتموجة أشبه شىء بالحمام الطائر على حقول القمح إذا استحصدت ، أو بالفَراش المبثوث على رياض الشقائق إذا توردت . ثم صُوِّر لى أن المدينتين المتقابلتين على ضفتىْ النهر المقدس الخالد قد صَغتا إليه بوجوههما وقلوبهما كأنهما تؤديان إليه تحية العرفان ، وإلى الله صلاة الشكر ! حتى الكافورة بالغت أغصانها الشمالية فى التدلى حتى أوشكت أن تقبِّل أمواجه المسلسلة وهى تنساب فى ظلها الظليل شادية بالثراء والغبطة !

حينئذ وجدتنى على الرغم منى عانىَ الوجه له مستغرق الفكر فيه ، يتردَّد فى خاطرى ما يردِّده الحيوان والشجر من تقديسه وتمجيده . ثم قرَّ فى نفسى أن بينى وبين هذه الشجرة القريبة وذلك الرجل البعيد قرابة شابكة ؛ لأنى شعرت أن بينى وبين من يسقيه النيل إخاء من رضاع الماء كما يكون بين الولد والولد إخاء من رضاع اللبن ! ووضح فى ذهنى الآن معنى ما يقول الناس من أن علاقة الفرد بالأمة هى علاقة الأخوّة ، وعلاقة الأمة بالوطن هى علاقة الأمومة . وكما يتجه فى لحظات الصفاء الروحى فكر الأخ الممنوح إلى أخيه المحروم ، اتجه فكرى فى هذه الجلوة النفسية إلى ثرانا المكروب وأكبادنا الحرّى فى صحارينا الشرقية والغربية . فقلت لنفسى وأنا أردد الطرف السادم فى تيار النهر الجارف ودواراته المدوّمة ولججه الفائرة : كيف خفَّ على ضمائر ذوى العلم

والرأى في وزارة الأشغال أن يدعوا هذا الفيض الحيوى العظيم يتدفق أربعة أشهر فى لهوات البحر الأبيض دون أن يحبسوه بحيلة من حيل الفن الهندسى ليحيوا به موات الناس والأرض !

لو كان لمهندسى الرى فى بلدنا مطمح تشرف نفوسهم عليه غير أن يكونوا موظفين يسجلون للمناسيب ويضبطون المناوبات ويتعهدون الجسور ويترقبون العلاوات ، لوصلوا ما انقطع من أبحاث (ولكوكس) و (سرّى) حتى يبلغوا بها الغاية التى يكون بعدها كل سهل واحة وكل تل غابة . ولكن مهندسينا كسائر أهل الفكر فينا لا يعملون إلا للعيش ؛ فاذا ضمنوه هدهدوا كسلهم الرخىّ اللذيذ على كرسى العمل الدوار فى المكتب ، أو على كرسى الهضم الهزاز فى المنزل !

* * *

قالت نفسى وقد ساءها أن أتهم العلماء والمفكرين بقلة الوفاء بعهد الضمير : لعلهم لا يوفون بعهود الوطن والفكر إلا إذا قدّمت الأمة إليهم العرائس كما كانت تقدمها إلى النيل من قبل .

فقلت لها : لا جرم أن العرائس أو الجوائز هى أقوى الحوافز لقرائح العلماء والأدباء والفنانين ، لأنهم خُلقوا لأنفسهم قبل أن يخلقوا للعلم والأدب والفن ؛ فإذا لم يجدوا الجزاء على ما يبذلونه للناس ضنوا به أو أنزروه ، ولكن النيل خلق لغيره كما يخلق النبى المرسل والزعيم الملهَم ؛ فوجوده أن يفيض ، وعمله أن يعطى . ومن ذلك كان أصدق خلاله الوفاء والكرم ، فهو منذ اتصلت منابعه بعيون السماء ، وانشقت مجاريه فى صدور الأرض ، لا يزال يفى بوعده ويجود برفده على القدْر الذى يريده الله لا يملك زيادته ولا نقصه . وما كان الوفاء

والسخاء غريزتين فى المصرى الحر إلا لأنه خلق من غرين نهره الحبيب ومائه؛ فهو لابد موف بما عاهد عليه وإن تثاقل. والتثاقل مثبط عارض ينشأ من غفوة الضمير أو من كلال الذهن فمتى نبه الدين الضمير وشحذ العمل الخاطر، عادت النفوس إلى جوهرها الخالص فسخت بما تملك. ويومئذ لاتجدين يا نفس عالماً يكسل، ولا غنيًّا يبخل، ولا سياسيا يكذب، ولا زعيما يخون، ولا صانعا يغش، ولا عاملا يهمل؛ وإنما يجرى أبناء النيل على أعراق النيل، ينشأون أطهاراً، ويشبون أحراراً، ويعملون أخياراً، ثم يذهبون أبراراً، كما يذهب هذا النهر العظيم بعد أن يخصب الجدب وينبت الحب ويرفع الحضارة ويقر السلام.

— ٣ —

أخذت نوافح الخريف الأولى تتنفس منذ أسبوع على وجه المنصورة رخية ندية . وللخريف على شطئان النيل الشرقى وهو فى عنفوان الفيضان سحر لايبلغ كنهه الشعور ولا تعبر عن تأثيره اللغة . فللسماء اللازوردية على صفحاته ألوان وأحوال ، وللسحب الرقاق البيض على حواشيه أطياف وأظلال ، ولشمس الأصيل على مويجاته المرتعشات الحمر انكسار يخطف البصر ، كأنما ذاب قرص الشمس فهو يتدفق من السماء على الماء ، أو انبجست على النهر من الأفق الغربى عين من ذائب الماس لم يدخل علمها فى الكيمياء . وللأبكار والعشايا أنسام طيبة الشميم كأنما تنقل عن رياض الفردوس . والطبيعة الريفية عطار حاذق يعرف كيف يفتق الطيب من سنابل الرز وأكواز الذرة وأقناء النخيل ونوار التيل ولوز القطن ، ومما ينبت على حفافى الترع والطرق من أشتات الريحان والبقل وللمنصور يين والدقهليين على الجملة صباحة ووداعة يزيدها الخريف حلاوة وشاعرية . وإن بينهم وبين طبيعتهم المشرقة الجميلة من التآلف والتجاوب ما لاتجده بين الناس والطبيعة فى مكان آخر والناظر فى أخلاق هذا الإقليم ومزاياه يرى أن مثله بين أقاليم مصر كمثل أوربا بين قارات الأرض ، تميز كما تميزت بالنبوغ والمدنية والجمال ، وتألف تاريخه القديم والحديث من فصول وضاءة فى الوطنية والعبقرية والبطولة .

فى الحروب الصليبية كان للمنصورة وإقليمها شرف القضاء على حملتها الأخيرة . وكان الجيش المصرى قد ارتد إليها مهزوماً . وامتحنه القدر القاسى فمات ملكه الصالح وقتل قائده فخر الدين ، فانتشر الأمر على جنوده ، واستبهم

الرأى على قواده ، وكاد الرجاء من نجاة مصر ينقطع لولا أن نهض الظاهر بيبرس بالمماليك ونهض معه أهل المنصورة ، فأقاموا المتاريس فى الطرق وجعلوا من دورهم قلاعا يرمون من نوافذها الفرنسيين بالأحجار والقذائف ، حتى قتلوا الكنت القائد « أرتوا » ، واستأصلوا فرقته ومزقوا الفرق الأخرى . ثم كانت الهزيمة الحاسمة فى فارسكور ، حيث أبيد الجيش العدو وأسر الملك القديس سجينُ بيت ابن لقمان ومضروبُ الطواشى صبيح .

وفى الغزوة النابليونية كان للمنصورة وإقليمها فضل الجهاد السابق الصادق؛ فقد ثاروا يوم السوق على جنود القائد « دوجا » وأعملوا فيهم السلاح حتى أفنوهم . وسجل التاريخ فى ثبت الخلود من أسماء القادة فى هذه الثورة : الأمير مصطفى كبير محـــــلة دمنة ، وعلى العديسى شيخ القباب ، وحسن طوبار زعيم المنزلة .

وفى الثورة المصرية على الاحتلال كان للمنصـورة وإقليمها فى البطولة الوطنية مواقف سارت أمثالاً مضروبة فى الإيثار والتضحية ، ولا تزال أسماء الشناوى والجيار وعبد النبى والأتربى عناوين لفصول خالدة من كتاب الجهاد الوطنى المقدس .

* * *

على أن المزية الظاهرة للدقهلية هى انطباع أهلها على الأدب والفن حتى العامة و السوقة . وإنك لتتبين أثر ذلك فى كل ما يصدر عنهم من ثمار العقل والقلب حتى القانون والسياسة وحسبك أن يكون من نوابغها فى الأدب : على مبارك ، ولطفى السيد ، وحسين هيكل ، وعوض إبراهيم . ومحمد العشماوى ، ومحمد عوض محمد ، وإبرهيم رمزى ، وعبد الله عنان ، وصالح جودت الكبير . وفى الشعر : إسماعيل صبرى ، وعلى محمود طه ، والهمشرى ، وكامل الشناوى ،

وصالح جودت الصغير ، ومحمد عبد الغنى حسن ، والوكيل . وفى الغناء والموسيقى : أم كلثوم ، ورياض السنباطى ، ونجاة على ، وسعاد زكى ، والدكتور الحفنى . وما اقتصرت على من ذكرت إلا لأنهم عُرفوا بالأسماع فى أقطار العروبة فلا يضعف بهم المثل . والواقع أن فى كل بلد من بلاد هذا الإقليم الفنان هيكلاً لعطارد تفاديه نفثات الأولمب ، وتراوحه نفحات عبقر !

أقامت جريدة الإصلاح فى السنبلاوين لمجلة الرسالة حفلة تكريم وترحيب ، وشاء زميلنا الكريم صاحب الجريدة أن تكون حفلته مظهراً من مظاهر الأدب الإقليمى فى صورة من صور العطف الجميل ؛ فدعا إليها جمهرة من أدباء البلد المختلفين فى الجنس والزى والثقافة ، فأسمعونا على موائد الشاى الحافلة أفانين من النثر المشرق الأسلوب ، والشعر المحكم الأداء ، والزجل البارع النكتة ؛ فعجبنا أن تجتمع هذه الجملة المختارة فى هذا البلد المغمور ؛ ثم علمنا أن فى كل بلد من بلاد الدقهلية عكاظاً يتبارى فيها صاغة القوافى وحاكة الفِقر !

يالله للريف المسكين ! لقد غبنته المدينة فى كل ما ينتج من مادة وأدب : ففلاحه يكد ولا ينال القوت ، وشاعره يغنى ولا يجد السامع ، وصحفيه يجاهد ولا يلقى الجزاء !

* * *

سحرتنى مفاتن الخريف والريف فى المنصورة فما ينفك ناظرى وخاطرى يسبحان فى جو مشرق عبق من حاضرها الجميل وماضيها المجيد . وكنت الساعة أتتبع بالخيال كتائب الصليبيين وهم يسيرون على ساحل النيل الأيمن من دمياط إلى المنصورة ، يقود الحملة الأولى « جان دى بيرين » ، ويقود الحملة الأخرى « لويس التاسع » ، حتى رأيتهم على الثرى الخصيب الحبيب جزراً للسيوف

وطعاماً للوحش . وسرعان ما انتقل ذهنى إلى ساحل البحر الأبيض ، فرأيت أحفاد أولئك الصليبيين (١) يزحفون من السلوم إلى الإسكندرية فى زى غير الزى وسلاح غير السلاح وعدد كأرجال الجراد ! فقلت لنفسى وهى تضطرب بين الرجاء والخوف : إن رب الكنانة يا نفس عسى أن يبعث (صلاح الدين) فى هذا العصر ، وأن يجعل فى (السلوم) السلامة كما جعل فى (المنصورة) النصر !

---

(١) إشارة إلى الحملة الايطالية الألمانية على مصر

— ٤ —

سار (موكب الرؤية) [1] (من مركز البندر) فى صفين طويلين من الجنود المشاة تتقدمهم فرقة الموسيقى فى شتى آلاتها وشاراتها ، وتتلوهم طوائف الصوفية فى مختلف هيئاتها وإشاراتها ، وعشاق شهر رمضان محتشدون على جوانب الطرق وفى طنوف المنازل يجتلون الموكب المهيب ووجوههم يُشرق فيها السرور كأنما يستقبلون وافداً من الملأ الأعلى سيغمرهم بالسرور ويطهرهم بالنور ويزكيهم بالبركة . فلما أتم الموكب خطاه الوئيدة الموزونة تفرق ، واجتمع الناس على شاطىء النيل يرتقبون بشرى المحكمة الشرعية بطلعة الهلال الوليد ! ولشهر رمضان فى رأى الريفيين هلال غير أهلة الشهور ، يولد من نور الجنة ، ثم يدرج فى رياض الشفق دروج الطفل المدلل الموموق ، حتى إذا أبدر واستحار شبابه تردد كل يوم بين المشرق والمغرب فى موكب ذاكر من كرام الملائكة ، يختلط فيه تسبيح القائمين بذكر الصائمين ، ويمتزج به سليل النور بسليل الطين ؛ وتلك هى الأيام المباركة التى تتصل فيها السماء بالأرض من كل سنة .

وهلال شهر رمضان فى لغة الريفيين هو رمضان نفسه . لذلك يتخيلونه رجلاً له حياته وعمره وأجله . فإذا لم يبق منه إلا ربعه الأخير تمثلوه فى محفته السماوية محتضراً يعالج غصص الموت بين أناشيد الحور وصلوات الملائكة ، فيندبونه فى البيوت والمساجد ، ويرثونه على السطوح والمآذن ، ويبكونه يوم الجمعة اليتيمة أحر بكاء .

قصفت المدافع المصرية فى كل محافظة وفى كل مديرية فى لحظة واحدة

---

(١) رؤية هلال شهر رمضان ، ولها احتفال تقليدى معروف

وعلى فترات محددة ، فافتر البشر على الشفاه ، وجرت التهنئات على الألسن ، واستولى على المنصورة شعور نقى هادىء خاشع لا يصدر عنه الا الـكلم الطيب والعمل الصالح . وشهر رمضان يرجع المسلم الصادق نقياً كقطرة المزن ، طاهراً كفطرة الوليد ، لاينغمس فى منكر ، ولا يخف إلى شر ، ولا يلغو فى حديث ، ولا يبغى فى خصومة . ومن ذلك كان كل حى سعيداً فى رمضان ، ماعدا الرومى (١) والشيطان !

كان فى كل طلقة من طلقات المدفع المبشر تنبيه إلى فضيلة من فضائل الصوم فالمؤمن حين دوّى فى سمعه صوت البارود تيقظت فى نفسه بوازع الخير ، ففكر فى توثيق ما وهن بين القلب والدين ، وتقريب مابعد بين الغنى والمسكين ، وتأليف مانفر من القلوب المطمئنة ، ووصل ما انقطع من الأرحام الشابكة ، ولـكنه وا أسفاه لم ير فى هذا العام المآذن تتلألأ فى أجيادها قلائد النور ، ولا فوانيس الأطفال تخنق شموعها فى الشوارع والدور ، فتذكر أن هناك على ساحل البحر الأبيض وشواطىء بحر المانش مدافع غير هذه المدافع ، تنطلق لتطفىء كل نور ، وتظلم كل قلب ، وتخرب كل عامر ، وتقتل كل حى ، وتقطع كل سبب ، وتغشى أجواء السماء بدخان من البوار والدمار لايقوم تحته قائم ولا ينسم فيه حى !

ليت الذى حوّل لوثر هتلر ، ومسخ فى هتلر الإنسانية نازية ، جعل فى كل ركن من هذا الجحيم الأوربى رمضان بحكمته وطبيعته وعقيدته ! إذن لـكان كل مدفع للسلام ، وكل مصنع للخير ، وكل مخترَع للحياة ، وكل مورد للناس ! « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولـكن لا يزالون مختلفين إلا من

---

(١) الرومى لايكون سعيداً فى رمضان لأن الناس يصومون فيه عن الخمر ، والأروام أصحاب الحانات فى مصر .

رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ! » .

إن الفرق بين مدافع رمضان ومدافع هتلر ، كالفرق بين القرآن و (كفاحى)[1] كتاب الله دستور الخالق لجميع خلقه ، فهو خير مطلق وأمن شامل ، وكتاب هتلر نزغ من الشيطان للألمان ، فهو شر محض وفزع دائم . فأنا حين أسمع مدفع شهر رمضان فى الغروب أو فى السحر ، أعتقد أن جياعاً سينالون القوت ، وضُلالاً سيجدون المثوى ، وجوارح ستكف عن اجتراح الإثم ، ونفوساً سترتاض على مكاره الفضيلة ، وأمماً فى جميع بقاع الأرض سيغمرهم الشعور السامى الجميل بأنهم يسيرون إلى غاية الوجود قافلة واحدة ، ممتزجة الروح متحدة العقيدة متفقة الفكرة متشابهة النظام متماثلة المعيشة .

وأنا حين أتصور مدافع هتلر أعتقد أن كتائب من الشباب الغريض قد صهرتهم النار فهم حمم على وجه الماء ، أو مزقتهم الشظايا فهم مِزَق على أديم الثرى ؛ وأن آلافاً من الدور الأنيسة قد نبت مراقدها فهى حبوس ، وخمدت مواقدها فهى رموس ، ثم دكتها القنابل فهى أنقاض على أشلاء ، أو أحرقتها الصواعق فهى غسلين على فحم ؛ وأن ملايين من الأطفال قد حرموا عطف الأب وحنان الأم ، فهم يعانون فى مطارح الغربة غصص الحرمان ومرارة اليتم ؛ وأن ألوفاً من الأيامى والثكالى أصبحن بغير عائل ولا مأوى ولا أمل ، فهن يمشين فى ثيابهن السود بين الأطلال والخرائب كأنهن الأطياف الحزينة تجوس فى الليل خلال المقابر ؛ وأن ملايين من العمال والصناع أدركهم التعطل وقعد بهم الكساد فظلوا يكابدون حسرة الحاجة

(١) كفاحى كتاب ألفه هتلر ذكر فيه خطته وسياسته .

فى أنفسهم ولوعة الهم فى أهليهم ، وباتوا يضطربون بين البؤس واليأس اضطراب القنيص لايجدون مخلصاً للحياة ولا للموت .

إن الحرب فى تاريخ الديمقراطية الإسلامية لم توقد نارها إلا دعاء إلى سبيل الله ، أو ابتغاء لخير الناس ، أو ذياداً عن سلامة الوطن ؛ أما أن تنهب الممالك لأنك تريد أن تأكل ، وتسحق الشعوب لأنك تريد أن تنتقم ، وتخضع الدول لأنك تريد أن تسود ، فذلك ماضي البربرية الحمراء ، وحاضر الطغيان الأسود !

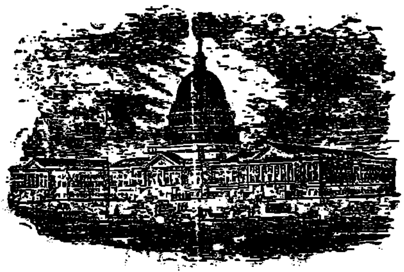

فى مخبأ الفيشاوى

(٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٠)

جلستُ أنا وصديقى شاعر الجندول فى قهوه « الفيشاوى » عشية يوم الأحد الماضى نتحسى أقداح الشاى العنبرى الهنىء ، بعد إفطار من طهو رمضان الدسم المرىء ؛ وكان الظلام قد هب يتموج لطيفاً بين المصابيح الزرق كأنه ظلام الأجنحة الخفاقة فى جو بنفسجى قاتم ؛ والحركات الهامدة والأصوات الخاشعة قد أخذت تتخلص رويداً رويداً من فترة الصيام وسكرة الطعام ، فهى تنتعش فى البيوت ، وتنتشر فى الشوارع ، ويقبل الناس على المقاهى فيلقون ثقل بطونهم على مقاعدها ليعالجوها بالأفاويه المنبهة والأشربة الهاضمة . وكان صديقى الشاعر قد طفق بعد أن شرب شايه يكركر فى شيشته الأعجمية وقد انمحى من خياله السباح جندول البندقية وخمرة الرين وبحيرة كومو ، فلم يعد يشعر إلا بعطر الشرق وسحر الشرق ونور الشرق . وتراءت له من خلال ما يجلوه الحى (الحسينى) على عينيه من مختلف الأجناس والألوان والصور ، بقايا الملك الإسلامى المعظم ، ودلائل المجد العربى الخالد ، فلم يتمالك أن قال فى لهجة تنم على الأسى والأسف :

— ياضيعة الشعر ويا ضلَّة الشاعر إذا لم يُسجِّل هذا الملك فى ديوان ، ويخلد هذا المجد فى ملحمة !

وكان شعورى فى تلك اللحظة يجرى مع شعوره من غير تنبيه ولا توجيه ، فقلت له على الفور :

— لو أن شعراءنا فى الماضى والحاضر قد خلصوا كما خلصت أنت الساعة

من أنانية الفكر وفردية الشعور لوجدوا فى حضارتنا الزاخرة وتار يخنا الحافل أفانين عجيبة من الشعر القصصى توحد شتات الهوى وتكمل نقص الأدب؛ ولكنهم كانوا وما زالوا ينقلون عن ذاتية غالبة وطبع أثر فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه ومدارج حسه ، والأغنية لواعج لمغنى فلا تعبر عن المعانى العامة ولا تهتف بالأمانى المشتركة . ولعل (ملاحك التائه) يرسيه القدر الهادى على شطئان الشرق الجميلة فيقبس من شمسها نور إيمانه وأمانه ، و يأخذ عن إلهامها سحر أوزانه وألحانه !

* * *

غصت القهوة على عادتها فى ليالى شهر رمضان بالسامر ين من كل لون ومن كل طبقة ، وكان القمر يضرب بأشعته الباردة الرخية فى ضوء المصابيح الداخلية فيشعشه ويقويه ، والمذياع على جدار القهوة ينقل الأغانى المسؤومة فى فرقعة وصخب ، والجالسون يتجادلون فى السياسة أو يتحدثون فى الأدب ، والسقاة يذهبون و يجيئون وألسنتهم لا تفتر عن ترديد هذه الجمل « واحد كشرى مضبوط . فلوسك يا محمود . . . أيوه حاضر . . . ولعة لمين ؟ . . . واحد سادة ، مستوى ز يادة . . . »

وعلى حين فجأة سكت المذياع وانطلقت صفارات الإنذار تردد نعيبها المتقطع ، فأطفىء النور ، وأخذت الناسَ زلزلة من الفزع ، فنهضوا وتجمعوا ودخل بعضهم فى بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا دهمتها العاصفة ثم تدافعوا متدفقين فى داخل القهوة وهى قبو مظلم مسلوك تحت بيت ضخم من البيوت القديمة وعلى جانبى هذا القبو حجرات ضيقة من غير أبواب للخلوة أو للعب . فدخلت أنا وصديقى إحداها فوجدنا فيها شيخاً هادئاً يكركر ، وشاباً

مضطرباً يثرثر ، وآخرون قد ألجمهم الذعر فهم فى وجوم ذاهل ثم أنصت الناس ونظروا، فلم يسمعوا رعداً يقعقع ، ولم يروا برقاً يلعلع ، فتسايرعنهم الخوف ، وتذكروا أن القدر لامفر منه ، وأن القضاء لا حيلة فيه ؛ فأخذوا يتنادرون على الصفارات والغارات ، ويجددون ما أريق من الأكواب وأطفئ من الشيشات . والمصرى أربط الناس جأشاً فى الخطوب متى زايلته بوادر الجزع ؛ لأن إذعانه لقضاء الله يكسر حدتها عنه ، وأخذه المكاره بالمزاح يضعف أثرها فيه . وهو فى ذلك كالانجليزى ، إلا أن ثبات المصرى يرجع إلى حرارة يقينه ، وثبات الإنجليزى يرجع إلى برودة طبعه : هذا يبلد ثم يجــــلد ، وذاك يتفرق ثم يتماسك

* * *

ليت الذى صبغ وجوه المصابيح باللون الأزرق[1] استطاع أن يصبغ به وجه القمر ! لقد كان أجدادنا القرويون يقولون : « لم يبق من ليالى الهناء غير ليالى البدر » . فهل يصح هذا القول إذا قلناه اليوم ؟ إن بزوغ القمر أمسى نذيراً بالغارة ، ودليلاً للجارة إلى قتل الجارة . . فمن يزعم الآن أن الليل لا يزال لباساً، وأن الناس لا يزالون ناساً ، فقد جهل أن العالم الحاضر يسوسه الشياطين ، فهو يرتكس ليسقط ، وينتكس ليموت !

قال لى صاحبى وقد أعلنت الصفارة بصوتها المتصل زوال الغارة الأولى :

قم بنا نتلمس الطريق إلى مكان آخر نتنفس فيه من كربة الحر والحرب . فقلت له وأنا أحبسه على كرسيه : هنا يا صديقى مخبأ هيأته لنا وقاية الله ، فإذا تركناه وأدركتنا غارة أخرى فأين نختبئ ؟

---

(١) صبغت المصابيح العامة باللون الأزرق فى زمن الحرب تعمية للطائرات المغيرة

— ليس فى القاهرة ولا فى غير القاهرة مخبأ حصين يعرفه الجالس فى بيته أو السائر فى طريقه . ولا أدرى أى ضرب من ضروب الغفلة أطبق على مصلحة الوقاية المدنية فلم تقم بإنشاء المخابىء الصالحة على وضعها الصحيح ! هل أخذوا على الدهر عهداً بالأمان ، أم حسبوا أن بضعة أخاديد فى أمكنة متباعدة مجهولة تعصم سكان القاهرة وهم فى المنازل أو فى الطرق من شظايا القنابل ؟

ليس من صالح الرأى ياصديقى أن تجهز قصور السراة ودور الحكومة بالمخابىء المسلحة المريحة ، ثم يقال للشعب المسكين تبرع بالقرش لنشق لك لحودا فى ظاهرها الحمام المنقض ، وفى باطنها الزحام المهلك !

فقال لى الشاعر وهو يتمكن فى مجلسه : إن سياسة (الملاح التائه) لا تزال هى سياسة الحكومة فى كل أمر . فاسأل الله وحده أن يجعل لهذه الأمة مرفأ فى كل عاصفة ، وملجأ من كل غارة !

أمة التوحيد تتحد

١١ نوفمبر سنة ١٩٤٠

قالت الأهرام فى عدد يوم الجمعة الماضى : « إن هناك بحثاً يدور الآن فى بعض الدوائر العربية حول تكوين حلف عربى يواجه به العرب الظروف الحاضرة التى يجتازها العالم اليوم . والمفهوم أنه إذا انتهى هذا البحث التمهيدى فستدعى الحكومة المصرية رسمياً إلى الاشتراك فيه . أما الدول التى يشملها هذا الحلف فهى : مصر وسورية وفلسطين والعراق والحجاز ؛ وقد يتسع نطاقه فيشمل إيران وأفغانستان »

هذا التفكير على أى شكل كان يدل على تيقظ الروح الهاجد فى الجسم العربى ، ويبشر بتجمع القوى الشتيتة فى أعضائه ، ويطمئن قلوب الأحرار الأبرار الذين تتفارظهم الهموم[1] على متسقبل العرب والإسلام والشرق وكان من أعجب العجب أن يرى العالم العربى الخطوب تتواثب على جوانبه ، والنوازل تتفاقم فى أحشائه ، ثم تظل كل دولة من دوله سادرة فى مشاعب هواها ، تتلهى بالنظر الغرير إلى حركات زعمائها وهم يتصارعون على المناصب ويتنازعون على الحكم ، كأن السلامة والسلام أمران يجريان من حياتها مجرى الأمور الطبيعية كالنوم واللذة والضحك ، فهى لا تشغل بهما البال ولا تدير عليهما الفكر !

وقد قلنا منذ عام حين تحلبت أشداق النازية على حدود الدول الصغيرة :

---

(١) تفارطته الهموم أصابته فى الفرط أى الحين ، وقيل تسابقت اليه

إن الدويلات الضعيفة كان لها فيما مضى من الزمن السعيد حارس من سلطان الدين وحكم القانون وعرف السياسة ؛ فكانت تعيش فى ظلال الخلق الإنسانى العام حرة آمنة ، لا تجد من جارتها الكبرى إلا ما يجده الصغير من عطف الكبير ، والفقير من عون الغنى . فلما كفر النازيون والفاشيون بشرائع الله وقوانين الناس أخذوا العالم بسياسة السمك ، ففسد النظام ، واختل التوازن ، واضطربت الحياة ، وذل الحق ، وأفلس المنطق . فليس لها اليوم من عاصم إلا أن تنضوى إلى الديمقراطية التى تجاهد فى سبيل السلام والحرية والمدنية بجانب جهادها فى سبيل نفسها ، حتى إذا انتصرت على هذا الطغيان المسلح الكافر نظرت هى فى يومها وفى غدها ، فتعالج ضعفها بما تعالج به الطبيعة ضعف النمل والنحل والقرود ، وهو التجمع والتعاون ، فيكون بين البلاد المتجاورة كشعوب الإسلام الأربعة عشر شبهٌ ما بين الولايات الأمريكية الثمانى والأربعين : من اتحاد السياسة الخارجية ، والدفاع العام، والدستور المشرع، والرئيس الحاكم . وإذن لا يبقى على الأرض أمة صغيرة يقوم على استعمارها النزاع ويميل من جراها ميزان السلامة

* * *

إن من يستمع إلى الإذاعة العربية من بلاد المحور يرتعد فرقاً من هذا الإخلاص الإيطالى للاسلام ، وذلك العطف الألمانى على العرب . ومن شقاء العقل أن نحمله على أن يسيغ هذه الدعاية الغريبة التى اتخذت واأسفاه ألسنتها من بعض العرب الذين فتنهم المال الغرور لتقول : إن فيالق (الدتشى) وكتائب (الفوهرر)[1] لم تحشد فى صحراء مصر وجبال البلقان إلا لتنقذ العرب والمسلمين من

---

(١) الدتشى لقب موسولينى ، والفوهرر لقب هتلر

عذاب الديمقراطية البريطانية !

ليت شعرى من الذى حملهم هذه الرسالة وأوجب عليهم هذه التضحية ؟ لسنا إخوتهم فى الجنس ولا فى العقيدة ولا فى المنفعة حتى يكون لما يبذلون فى سبيلنا من الأموال والأنفس مسوغ ولسنا من السذاجة والغفلة بمكان القطيع الذى حالف الذئب الجائع الطامع على الكلب الحارس الأمين . إنما نحن شعب مختار حكم العالم فى ماضيه ، وتمرس بالشدائد فى حاضره ؛ فله من بصيرته الموروثة نفاذ إلى صميم الخديعة ، ومن تجاربه الأليمة سداد فى مزالق الفتنة ؛ فلا نجهل أننا نحن الغنيمة التى يحتربون عليها ، والطعمة التى يختصمون فيها . وكلما أرسلوا الأمواج من مذابيع (بارى) و(برلين) تحمل إلينا منهم الشوق المبرح والحدب الشـــــديد ، تضاممنا من الفزع ليتقى بعضنا ببعض سهام كيو بيد[1] الأثيرية

هذا التضامُ هو التكتل الذى يصير إلى الوحدة والوحدة التى يقتضيها الدفاع عن النفس ويدعو إليها الخوف ، أوثق وأصدق من الوحدة التى يوجبها النزوع إلى الأنس ويبعث عليها الأمن .

لقد كان العرب والمسلمون فيما غبر متواكلين متخاذلين ، لأنهم كانوا وهم على هذه الحال يستطيعون فى حمى الديمقراطية السمحة أن يعيشوا بوجه من الوجوه ، ولكن ماذا عساهم يصنعون وهذه الدكتاتورية الباغية تزحف شعبتاها إلى الشرق عن طريقين مختلفين : شعبة تبغى استغلال البلاد لأنها بطبيعة أرضها فقيرة[2] ، وشعبة تريد استعباد الناس لأنها بطبيعة عنصرها على زعمها سيدة[3] وإذا دهمك من اليمين ومن الشمال الجائع السلاب والمتكبر

---

(١) كيوبيد أو كوبيدون : إله الحب عند الرومان (٢) أريد إيطاليا

(٣) أريد ألمانيا

الغلاب فقدت وجودك المادى والأدبى بين السلب والغَلْب ! ثم لا تدرى أى شيء تكون بعد ذلك !

فاتحاد الأمم العربية أمام هذا الخطر الهاجم ضرورة خلقتها غريزة حب الحياة . وفى اعتقادى أن الأمر فى هذا الاتحاد لن يقف عند مناقشة الفكرة ومواضعة الرأى ، ولكنه سيتعداها إلى إمضاء العزيمة وإنجاز العمل . ذلك لأن كل أمة من هذه الأمم تشعر فى وسط هذه الكوارث الداجية بما تشعر به الشاة الشاردة عن القطيع وإن أسهل على الطبيعة أن تعيد اتحاداً ألفه الله من صلة الدم ونسب الروح ، من أن تبدىء اتحاداً ألفه الشيطان من النازية والفاشية والوثنية ، فإن هذه النحل المجرمة أضداد تنسجم فى الباطل وتتنافر فى الحق ، ولا بد أن يدركها داء البغى فتخر ضارعة صريعة أمام قوى الخير والعدل ولو بعد حين !

انجلترا هي المثل

(٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠)

قال شوقي : « وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت » . . فقال تشرشل : صدق ، وانجلترا هي المثل ! وكأنه حين قال : « فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا » قال بيتان : صدق ، وفرنسا هي المثل !

ولكن الذي يضع القاعدة بالقول لا يستوي هو ومن يطبقها بالفعل . وشتان بين من يطبقها على وجه السلب ، وبين من يطبقها على وجه الإيجاب !

إن تحريك اللسان في الفم أسهل على المرء من تقليب اليد في العمل . وإن رجل التجربة والخبرة ، أصلح للحياة من رجل النظر والفكرة . وإن تنشئة الفرد على حب الفضيلة أدخل في إمكان المربي من بناء الأمة على أساس الخلق . . . ذلك لأن تهذيب النفس عمل البيئة والقدوة والعادة ، وتهذيب الجنس أثر الانتخاب الطبيعي والدهر الطويل . ومن الكثير الغالب أن تجد واحداً تصلح فيه كل غريزة ، ولكن من القليل النادر أن تجد شعباً يصلح فيه كل واحد . ولعلك لا تجد في عمر الإنسانية شعباً سلم جمه بسلامة آحاده غير الشعب العربي في الماضي والشعب الإنجليزي في الحاضر . ومرجع ذلك فيما نظن إلى انعزال العرب في الصحراء ، وانعزال الإنجليز في البحر . والعزلة في مثل هذه الحال تنفي خبث الاختلاط عن مزايا العنصر الأصيلة فتنضج وتخلص كما ينضج الدر اليتيم في قاع البحر ، ويخلص الحجر الكريم في جوف الأرض . فلما خرج العرب للفتح ، ثم خرج الإنجليز للاستعمار ، ضيع

بنو الصحراء خصيصتهم لأنهم انماعوا فى الشعوب الأخرى بالمصاهرة ، وحفظ بنو الماء مزيتهم لأنهم انقبضوا عن الناس وترفعوا عن الأجناس فظلوا فى عزلة .

كان الناس يقولون إن انجلترا أدركتها أعراض الهرم من دوام النعيم وطول السلامة ، ويعجبون مع ذلك أن تملك سدس العالم وتستمكن فيه والإنجليز فى كل أرض قلة ، ووسائلهم فى تملق القلوب ومداهنة النفوس قاصرة ، والتمويه والخداع والاستغفال والمصادفة والحظ عوامل قد تساعد على الغلب ، ولكن فعلها لا يجوز على كل النـــاس ولا يدوم على طول الزمن ، فلم يبق إلا أن يكون فى هذا الشعب العجيب سر من أسرار الطبيعة تنبجس عنه حياته الدفاقة الخلاقة كما تنبجس الحيوات الدنيوية بمظاهرها وآثارها عن الروح المجهول .

فلما أخذت العالَم هـذه الرجفةُ النازية ووقفت انجلترا بقوتها وسطوتها وثروتها ووجودها فى سعير المحنة ، استعلن فى حلك الخطوب ذلك السر فإذا هو الخلق ، ولا شىء غير الخلق ولم تسفر الأيام عن أصدق من هذا المثل الإنجليزى الحاضر لقدرة الخلق العظيم على حياطة الدولة ووقاية الأمة وخلق المعجزة التى تحيل القنوط أملاً والضعف قوة

كانت أوربا فى العـام المنصرم من طول ما هوّلت عليها الهتلرية الباغية قد وقفت صفوفاً متلاصقة متلاحقة من الشباب والحديد والنار ترابط على الحدود لشياطين الصليب الأعقف[1] ؛ وكانت انجلترا من وراء البحر تمدها بالمال والرجال والأسلحة لا تدخر لجزرها شيئاً منها ، ولا تـكاد تخطر على بالها أن العدو سيجد من بين هـذه الصفوف المرصوصة ثغرة يقتحمها ليرميها عنها . ولـكن هتلر هجم

---

(١) الصليب الأعقف : شعار ألمانيا النازية

على أخلاق أوربا قبل أن يهجم على جيوشها ؛ فهتك أستار الدول بالجواسيس ، وبلبل عقائد الناس بالدعاية ، وشرى ضمائر الساسة بالمنى ، وبث فى دخيلة كل أمة دعاة الهزيمة وسماسرة النفاق يزيفون الوطنية فى كل نفس ، ويميتون الحمية فى كل رأس ، حتى تركوا القوم تماثيل من غير خلق ولا روح ثم ارسلوا على هيا كلهم النخرة الجوفاء الدبابات كما ترسل على هشيم الحنطة آلة الحصاد فلم تك إلا أيام تضيق عن فناء القطيع بالوباء السريع ، حتى استكان الضعيف ، واستخذى القوى ، وانبسط ظلام النازية على ممالك كانت بالأمس مسارح للسلطان والمجد ، فأصبحت اليوم سجوناً للأحياء وقبوراً للموتى . ووقفت انجلترا وحدها أمام أوربا الضارعة المصروعة ، وقد فرغ لها الطاغيتان وسلطا عليها فى الغرب والشرق وفى الجو والبحر كل ما ادخراه وأرصداه من آلات الدمار والبوار فى بضع سنين .

كانت خطتها فى الدفاع قائمة فى أكثر ميادين البر على عاتق فرنسا ، فلما وهى هذا العاتق وانحل سقطت هذه الخطة على خلاء . فكان على انجلترا بعد نكبة جيشها فى الشمال وانهيار حليفتها المفاجىء أن تجدد العدة وتسد الخلل وتدفع الموت الهاجم على أراضيها وبنيها من الجهات الأربع ، وكل ذلك كان يقتضى أن يكون لها فى كل أرض جيش ، وفى كل بحر أسطول ، وفى كل سماء أسراب . فلو أنها استجابت لهذه الجدود العواثر ونكلت نكول فرنسا لما خالف ذلك منطق الحوادث

ولكن هنا ظهرت المعجزة وما المعجزة إلا خُلق هذا الشعب المختار ! تجرد هذا الشعب من فرديته ، ونزل عن حريته وثروته ، وجعل ملكه وجهده وروحه فى يد تشرشل ينفقها حيث يشاء وكيف يشاء . وانكب هو على العمل

الدائب ليل نهار ، لا تعوّقه الأخطار ولا تضعضعه الكوارث ، حتى رأيناه فى أقل من خمسة أشهر يفسد علَى الفوهرر خطة الغزو ، ويفوّت على الدتشى فرصة الهجوم ، ويشد على أنفاس أوربا بالحصر ، ويلجىء الطغاة العتاة إلى استجداء المعونة من الأقل ، وابتغاء النصرة من الأذل ! ذلك ولم نسمع خلال هذا الصراع الجبار وذلك الخطر المؤنس أن جنديًا عبث ، أو قائداً خان ، أو وزيراً غش ، أوحزباً نفس على حزب ما نسميه نحن نعمة الحكم

إن الله أمدّ الإنجليز بجيوش لا تقهر من الصدق والصبر والثقة بالنفس والإيمان بالحرية والديمقراطية والأمبراطورية

فياليتنا حين حالفناهم على السياسة والدفاع ، حالفناهم كذلك على الآداب والخلق ! لقد كنا بأخلاق القرآن قدوة للأقوياء ، فأصبحنا وأسلفاه بضلالات الأذهان عبرة للضعفاء

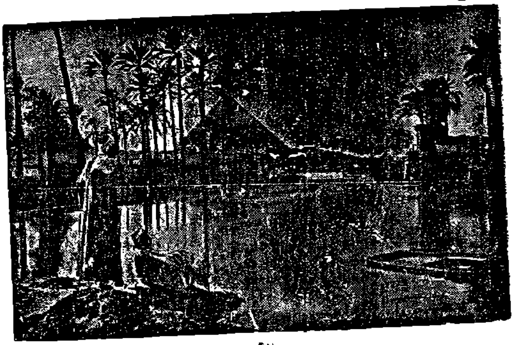

الأخلاق وهذه الحرب

(٩ ديسمبر سنة ١٩٤٠)

جلست ساعة إلى المذياع أقلب مفاتحه على أفواه المذيعين المختلفين فى أقطار أوربا المجنونة ، فخيل إلى أنى انتقلت إلى عالم آخر من خلق الشيطان تقطعت بينه و بين خلق الله وشائج الآدمية ؛ فلا الأيدى تستند فى أفعالها إلى العدل ، ولا الألسن تعتمد فى أقوالها على الحق ، ولا النيات تتجه فى غاياتها إلى الخير ؛ وإنما هو زياط وعياط[1] من الأضاليل السود والأراجيف الحمق والأفاعيل النكر يحملها الأثير إلى النفوس الآمنة الرخوة فترتاع ، وإلى القلوب المؤمنة الساذجة فتشك ، وإلى العقول الراجحة الوزينة فتدهش .

رباه ! ماذا جرى لأوربا العالمة العاملة المتمدنة حتى انقلب كل كلامها كذباً لا يستحى ، وكل سياستها خداعاً لا يستتر ، وكل قتالها تدميراً غاشماً أهوج لا يفرق بين المحارب والمسالم ، ولا بين الشاكى والأعزل ، ولا بين الرجل والطفل ، ولا بين الحصن والكنيسة ؟

كانت الحرب فى العصور الخوالى نظاماً من البطولة الإنسانية له سننه وآدابه وعرفه : لا يقاتل القوى من ضعف أو قل ، ولا ينازل الكمى من هان أو ذل ، ولا يطعن الفارس خصمه طعنة الغدر ، ولا يعطى المتعهد من ذمته عهداً إلا جعل من ورائه دمه وماله . ثم دخلت الحروب فى سلطان الدين فنظمها بقيوده وحدوده تنظيمه للشر الذى لا بد منه ، حتى غدت سلاحاً من أسلحة

---

(١) الزياط : اختلاف الأصوات والعياط الجلبة والصياح

الحق يظهر بها على الباطل . ثم انشعب من نظامها المهذب أنظمة أخرى كالفروسية والفتوة والمرابطة والكشف وما يدخل فى بابها مما يقوم على المروءة والشهامة والشجاعة والإيثار والوفاء والعفة . وجرت المدنية الحديثة فى تنظيم الحرب على سنن الدين والخلق فكفكفت طغيانها بالقوانين ، وفلّت عدوانها بالعهود ، ووقفتها لدى الحدود التى رسمتها الطبيعة للدفاع المشروع والجهاد المقدس .

وفى الوقت الذى طمحت فيه الإنسانية الأوربية إلى قطع أسباب الحرب بالمجالس التحكيمية والمحاكم الدولية والعصبة الأممية ، انبعث من ركنين متجاورين من أركان التمدن الحديث مسيخان دجالان فاستوحيا الشيطان دينين جديدين يجعلان الآخرة للدنيا ، والأمة للفرد ، والعقل للهوى ، والعلم للشر ، والحضارة للدمار ، والحياة للموت . ثم خرجت هاتان النحلتان من الكهوف والمواخير وانتشرتا فى أجواء برلين وروما انتشار الظلام المضل والغاز الخانق فعميت عيون كانت ترى ، وغبيت قلوب كانت تفقه ، ورمت النازية والفاشية جوانب الأرض وخوافق السماء بالموت الوحِىّ فى شتى أشكاله وأهواله ، حتى أصبح أكثر أوربا الجميلة خليطاً من الأنقاض والأشلاء ، ومزيجاً من الدموع والدماء . وأشد ما أصاب العالم من هذه الحرب الغشوم ضياع ما ورثته المدنية من حُر الخلال وكريم الأخلاق ، فانها القبس الإلهى فى الإنسان تصدر عنه الألفة والثقة والاطمئنان فيكون لكل كلام معناه ولكل عقد أثره . ومن المستطاع تجديد ما دُكّ من البيوت وأُغرق من السفن ، وتعويض ما زهق من الأنفس وأنفق من الأموال ؛ ولكن تجديد ما انهار من البناء الأخلاقى وهو عمل الأديان المختلفة والحضارات المتعاقبة على كر الدهور أمرا لا تتعلق به طاقة المخلوق .

افتح المذياع على أبواق الدعايات الأوربية واصبر نفسك على مكاره الفجور قليلاً تسمع الأعاجيب من فحش الكذب وسوء البغى . هذا يتبجح بما أحرق وأغرق ، وذاك يتمدح بما راع وأجاع ، وذلك يفيش بما أسر وقتل وكل أمة إنما تبدأ الكلام وتختمه بلعن أختها ورميها بما تبرأ هى منه من التزيد والافتراء والحور والدس واستغلال الضعف فى الشعوب الصغيرة وكل شيء تسمعه من المذياع إلا الصدق والحق والرحمة . ومن كلال الحس وبلادة الضمير أن يصك المذيع مسمعيك بأخبار الدمار والبوار فى كل أمة وفى كل مدينة وفى كل أسرة وفى كل نفس ، ثم يرسل إليك فى خلال ذلك أفاكيه الغناء وأفانين الموسيقى ؛ كأنما فناء الشباب وثكل الوالدين وحرمان اليتامى وشقاء الأيامى وخراب الأرض أصبحت من توافه الأمور التى لا تنبه الوجدان ولا تمس القلب !

من كان يصدق قبل انهيار الأخلاق فى الأمم الدكتاتورية أن روسيا تحارب بولونيا وفلندة ، وألمانيا تهاجم بلجيكا وهولندة ، وإيطاليا تغزو ألبانيا واليونان ، وكل أمة من هذه الأمم الثلاث تستطيع أن تحشد من الجنود ما يزيد على عدد السكان فى كل فريسة من فرائسها الست !

* * *

إن الدكتاتورية تدير هذه الحرب على غير قانون ولا خُلق ومن الصعب على العقل السليم أن يفرض القانون والخلق فيما يعقب هذه الحرب من سلم ويقوم عليها من نظام وإذا كانت الأخطاء لا يتألف من مجموعها صواب ، والآثام لا تنشأ من جملتها براءة ، والأباطيل لا ينتج من تعددها حق ، فإن نزو[1] النازية

(١) النزو : الوثوب

وفياش [١] الفاشية لا يمكن أن يؤديا إلى عدل شامل وسلام دائم ولا يزال في الديمقراطية المجاهدة رجاء الحق المضاع والخلق الصريع ؛ لأن السلطان القائم على دستور الحق ، يساعد عليَّ الانتصاف لنفسك منه بمنطق الحق والنصر مكفول للديمقراطية لا ريب فيه ، فإن الديمقراطية هي الصحة التي انتهى إليها جسم الإنسانية العليل أما الطغيان والبربرية فهما نكسة المرض ، والنكسة خلل عارض لا يلبث بحسن علاج الطبيب وصدق إيمان المريض أن يزول .

(١) الفياش : كثرة الوعيد في القتال من غير فعل

خواطر مريض

(٢٠ يناير سنة ١٩٤١)

عقدنى « الروماتزم » شهراً بالسرير لا أتورك ولا أتحرك وكانت دنياى فى هذه الفترة الفاترة قد انحصرت فى غرفة المرض كما تنحصر دنيا الطائر السباح فى القفص ، أو حياة المخاطر الطماح فى السجن فالنشاط الحيوى الجياش بالعمل والأمل ينقلب فى المريض والسجين نوعاً من الهدوء الفلسفى الصوفى ، يردّ كل ثورة إلى السكون ، ويروض كل رغبة عَلَى الرضا ، ويزيل عن البصر والقلب غشوات الباطل ، فيرى المرء كل شىء عَلَى طبيعته ، ويدرك كل معنى عَلى حقيقته .

أين القفص الضيق الحاصر من جو السماء يسبح فيه الطائر ملء جناحيه . فيرى فى كل دوحة عشا لحبه ، وفى كل روضة مسرحاً لغنائه ؟ ولكن البلبل الأسير يعرف بعد قليل كيف يطوى جناحيه على الصبر ، ويختصر سماءه وهواءه وأرضه وروضه فى هذه الأسلاك المعدنية الباردة يغرد بينها ويثب فوقها ويستقبل الصباح بمرح النشوان ، والمساء بهدوء الخلى .

وأين السجن الموحش المظلم من رقعة الأرض يضرب فيها المغامر طليق العنان حر الإرادة ، يفترس مع القوة ، ويختلس مع الضعف ، ويجمع فيشح ، ويطمع فيهتلك ؛ ولكن (أشعب) السجين يعرف كيف يرد طماحه ، فيرى فى جدران السجن حدود مطامعه وغاية دنياه ؛ فيسخر من كيد المنافسة وبغى الخصومة ، ويخطو بأنفاسه الرخية إلى أجله وهو زهيد العين مطمئن الجوانح

كذلك أنا : وجدتنى بعد معركة رابحة على أمر من أمور الدنيا دارت ثلاثة أشهر بين العجز والفقر يقودهما الحق المهيوب فى صف ، و بين القدرة والغنى يؤيدهما الباطل الجرىء فى صف آخر . و جدتنى بعد هذا الجهاد المجهد على سرير كما يكون الميت فى نعشه ! غير أن الميت فقد الحس والوعى فلا يتألم ولا يتكلم ؛ أما أنا فكنت قوى الشعور بالألم ، شديد الرغبة فى الكلام ، أبصر فى كل صباح حواجبَ الشمس تنفذ إلى من خلال الزجاج رخية لينة ، فتغمرنى بالدفء وتشيع فىّ سر الحياة ، وتسكت عنى صوت المرض ، ثم تتركنى لتعطى الدنيا الكبيرة ، ما أعطته دنياى الصغيرة ، وأظل أنا محدود الآمال ، مردود المطامع ، لا يصلنى بحياة الناس غير طنف مقابل تتمثل عليه طول النهار صباحة الشباب فى أفواف الربيع والشباب الجميل لا يعنيه إلا أن يعجب و يجذب و يلذ .

تلك هى حياتنا الدنيا ! أراها من وراء المرض على لونها الأصيل ووضعها الحق : ظاهرةٌ متغيرة من ظواهر الطبيعة المتجددة مثلها فى الإنسان كمثلها فى الحيوان ، تعيش بالغذاء لى أمد مأمود ، وتبقى بحفظ النوع إلى أبد محدود . ولو لم يتدخل الإنسان بعقله وعلمه فى نظم الطبيعة لجرى تيار الحياة دفاقاً مستقيما فى مجراه المرسوم المحتوم كما يجرى فى النبات الوحشى والحيوان الآبد ولكن آدم جعله الله خليفة فى الأرض فلا بد أن يكون كل ما فيها خاضعاً لتدبيره مسخراً بأمره . وكان أمره وتدبيره على الرغم من اعتماده فيهما على دين الله وفلسفة العقل لا يخلصان من سلطان الهوى وطغيان الغريزة ، ومن أجل ذلك كانت حياة الإنسان وحدها عرضة للتعقد والارتباك والتناقض .

ومن أعجب أمور الإنسان أنه هو وحده الذى فطن عن طريق العيان

والبرهان أن حياته على هذا الكوكب الفانى موقوتة ، ومع ذلك كان هو وحده الذى استعمر هذه الأرض على أنه باق وهى خالدة ؛ فهو يكدح حتى ما يعرف طعم الراحة ، ويجمع حتى ما يدرى معنى الإنفاق ، ويسلب أخاه أو وديده حق الحياة ونعمة السلام ليزيد فى ماله الضخم قطعة ، أو يضم إلى أرضه العريضة رقعة . وقد سول له غروره أن يتبجح بأنه سخر الطبيعة لخدمته ، وذلل قواها لمشيئته . والحق الذى طمسته الكبرياء فى ذهنه أن نوعه هو الوحيد فى أنواع الحيوان الذى استخدمته الطبيعة ليعمرها بعمله ، وينظمها بعلمه ، ويزخرفها بفنه ، ويهيئ لها أسباب الازدهار والاستمرار والنمو بما يبتكر من وسائل ، ويسن من نظم ، ويؤثل من مال ، ويدخر من رزق .

والطبيعة كما تستخدم الإنسان فى البناء لاطراد العمران ، تستخدمه فى الهدم لحفظ التوازن فهى تستعين بحروبه الطاحنة كما تستعين بالبركان والفيضان والموتان على قطع الفاسد ، وحذف الزائد ، وتجديد البالى ، وتعديل القوى ، وكفكفة الباطل .

هؤلاء الذين يجمعون مالا ينفقون ، ويبنون مالا يسكنون ، ويدخرون مالا يأكلون ، وأولئك الذين زعموا لقومهم سيادة العالم ، وأجازوا لأنفسهم قتل الشعوب ، ووقفوا على شهواتهم طيبات الأرض ، قد استغلتهم إرادة الطبيعة القهارة التى لا تعرف اليوم ولا المكان ولا الفرد ، وإنما تعمل للأبد والكون والجنس .

والغذاء والماء والهواء والمأوى وصلات الجنس هى النعم المبذولة لكل حى بحكم وجوده . فلو كان مما ينفع الطبيعة ويصلح الأرض سلام الناس وهدوء العيش لألهمتهم القناعة وعودتهم الرضا وجنبتهم الأثرة ، ولكن فوضى

الطبيعة هى نظامها المطرد ، وفسادها الظاهر هو صلاحها المضمر والفرد هو الأضحية المحتومة لبقاء الجنس ، والحاضر هو القنطرة المهدومة لعبور المستقبل !

فى المرض يزداد يقين المرء بأن الدنيا زائلة ! فهو يأسى على ما جنى ، ويندم على ما جمع ؛ ولكنه حين يصح تمتد آماله وتتشعب مطامعه ويعود عبداً للطبيعة يعمل لأنها تريد ، وينفذ لأنها تحكم ! فليت شعرى إذا عقل كل الناس فعمل كل امرىء ما يلزم ، وقنع بما يقوت ، وكف عما لا يحل ، فبماذا يشتغل قضاة المحاكم وقواد الجيوش وصناع الأسلحة ورؤساء الأحزاب ؟

أوشكت يدى من برح الألم أن تقف ! فعسى الله أحكم الحاكمين أن يبتلى الدكتاتورين الكبير والصغير بروماتزم العقل والقلب فتقف رحا الحرب وتغلق أبواب جهنم !

الشمس تجمع هلاهل نورها على المنازل العالية لتهرب من رؤية الأكداس المكدسة من جثث الإنسان على عُدْوتى البحر الأبيض ؛ وفتاة الطنُف الحسناء تلم غسيلها المنشَّر لتغلق عليها الباب من البرد القارس . وليل (طوبة) الطويل يقترب بأوصابه رويداً من المريض المسكين ، فاللهم حنانيك ورحماك !

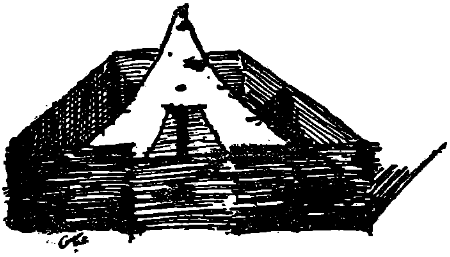

بين اللاتينية والجرمانية

(٢٤ فبراير سنة ١٩٤١)

كان بعض المولعين بتصنيف الناس من علماء الأجناس يقولون ان الله اصطفى الآريين على الساميين بمواهب العقل الأصيل فآتاهم الحكمة ؛ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى العلم والحكم ، وهيء بفطرته لملك الأرض وتمدين العالم . واستغل المستعمرون هذه الفكرة فسرقوا بها ملك العرب ، ونسوا أن العرب وهم ساميون ، كانوا خلفاء الله فى الأرض وورّاث المعرفة فى الدنيا . واستغلها النازيون آخر الأمر فسرقوا بها مال اليهود ، ونسوا أن اليهود وهم ساميون ، كانوا الرأس الخلاق واليد المصرفة فى ألمانيا .

ولعل هؤلاء المصنفين لخلق الله يشغلون بالهم اليوم بما يتجلى من الفروق بين اللاتينية والجرمانية وهما شعبتان من الآرية ، ليعلموا أن من عوامل البيئة والتربية وطريقة العيش ما لا يقل أثراً فى اختلاف العقل وتغير الخلق عن عوامل الجنس والوراثة ولئن كان فى فكرة الآرية والسامية أكثر الكذب الذى يسنده الغرض ، فإن فى فكرة اللاتينية والجرمانية أكثر الصدق الذى يؤيده الواقع وإذا كان الغربيون قد انتفعوا بفكرتهم فى أن يسودوا ، فإنا حريون أن ننتفع بفكرتنا فى أن نتحرر .

* * *

لأمر ما تنهار اللاتينية وتتماسك الجرمانية وقد مسهما من هذه الحرب الطحون عذاب لا يختلف !

هنا الديمراطية الوادعة تتمثل فى دولة جرمانية هى انجلترا ، ودولة لا تينية هى فرنسا . وهناك الدكتاتورية الباغية تتمثل فى دولة من الدول الجرمانية هى ألمانيا ، ودولة من الدول اللاتينية هى إيطاليا . فما هو إلا أن امتحنت الحرب بنارها معدن الفريقين حتى ذابت فرنسا هنا وتفككت إيطاليا هناك ، وظلت الأمتان الجرمانيتان ثابتتين ، تتصارعان بعبقريات الذهن ، ومبتكرات العلم ، ومهلكات المادة ، والعالم كله يشهد هذا الصراع العنيف المخيف وهو من هوله الهائل لا يتقارّ ولا يتمالك . وسيكون النصر ولا ريب للفريق الذى يحالفه الحق والصدق والصبر ؛ ويومئذ تنقسم الجرمانية كذلك إلى سكسونية تعتمد على قوة الخُلق ، وتوتونية تعتمد على سعة الحيلة .

ليت شعرى ومن أين أتيت اللاتينية حتى انخرعت فما تقوم ، وانماعت فما تتماسك ؟ لم تؤت يا زعماء الشرق إلا من جهة خصائصها التى تبجحت بها حيناً من الدهر ، وهى الإفراط فى الأدب والفن والكلام ، حتى غلب فيها النظر على العمل ، والحفظ على التفكير ، والخيال على الواقع ، وقاعات التمثيل على أندية الرياضة ، فمن المعقول ألا يقام لها وزن مع الجرمانية التى كان من أظهر خصائصها الممتازة أن ألفت ثقافتها وحضارتها من عناصر معلومة المقادير مضبوطة النسب ، من كل ما يتصل بالمادة والأدب ، ويدخل فى غذاء الجسم والروح ، فلا يطغى معنى على معنى ، ولا يجور شىء على شىء . ثم هى لا تفهم الفرد إلا بالأمة ، ولا العلم إلا بالتطبيق ، ولا العمل إلا بالتجويد ، ولا رياضة العقل إلا برياضة البدن ، ولا غاية الآخرة إلا بطريق الدنيا . وكل ما يصدر عن الجرمانية من نتاج الفكر واليد موسوم بسمات القوة والدقة والجد .

ماذا عسى أن نصنع يا زعماء الشرق العربي وهذه اللاتينية المتخلفة العجفاء قد غلبت علينا لوجودنا على البحر الأبيض المتوسط ، واتصالنا بشعوبها المختلفة في العمل والتجارة ، واعتمادنا على رسلها الدينيين في التربية والتعليم ، فأخذنا من أهلها حب الكلام وشهوة الجدل فقادتنا كتاب ومحامون ، وجيشنا هُتّاف ومتظاهرون ، وعدتنا أحزاب وصحف ! و إذا لم يكن زعيمنا من صاغة الكلام وراضة المنابر انصرفت عنه الأسماع ونبت عليه النفوس ولو كان ملء سكوته العمل المثمر !

من صفات اللاتينية فينا أننا لا نزال نتعلم بالحفظ ، ونتقدم بالمحاباة ، ونعمل بالوساطة ، ونقنع بالشكل ، فلا يهمنا من النظام إلا أن يبقى مظهره و إن ذهب جوهره .

ومن مظاهر اللاتينية فينا أن ضعف إيماننا بالمثل الأعلى والخير الأعم فالأمة معناها : أنا أكون ، والوطنية مغزاها : أنا أعيش . فإذا تناقضت منفعة الفرد ومنفعة الأمة ، وتعارضت رغبة النفس و إرادة الوطن ، وقع الضمير الاجتماعي في غشية ثقيلة لا يبالي المرء فيها أن يخون أو يسف أو يسقط .

ومن بلايا اللاتينية فينا أننا نسرف في الوعود ، ونتزيد في الحديث ، ونداجي في النصيحة ، ونكابر في الحق ، ونجاحش في النقاش ، ونركن إلى شعبذة الحظ ، ونستكين إلى معابثة القدر ، ونستأمن إلى مخادعة السلامة .

فإذا شئنا أن نتقي العواقب المحتومة لهذه التربية الفاشلة ، فلنطهر قلوبنا من رواسبها المتراكمة ، ولنهيئ نفوسنا لحياة جديدة تنكشف عنها هذه القيامة القائمة فإن مما لا شك فيه أن الحياة الحاضرة بمذاهبها ونظمها

تنصهر الآن فى نار هذه الحرب لتصوغها يد الخالق المصور صياغة أخرى تتفق مع تقدم الإنسانية فى سبيل الخير المحض والكمال المطلق . ومتى خلصت العقول من الهوى ، و برئت النفوس من الأثرة ، وطهرت القلوب من الحقد ، عاد الناس إلى شريعة الحق الخالد فيلتقى الشرق والغرب ، و يأتلف الأحمر والأسود ، وتطمع الشعوب أن يعيشوا فى عالم من الإخاء والرخاء جديد ، وهل ذلك على الله بعيد !

يومان من أيام الرسول

(٣ مارس سنة ١٩٤١)

يومان من أيام الرسول تضمنا سر النبوة كما تتضمن النواة سر النخلة ، ولخصا تاريخ الإنسانية كما يلخص الجنين تاريخ الإنسان . ذانك يومه الخائف المجهود وقد خرج مهاجراً إلى المدينة ، ويومه الآمن المشهود وقد رجع ظافراً إلى مكة !

كان يومه الأول لثلاثة عشر عاماً من المحن الشداد والآلام الفوادح تظاهرت على الإيمان والصبر حتى قال الرسول وهو يلوذ بحائط من حوائط ثقيف : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس .

وكان يومه الآخر فاتحة لثلاثة عشر قرناً من النصر المؤزر والفتح المبين ، خنس فيه الشرك واستخذت الجهالة وذلت قريش حتى قال الرسول وهو واقف بباب الكعبة : لا إله إلا الله ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده !

وإذا كان للرسول في تاريخ الإسلام يومان لا تزال العقول تقع منهما كل يوم على سر ، فإن مصدر هذه الأسرار معجزتان لله لا تزال الأفهام تكشف فيهما كل حين عن آية : معجزة الرسول في خلقه ، ومعجزة القرآن في بيانه . وقد انكسر القرن الرابع عشر على هاتين المعجزتين والأذهان البصيرة الموالية والمعادية تدرس آثارها وتستبطن أسرارها ، فما بلغت من ذلك كنهاً ولا غاية .

كان محمد في يوميه العظيمين مثل الإنسانية الأعلى حمل رسالة الله وحمل

أبو جهل رسالة الشيطان ، واستحالت مكة المشركة جبلا من السعير سد عليه طريق الدعوة ، فكان يخطو فى طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون وتتسعر بالعذاب ! وتفجرت عليه من كل مكان سفاهة أبى لهب بالأذى والهون والمعاياة والمقاطعة . وكل قريش كانت يومئذ أبا لهب إلا من حفظ الله . وافتن شياطين مكة فى أذى الرسول ، فعذبوه فى نفسه وفى قومه وفى أصحابه ليحملوه على ترك هذا الأمر فما استكان ولا لان ولا تردد . وحينئذ تدخل الشيطان بنفسه فى (الندوة) فقرر القتل ، وتدخل الله برَوْحه فى (الغار) فقدر النجاة . وانطلق محمد وصاحبه ودليله وخادمه على عيون المشركين فى الطريق الموحش الوعر إلى يثرب وكأن هؤلاء الناجين بدين الله لم يكادوا يدخلون فى غيب الطريق حتى انشقت الصحراء عنهم فإذا هم عشرة آلاف من جند الله يجرّون الحديد على النياق الكوم والخيول الجرد ، والرسول فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار لا يظهر منهم وراء الدروع غير الحدق ، وإذا أبو سفيان زعيم قريش قد اشترى حياته بإسلامه ، ثم وقف مع العباس بمضيق الوادى يشهد جيش الفتح وهو زاحف إلى مكة ويقول : هذا والله ما لا طاقة لنا به ! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا أبا الفضل عظيما . فقال له العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة !

ثم نجا أبو سفيان إلى مكة فصاح بأعلى صوته : يامعشر قريش ، لقد أتاكم محمد بما لا قبل لكم به ، فسلموا تسلموا .

* * *

أهذه مكة الطاغية التى لبثت إحدى وعشرين سنة تفور بالسفه والحقد والإفك والضغينة والمعارضة على محمد ودين محمد وأصحاب محمد ؟ ما بالها خشعت خشوع الجناح الكسير ، وسكنت سكون المقبرة المهجورة ؟ لقد باتت ليلة من

ليالى يناير الباردة الطويلة وقلبها يرجف من هول الغد وانتقام الفاتح ثم أصبحت مكة الساهدة فإذا أهلها بين قابع فى منزله ،أو عائذ ببيت الله ،أو لائذ بدار أبى سفيان ؛ وإذا فرق الجيش المحمدى الظافر تنحدر من (ذى طوى) مكبرة مهللة إلى جهات مكة الأربع فلما ارفضَّ الخاوف عن الناس خرج القائد الأعظم من قبته المضروبة بأعلى مكة يؤم المسجد الحرام ، وعلى جوانب الطرقات ألسنة المسلمين تذكر ، ومن وراء الحجرات عيون المشركين تنظر ، والرسول الكريم قد طأ طأ رأسه على رحله حتى كاد يمس قادمته ؛ فلم يجر على باله أن هذه الأرض التى طورد فيها وسال دمه عليها قد أصبحت ملكه ؛ وأن هؤلاء الناس الذين قذفوه بالأحجار ورموه بالأقذار قد اصبحوا أسراه ، حتى دخل المسجد فطاف ؛ ثم أقبل على الأرستقراطية الصاغرة وهى تتطامن من القلق والفرق وقال لأهلها الذين أفرطوا عليه فى البذاء والإيذاء يا معشر قريش ، اذهبوا فأنتم الطلقاء !

* * *

كان يوم الهجرة وما قبله تشريعاً من الله فى حياة الرسول للفرد المستضعف إذا بغى على حقه الباطل ، وطغى على دينه الكفر ، ليعرف كيف يصبر ويصابر ، وكيف يجاهد ويهاجر ، حتى يبلغ بحقه ودينه دار الأمان فيقوى ويعز .

وكان يوم الفتح وما بعده تشريعا من الله على لسان الرسول ويده للأمة إذا اتسعت رقعتها واجتمعت كلمتها واستحصدت قواها لتعلم كيف تنسى الضغائن إذا ظفرت ، وتحتقر الصغائر إذا كبرت ، ثم لا تحارب إلا فى الله ولا تسالم إلا فى الحق .

كانت المدينة وحدها بعد الهجرة مجالا لسياسة الرسول يضم شتات

الجماعة ، و يوثق عقدة الدين ، و يجمع أهبة الحرب، فألف بين الأوس و الخزرج ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وعاهد بين المسلمين واليهود ، حتى تكتَّب في يثرب جيش الله الذى فتح الدنيا بفتح مكة !

ثم كان العالم كله بعد يوم الفتح مشرقاً لوحى الله وهدْى الرسول ، فطهره الإسلام من الأرستقراطية بالمساواة ، ومن الرأسمالية بالزكاة ، ثم علم الناس حكم الشورى ، وألزمهم قضاء العدل ، حتى أخرجهم من الوطنية المحدودة إلى الإنسانية المطلقة

ذانك يومان من أيام الرسول تضمنا أسرار نفسه ولخصا أطوار حياته . فهل تطمعون يا من تظنون أن الزعامة تجوز من غير صدق ، والجهاد يفوز من غير صبر ، والحياة تصلح من غير إيمان ، أن تكون لكم فى رسول الله أسوة حسنة ؟

العصبية داؤنا الموروث

(١٧ مارس سنة ١٩٤١)

كنا ستة فى أحد مجالس القطار السريع الصاعد إلى القاهرة وكانت غريبةُ الغرائب أن يجتمع فى هذا المجلس الطائر القلق ثلاثة ينتسبون إلى ثلاثة أحزاب سياسية ، واثنان ينتمى كل منهما إلى فرقة دينية ؛ وكنت أنا وحدى المستقل فيما بينى و بين الله والناس . وكان مما ليس بُد منه أن يترامى بهم الحديث إلى ذكر ما يشغل الخواطر من شؤون الدين والسياسة والحرب ؛ فكان لكل منهم هوى لا يتابعه هوى ، ورأى لا يشايعه رأى ، حتى انقلب الحديث اللطيف جدلاً صخاباً لا حيلة فيه إلا للاشارة العنيفة والحنجرة الصُّلبة

حينئذ ابتلعت لسانى ودخلت فى نفسى وتركت هذه الأفواه يقذف بعضها فى وجه بعض ، ثم أخذت أفكر فى هذه الصدَعات التى مزقت الكلمة وفرقت الدين ، وجعلت بعضنا يبنى و بعضنا يهدم ، وأحدنا يسوق والآخر يعوق ، فلم أجد لها مصدراً تشتق منه إلا العصبية !

تصورت فى هذا المجتمع الصغير ، صورة ذلك المجتمع الكبير ، فعجبت كيف يتسى فى هذا الجمع الشتيت أن يتفاهم لسان ولسان ، ويتآلف قلب وقلب ، وتتعاون يد ويد ، حتى يجوز أن تنتج من اتحاده قوة ، وأن تنشأ من آحاده أمة !

الفرد فى نفسه هو كل الناس ، وشيئه فى عينه هو كل شىء ورأيه فى عقله هو كل رأى وذلك داء موروث من أدواء العصبية التى أفسدت كيان

العرب وأوهنت بناء الإسلام بما يلازمها من حب الاستئثار وشهوة الرياسة .

لم تمت العصبية من حياة العرب إلا فترة موقوتة بحياة الرسول . فلما استعز الله برسوله انبعثت فى (السقيفة) بين المهاجرين والأنصار تقول : منا أمير ومنكم أمير . ثم سلطها الشيطان على الخلافة ، فانقسم العرب إلى هاشمية وأموية ، ثم إلى قيسية ويمنية ، ثم إلى علوية وعباسية ، ثم إلى عربية وشعوبية ؛ وأغراها بالدين فانشعب المسلمون إلى اثنتين وسبعين فرقة ، تتقاطع بالضلال ، وتتعادى فى الباطل ، وتزعم كل فرقة أنها هى وحدها الناجية ! ولو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادىء تصلح الدنيا وتعز الدين ، لكان ذلك أخلق بمن جعلهم الله أمة وسطاً ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ؛ ولكنهم اختلفوا تعصباً للنفس أو الجنس أو الرأى ، وتوسلا لبلوغ الحكم أو خضوع الخصم أو فتون العامة .

وحب الرياسة وشهوة الحكم هما شر أدواء العصبية وبالاً وأشدها استفحالا فى الشرق القديم والحديث ولو ذهبت تستقرى عوامل الشقاق والانشقاق بين العرب فى جميع الأطوار والأقطار لما عدوت ما رُكب فى طباعنا من حب الظهور ورغبة التفرد ورذيلة الحسد .

إذا جاء الأمة خير لا نصيب لى منه ولا سلطان لى عليه ، جعلته شراً يستعان على درئه ببدع تتسم بسمة الدين ، وخدع تتستر بستار الوطن وإذا نهضت فى الأمة جماعة للاصلاح ولم يكن لى موضع الرياسة فيها ولا مرجع الفائدة منها ، أشعتُ حولها الرِّيب ، وأطرت فوقها الظنون ، حتى يستوحش من ناحيتها الناس فتفشل .

تنازع زعيمان من زعمائنا على الرياسة أو ما يشبه الرياسة ، فقسما الأمة بنزاعهما قسمين متعارضين لكل منهما آراؤه وحججه ومبرراته ؛ وكاد يدخل على الناس أن هذين الرأيين مذهبان فى سياسة البلد أحدهما يصل والآخر ينقطع ! وكان مبعث الأمر كله عصبية الرأى وشهوة الرياسة .

واجتمع أعضاء مجلس الإدارة لجمعية المعلمين فى بغداد يوم أنشئت لينتخبوا من بينهم رئيساً فلم يفز أحد من الثلاثة عشر عضواً إلا بصوت واحد ! ذلك لأن كل عضو منهم أراد أن يكون الرئيس فانتخب نفسه !

* * *

أحزابنا السياسية وجماعاتنا الدينية أسماء وأزياء لا تجد وراءها مسمى يتميز من مسمى ، ولا جسما يختلف عن جسم وإن طالب الثقافة ليستطيع أن يذكر لك فى يسر ووضوح جملة الفروق فى الوسائل والغايات بين اليسوعية والماسونية والشيوعية والنازية والفاشية ، أو بين حزب وحزب من الأحزاب البرلمانية فى جميع الدول الدستورية ؛ ولكنى أتحدى أستاذ الجامعة نفسه أن يذكر لى فرقاً أو شبه فرق بين الوفديين والسعديين والدستوريين والمستقلين والوطنيين والشعبيين والاتحاديين ؛ أو بين الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، والأخوة الإسلامية ، والهداية الإسلامية ، وشباب الإسلام ، ومجد الإسلام ، ومن لا علم لى به من هذه الجماعات . فليت شعرى ماذا يمنعهم أن يضموا الشتات ويوحدوا الكلمة ويحددوا الغاية ما داموا إخوة فى الوطن أو فى الله ؟ ولكن العصبية هى داؤنا الموروث لا يحسمه عنا إلا طبابه الذى عالجه به الله ورسوله : محو الفروق بالحرية والشورى ، وشفاء الصدور بالأخوة

والمساواة ، ورفع النفوس بالإيثار والتضحية !

ويومئذ يحيا فينا الضمير الاجتماعي فنعمل مرءوسين ، ومجهولين ، أصدق مما كنا نعمل رؤساء ونابهين ، فنخلص للأمة كما نخلص للأسرة ، ونحب لعامة الناس كما نحب لخاصة النفس ، ونخرج من حدود العصبية إلى آفاق الوطنية ، سالكين سبيل القانون إلى غاية الحق ، كما يسلك هذا القطار صراطه المستقيم إلى غايته المعلومة !

يوم الفقير

(٢١ مارس سنة ١٩٤١)

تفضل صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا فدعانى أمس إلى زيارته فى داره بالزمالك . ومن طبعى أن أتهيب الزيارة الأولى لأولئك الذين رفعتهم مواهبهم أو مناصبهم عن مستوى العرف ؛ لأن اعتيادهم إمضاء الرأى وإنفاذ الأمر بالصوت الرفيع والسلطان القوى أرهف فى نفوسهم الحس بما يجب لهم على الناس من أدب الجلوس ومصطلح الحديث والرجل الذى يلف رأسه الحياء ، ويعقل لسانه التزايل ، لا يسهل عليه وهو يستمع إليهم أن يعرف متى يصح أن يسأل ، ومتى يجوز أن يعارض ، ومتى ينبغى أن ينصرف .

على أننى كثيراً ما جلست إلى بعض هؤلاء ، جلسة التحفظ والاستحياء ، فكنت أشعر بعد قليل أن المهابة تنجلى عنى ، وأن الجلالة تنسرى عنه ، حتى أزعم لنفسى أنى أفهم الموضوع وأجدر بالحديث ولكن على ماهر باشا ليس كأحد من أولئك الطبول ، إنما هو رجل — كما توسمته من وراء لفظه — ألمعى الذهن يكتفى منك باللمحة الدالة ، رصين اللب لا يحرك لسانه إلا بالكلمة المرادة ، رفيع النفس لا يُسِرُّ فى مطاوى حديثه عصبية ولا ضغينة . وأخص ما يميز ماهر باشا رسوخ الطبع الاجتماعى فيه . ولعل نبوغه فى القانون الدولى العام على الأخص سر من أسرار هذا الطبع . وأصحاب الفكرة الاجتماعية ينفرون من السياسة الحزبية لأنها فردية مجتمعة ، ولا يميلون إلى الأعمال المالية لأنها أثرة محتالة . وإذا طلبوا إلى الحكم نهجوا فيه منهاج الدين من تنظيم أمر

الجماعة وإصلاح العامة ، على قدر ما يسعه طوق الإنسان الضعيف من توخى الإحسان وإيثار العدل ؛ فإذا خرجوا منه لم يسعوا للدخول فيه ؛ لأن السعى للحكم لا يخلو من خطوات فى سبيل الشهوة الذاتية والمنفعة الخاصة . لذلك كان أظهر العزائم وأصدقها فى وزراتى عَلَى ماهر باشا سلسلة من الإصلاح الجماعى تتحقق على وجوهها الصحيحة فى وزارة الشئون الاجتماعية والجيش المرابط . وكانت حياة الفلاح والعامل موضوع هذا الإصلاح وموضعه فلو أن طوارق الحدثان نامت عن مصر حيناً آخر من الدهر لكان من الممكن أن يشعر الفقير بأن له حقاً فى خير الله ، وحظاً من نصيب الوطن ؛ ولكن الحرب التى تتنمّر أخطارها على الرمال والمياه من حدود (الوادى) لا تتيح لأولى الأمر أن يرصدوا الأهبة كلها لمعالجة الفقر ؛ فلم يكن بد من قيام المعنيين بإصلاح الجماعة ليحلوا هذه المعضلة الأزلية بما حلها به الله فيجمعوا المبرات ، ويجبوا الصدقات ، وينظموا الإحسان ، ويسهلوا العمل ، ويوفروا القدرة عليه بمكافحة الجهل والمرض ؛ وذلك هو مشروع الزعيم الاجتماعى على ماهر باشا ، سماه (يوم الفقير) وجعله يتحدد فى تاريخ بعد تاريخ ، ويتجدد فى إقليم بعد إقليم ، ليكون مظهراً جميلاً لأريحية النفوس المؤمنه المحسنة ، تتعاون فيه على الخير وتتنافس فى المعروف ، وتقيم ركن الإسلام الخامس .

* * *

حدثنى صاحب المقام الرفيع عن سياسته الاجتماعية وما يتذرع لها باليوم الثامن والعشرين من هذا الشهر وما يتلوه من أيام أخَر ؛ فسمعت لأول مرة كلاماً له معناه ، ومنهاجاً له غايته كان الأخلق بمن سمع كثيراً من القول ، ورأى قليلاً من الفعل ، ألا يبالغ فى الثقة ولا يسرف فى الأمل ، لولا أن

صاحب الفكرة وممضيها على ماهر باشا ، وهو رجل لم يجرب عليه الناس لغواً في كلام ولا عبثاً في فعل . والحق أن الفقير يستطيع منذ اليوم أن يأوى إلى ركن شديد من عطف المليك ورعاية الحكومة ومعونة الشعب . ولعل مقاومة الحفاء ويوم الفقير هما المحاولتان الجديتان لمحاربة البؤس ومعاونة البائس ؛ لأن المشروع الأول يعتمد على إرادة كريمة ، والمشروع الآخر يستند إلى إدارة حكيمة . وكانت وزارة الشؤون الاجتماعية عسيّة أن تكفى المصلحين هذا الأمر لو أنها انتفعت بما توخاه لها الكتاب من مناهج الرشد ؛ ولكنها حصرت معونتها للفلاح في إقامة الموالد لتفريج الهم عنه ، وتحرير « المجلة » لمعالجة الأمية فيه ! وعسى أن تكون قد بلغت من ذينك مبلغاً يعوض عليه ماتبذل من مال وماتنفق من جهد !

* * *

لقد قطعنا سنة من عمر « الرسالة » في تذكير المترفين بأن لهم أخوة من خلق الله يأكلون ماتعاف الكلاب من المآكل ، وينامون مع الحيوان في المزابل ، ويقاسون من الأدواء مالا يقاسيه حى في غير مصر ؛ فلم يؤثر فيهم ما كتبناه إلا كما تؤثر النسمات اللينة في الصخر الأصم . ذلك لأن حق الله في أموالهم قد وُكِلَ أداؤه إلى ضمائرهم ؛ والضمائر قد نامت على هدهدة الشهوات ، والعواطف قد قست على جفاف المادة . وبين غفوة الضمائر وقسوة العواطف ذهب وازع الدين ولم يبق إلا وازع السلطان . لذلك لا ينتظر ليوم الفقير ما ينتظر لمقاومة الحفاء من الفوز ، لأن الدافع هناك رهبة الحكومة أو رغبة (الرتبة) ؛ أما الدافع هنا فعاطفة البر وهى في أكثر النفوس رسم دارس بين الجشع والأثرة

يا أغنياءنا لقد جربتم بذل المال فى اللهو ، وقتل العمر فى العبث ، وفقد الصحة فى المجون ، فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً ، أو وجدتم فى عواقبه سعادة ؟ جربوا ولو مرة واحدة أن تمسحوا دمعة على خدّ حزين ، أو تنفسوا كربة عن قلب يائس ، أو تسهلوا طلب العلم لفقير ، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل ، أو تشاركوا أبناء الشعب فى منفعة عامة ، ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع فى صدوركم الرخاء ، ويرتفع بقلوبكم الإخاء ، وتنعم نفوسكم فى الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود

هل انبعث الأزهر

(٢٨ ابريل سنة ١٩٤١)

يغلب فى ظنى أن الأزهر انبعث فسمع فرأى ففكر! إنبعث كما ينبعث الربيع فى أوائل مارس ، تراه سليب الشجر جديب الأرض مقرور النسيم ، ولكن أسرار الحياة تكون — من وراء بصرك — قد انبثت فى الثرى ، وجرت فى الأصول ، وسرت فى الجو ، فلا تلبث أن تستعلن فتُسعد الأرواح بجميل الزهر ، وتمتع الأجسام بطيب الثمر .

هؤلاء هم شباب الأزهر الجديد أساتذة وطلاباً ، قد جلت نفوسهم ثقافة العصر ، وصقلتها مدنية الحاضر ، فأشرقت عليها أشعة النبوة ساطعة بعد ما حجبها الغيام والقتام حقباً بعد حقب . فهم وحدهم الذين يدركون مسافة البعد بين روح الأزهر وحياة الناس . وهم وحدهم الذين يملكون تزييف الأباطيل المقدسة التى اتسمت بسمة الحق وتسمّت باسم الدين ؛ ولكنهم حول هذا الهيكل البالى أشبه بالأغصان الخلِفَة التى تنبت نضيرة على أصل الدوحة العتيقة ، ثم لا يتسنى لها الغلظ والسموق لأن الجذور الشيخة لا تمدها بالغذاء كله ، والفروع الميتة لا تمكنها من الهواء كله فإذا لم يرسل الله رسول الإصلاح و يؤته ما آتى أولى العزم من الرسل ، فيقطع من أعالى هذه الدوحة ما اعوج ، و يجتث من أسافلها ما ذبل ، و يكشف عن جذعها الواهن ما التف عليه من طفيلى النبت بغى الجفاف على هذه الأفنان النواشىء فتذوى فى زهرة العمر و بكرة الربيع

دفعني إلى تعجيل هذه البشرى وتسجيل هذه الظاهرة في هذا الوقت الذي شغل الأذهان بوحوش النازية الهاجمة ماقرأته للأستاذ محمود شلتوت اليوم ، وللأساتذة المدني والبهي والشرقاوي من قبل ، وما سمعته من صفوة من أولئك الأساتذة الأزهريين الشباب ضمهم مجلس من مجالس الرسالة ؛ فلقد كنت — علم الله — أدعو إلى إصلاح الأزهر وفي نفسي خلجات من اليأس ؛ لأن أهله الذين وقفوا عقولهم عند حد النقل ، وقصروا جهودهم على درس القديم يشرحونه ، أو يحشونه ، أو يقررونه ، أو يختصرونه ، أو ينظمونه ، حتى قرّ في نفوسهم أن القديم أفضل من الجديد ، وأن الماضي خير من الحاضر ؛ فالقرن الأول خير من الثاني ، والثاني خير من الثالث ، وهلم جرا حتى يجعلوا القرن العشرين شر القرون ، وعلماءه أجهل العلماء ، فلا يجوز لفهم أن يبتكر ، ولا لعقل أن يعترض ، ولا للسان أن يقول إن في الإمكان أبدع مما كان . أولئك لا يستجيبون لدعوة الإصلاح ، لأن الإصلاح تغيير أو إبداع ، وقبول التغيير محال ما لم يتغير ما بالنفس ، وإجازة الإبداع باطلة ما لم يتضح معنى البدعة . ومن أجل ذلك كان لكل مهديّ « عليش » ، ولكل محمد عبده « رفاعي »[1]

أجل ، كان يخالجني اليأس من نهوض الأصلاح قبل أن أتصل عن طريق الرسالة بهذه الطبقة الممتازة من الأساتذة الشباب وتلاميذهم الأنجاب في كليات الأزهر الثلاث . فلما عرفتهم وفهمتهم انبثق في صدري الأمل في أن الأزهر سيعود ويقود ، وأن الإسلام سيحكم ويسود . والأمر رهن بدفن الرميم وكسح الهشيم وانفساح المجال وتحرر العقلية العامة .

أعجبني من الأستاذ شلتوت وأصحابه خلوص الدين في قلوبهم ، ونصوع فكرته في عقولهم ، وفهمهم إياه على أنه دين هذا العصر وشريعة هؤلاء الناس ،

---

(١) الشيخان عليش والرفاعي كانا يعارضان الإصلاح في نهضة الأزهر .

فنحن أبصر بموقع الحكمة فيه ، وأجدر باستنباط الرأى منه . والدين كالشمس لا هى تراث ولا هى أثر . وإنما الشمس للحاضر لا للماضى ، وللحى لا للميت ! يستفيد منها الفرد بعد الفرد والجيل بعد الجيل ثم يقتضى اختلاف النظر وتقدم العلم أن يختلف فيها العلماء ، وتتعارض فى نظامها الآراء ، ولكن رأى فيثاغورس أو بطليموس لا يجوز أن يوازن برأى نيوتن أو هرشل .

هذه هى المرونة البصيرة التى توجبها سنة الحياة ولا يكون بدونها إصلاح ولا تطور . ولم يصب الأزهر بهذا الجمود إلا لأنه فقد هذه المرونة ، فلم يبال فعل الزمن فى الدنيا وفى الناس لذلك لم يعلم التاريخ جامعة من جامعات الأرض بقيت فى القرن العشرين على ما كانت عليه فى القرون الوسطى غير الأزهر !

كان الأزهر أسبق الجامعات الباقية فى الدنيا إلى الوجود أنشىء عام ٩٧٢ م وأنشئت جامعة بولونيا عام ١١٠٠ م ، وجامعة باريس سنة ١١٥٠م ؛ ثم تتابعت بعدهن الجامعات فى أوربا وأمريكا . وكانت كلها تنحو منحى الأزهر فى النظام والمنهاج والطريقة ؛ إلا أنها سايرت الزمان وأطاعت التطور واستجابت لداعى الحاجة ، حتى أصبحت مورداً ومراداً لأسمى ما بلغه العقل الإنسانى من الثقافة والمعرفة ولبث الأزهر وحده حيث كان ، يمضغ كلام السلف ، ويردد لغو الألسن ، ويعلل ضلال الأقلام ، ويصم أذنيه عن أصوات العالم وحركات الفلك ، حتى أصبحت المدارس الأولية أدنى منه إلى طبيعة العصر ، وأفهم منه لمعنى الحياة !

لسنا اليوم بسبيل البحث فى علل هذا الجمود المزمن المحزن ، فذلك شىء تتصل أسبابه بما انتاب المسلمين من ضلال العقيدة وشيوع الجهالة وفساد الحكم

وبحسبنا أن نسجل هذا الجمود بما بدا على بعض الأساتذة وأكثر الطلاب من الطموح إلى السبق والنفور من التخلف والزراية على نهج المعلم وطريقة الكتاب ومن تفاعل فى نفسه القلق والاشمئزاز والسخط اسوء حال أو فساد أمر ، شق عليه الاطمئنان إليه والاحتفاظ به وتغير النفس إيذان بتغير الحال ، والشعور بالنقص أول مراتب الكمال !

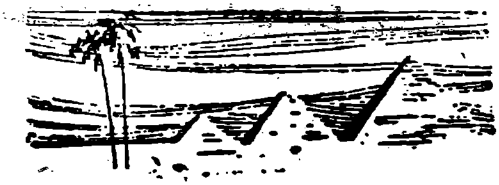

ما خلفته أثينا وروما

(١٢ مايو سنة ١٩٤١)

أهل رومة الأولون قومٌ بناهم الله بِنْية وثيقة ، فنشأوا عظامَ التجاليد أشداء العضل أقوياء العصب ، يعطون البهيمية من نفوسهم ، أكثر مما يعطون الإنسانية من قلوبهم . ووثاقة البنية وسورة الهوى تحركان في المرء شهوة الغلب وحب الأثرة ، فبغى الرومان على الناس بحدة القلب و بأس الحديد ، فملكوا أم البحر المتوسط ملك الرقيق ، واستعانوا على تدبير هذا الملك العظيم بالسيف واللسان والقانون ، فتهيأت لهم بذلك مَلَكة أصيلة في الحرب والخطابة والتشريع ، وحرمتهم جِبلتهم فنون النفس الرقيعة فكانوا في الأدب والفلسفة والفن حَمِيلةً على الإغريق . فلما أذن الله لدولتهم أن تدول سلط عليهم الترف والفسوق فتدفقوا في اللهو و (الأرجى)[1] حتى ترهل من لحومهم ما اكتنز ، وهش من عظامهم ما صلب ، وانسرق من قواهم ما اشتد ، وذهب بذهاب سلطانهم ما شرعوا من قوانين وسنوا من نظم وألقوا من خطب ، وأصبحوا لا يد تطول ، ولا لسان يقول ، ولا فكرة تجول ، ثم بادوا ولم يتركوا لأخلافهم على تعاقب القرون إلا ما يُعقبه السلطان الزائل من الغرور والتبجح والفيش ، و إلا ما يورثه اللهو الباطل من الغناء والموسيقى والرقص .

وأهل أثينا الأقدمون قوم صاغهم الله صيغة حسنة ، فكانوا مثلاً للكمال الممكن في الإنسان الاعلى . سمت فيهم ملكات العقل والقلب واللسان والجسم

(١) L'orgie موائد كانت حافلة بالطعام والخمور والفجور والرقص تحدرت إلى الرومان المترفين من أعياد باكوس إله الخمر .

سمواً لا شبيه له فى شعوب الأرض ، فأبدعوا فى نواحى الفكر والشعور والبيان ما ربأوا به أن يكون من صنع الإنس فنسبوه إلى أرباب من خلق أنفسهم ثم تعاقبت على المدن الإغريقية أطوار الحياة العقلية للجنس البشرى تامة غير مخدجة[1] فمن الغناء الفردى فى المعابد إلى التمثيل الجماعى فى المسارح ، ومن الحياة الأبوية إلى الحياة النيابية ، ومن شعبذة الكاهن إلى فلسفة أرسطو . ولم يبد فى سائر الأمم إلا ظواهر لبعض هذه الأطوار تقل أو تكثر على قدر نصيبها من كمال الخلق ، ثم تضعف أو تقوى على نسبة حظها من محاكاة الإغريق . فكأنما هذه البقعة وأهلها لما جمعوا من شتيت المزايا صورة مصغرة لأمم العالم ، ونسخة مختصرة لتاريخ الإنسان

فلما أصابهم داء الأمم فنى مُلكهم فى ملكوت الرومان ، ولكنهم انبثوا فى عقول الناس وحضارات الأمم وثقافات الشعوب ، فكراً لا يأفن ، وفناً لا يبلى ، وأدباً لا يقدُم ، وفلسفة لا تبطل ، ونظاماً لا يفسد ، وعلماً لا يذهب ؛ فكان الفكر اليونانى أساساً قائماً لكل حضارة ، ولقاحاً مثمراً لكل ثقافة

ذلك أثره فى الناس عن طريق الاقتباس ؛ أما أثره فى أعقاب بركليس والاسكندر عن طريق الوراثة المتحدرة فى الدماء حاملة مجد السلطان والغلب ، وعظمة الفكر والروح ، وعزة الملك والقيادة ، ومزية الإبداع والخلق ، وفضيلة الجمال والحق ، وسمو الإيمان والعقيدة ؛ فكان يونان اليوم كيونان الأمس مثلاً مضروباً فى شهامة النفس وشجاعة القلب وحمية الأنف وصدق الوطنية والضرب فى الأرض من أفق إلى أفق .

أولئك اعقاب رومة يتمثلون فى الطاغية (موسو) ؛ وهؤلاء أخلاف أثينا

---

(١) مخدجة : منقوصة

يتمثلون فى الرئيس ماتكساس . هناك الرأس الخواء ، والقلب الهواء ، والصلف البغيض ، و الغرور العريض ، و اللسان الطائش . وهنا العمل الصامت ، والقول الثابت ، والدماء التى تفور بمزايا الجنس ، والقلوب التى تنبض بحب الوطن . ويشاء الله عزت حكمته أن يخرج العبرة للناس فى هذه الكوارث المؤنسة من تراث وتراث وجيل وجيل ، فسلط نعرةَ نيرون على أنف الدنشى فوقف على ماسورة مدفع ضخم ، ثم رفع أنفه فى السماء ، و بسط يده فى الفضاء ، وأرسل أمره الأرعن إلى عديده وحديده أن يخترقوا حدود اليونان وهم فى إغفاءة الفجر ينعمون تحت الكلال بأواخر الأحلام السعيدة . فسالت من ألبانيا فرق الجيش الإيطالى بسياراته المصفحة ، ودباباته المسلحة ، وطائراته الموقرة بالقذائف والرصاص ؛ وعلى رأس الطليعة المزهوة قائد جهم الوجه ، كثيف اللحية ؛ غليظ الألواح ، يحمل إلى الجيش اليونانى المضطرب الهالع شرط الهدنة وصك الأمان !

يا سخرَ القدَر ممن زعم أنه يصرِّفه ! و يا عار (قيصر) ممن ادعى أنه يخلفه! ما باله يرمى فترميه أبابيل من طيور العذاب ، ويهجم فتصده حصون من سواعد الشباب ، ويصيح بأبطال الألب ، فلا يجيبه إلا صناديد الأولمب بالهجوم الجارف والضرب المتدارك والقصف المزلزل ؛ فذوو القمصان السود كالأرانب يتوارون فى أخاديد الأرض ، ويلوذون بجلاميد الصخر ؛ فإذا أعجلهم الفزع عن التماس النجاة ألقوا السلاح صاغرين واستأسروا ! !

هنا تصبب الزعيم الشحيم عرقاً لا ندرى أمن الكلال هو أم من الخجل ، فأقسم ليحشدن الإمبراطورية كلها أمام الجيش اليونانى الصغير الفقير الذى يقاتل الطائرات بالحجارة ، وينازل الدبابات بالسلاح الأبيض ، و يزوده بالميرة

والذخيرة النساء والشيوخ والأيفاع فى شعاف الجبال و بطون الأودية ، فكانت أفواج الجيش تذوب أمامه ذو بان الشمع ، وأمواج الحديد تتكسر دونه تكسر الهشيم ، والأكياس الحازمون من قواد الفاشية وجنودها يتقهقرون حتى ارتدوا عن اليونان ، وكادوا يجلون عن ألبانيـا ، لولا أن استغاث الدنشى بالفوهرر ، فـكانت الفاجعة التى لا ينصل عارها من تاريخ الألمان أبد الدهر !

* * *

أرأيت ؟ ! هذه هى الفئة القليلة التى يصيح فى دمائها وأعصابها تاريخ أثينا بأسره وتاريخ أثينا ليس كتاريخ روما مسارح دارسة لصراع الثيران ، وآثاراً عافية من مغامرات الفرسان ، وأسفارا ميتة من شرائع جستنيان ؛ وإنما هو ومضات الضمير التى لا تخبو ، وآيات العقل التى لا تموت .

وتلك هى الفئة الـكثيرة التى تنتفخ بالهواء كالفقاقيع ، وتعيش بغير مثل كالجراد ، وتحارب بغير إيمان كالمرتزقة . لذلك تراهم يستأثرون بجانب الهزيمة فى هذه الحرب ، ويؤثرون وسائل الحقارة فى هذه الجريمة وإذا كان فى انتصار اليونان وانـكسار الطليان عبرة ، فهى للعرب الذين يتميزون على الإغريق بوراثة القرآن الخالد الذى لا يتبدل ، واكتساب الإيمان الصادق الذى لا يحول .

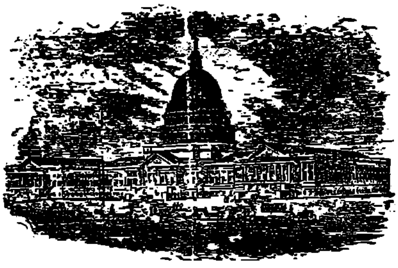

الأمل

« إذا كانت الحياة وردة ، فان الامل كامها »

أجل ياصديق (مُسّيه) : الله فى السماء والأمل فىالأرض ! وبين رَوْح الله

المؤاسى ، ومَدد الرجاء الآسى ، تندمل الجفون القريحة ، وتلتئم القلوب الجريحة ، وتنتعش الجدود العاثرة .

السكروان يموت فرخه فى المساء ، وفى الصباح يرقص ويصدح والشاة يذبح حَمَلها فى الحظيرة ، وفى المروج تثغو وتمرح . والقلب يُقطع من القلب ، والروح تُنْزَعُ من الروح ، ثم يعيش المحب بعد حبيبه ، والوالد بعد ولده ، كما يعيش النهر الناضب فى ارتقاب الفيضان ، والروض الذابل فى انتظار الربيع !

لله على الناس نعمتان لا يطيب بدونهما العيش ولا يُبْلَغ إلا عليهما العمرُ : النسيان والأمل .

ماذا كان يصنع الأسى بالقلوب الوالهة إذا لم يمح النسيان من الذهن صورة الحبيب الراحل أو الهاجر ؟ تأمل حالك يوم فجعك الموت فى عزيز عليك ، أما كنت تجد لهيب الحزن متصلاً يوقد صدرك من غير خُبوٍّ ، ويذيب حشاك من غير هدنة ؟ تصور دوام هذه النار على نياط القلب وأعصاب الجسد ، ثم قدر فى نفسك الحياة على هذه الصورة على أنها والحمد لله لا تدوم ؛ فإن الجبار الذى سلط الألم على الروح ، هو الرءوف الذى سلط الزمن على الألم . فالزمن لا ينفك يسحب ذيول الأيام والليالى على الصور والآثار حتى تنطمس المشابه ، وتعفو الرسوم ، ولا يبقى من المفقود إلا صورة لا تنطق ، ولا من الجرح إلا ندبة لا تحس .

وماذا كان يفعل اليأس بالنفوس المكروبة إذا لم يفتح الأمل أمامها فرجة فى الأفق المطبق وفسحة من الغد المجهول ؟

يا ويلتا للفقير يعتقد أن فقره يدوم بدوام الحياة ، وللمريض يرى أن مرضه ينتهى بانتهاء الأجل ! ويا بؤسَ للحياة إذا لم يقل المأزوم والمحروم والعاجز : إذا كان فى اليوم قنوط ففى الغد رجاء ، وإذا لم تكن لى الأرض فستكون لى السماء !

حول مشكلة الزواج

الى السيدة ليلى

(٩ يونية سنة ١٩٤١)

لم تعدى الصواب ياسيدتى حين قلت فى كتابك الرقيق المدرَج فى مقالك البليغ : إن لكل من الشباب والشواب معايب ومطالب قد تعاونت على خلق مشكلة الزواج ؛ ولكن السبب المباشر والمصدر الأول هو المادة .

وتصديقاً لقولك أسوق إليك قصة سمعتها من بطلها الدكتور « م . ش »

والدكتور « م . ش » ياسيدتى فتى سَوِىٌّ الخلق كامل الثقافة ، يملك البصر والسمع بروعة منظره و براعة حديثه نشأ فى بيت من أوساط البيوت ، ولكنه تعلم فى أوربا ، وتقدم فى الوظيفة ، فنحا منحى الأوربيين فى العيش ، وسمت سمْت الأرستقراطيين فى المظهر ؛ فهو يلبس كما يلبسون ، و يجلس حيث يجلسون ، و يلح بالسرف على مرتبه الكافى حتى يضيق بشهواته فيتمزق عند منتصف الشهر ثم يكون فى النصف الآخر حيلة على والديه .

حسبك ياسيدتى من وصفه هذا ، فإنى لأخشى أن يُكشَف فيعرف ؛ ومعرفته تجر إلى معرفة الفتاتين اللتين ضحى بهما لهواه . و إذا علمت أسرتاهما أنهما ذكرتا فى موضع العبرة كان ذلك أشد على نفوسهما من ألم المصيبة .

قال الدكتور ذات مساء بلهجة المقترف المعترف النادم ونحن نتناقل الحديث عن جنسك الذى لا يفتُر عنه الحديث ولا يُمل

كنت مصروفاً عن الزواج لأنى لم أجد فى نفسى حاجة إليه ، ولا فى رأيى فائدة منه : إن كان يطلب للمتعة الطبيعية فقد يسرتها المرأة الطليقة ؛ و إن

كان يطلب للراحة المنزلية فقد هيأتها الأسرة الشفيقة ؛ وما دام الأنس بالمرأة والأسرة موفوراً ، فعلام يحمل عنت الزوجة وهم الولد وتكاليف البيت ؟ ولكن سرفى وترفى وقلة مرتبي وضيق ثروة أبي نبهتني إلى أن الزواج يطلب لأمر ثالث هو الثروة فرغبت إلى أمي أن تستعين بالأقارب والصواحب والخواطب على أن تجد لي (بغلة العشر) ، فتقابن على عيني أشتاتاً من العبقريات الحسان يملكن كل شيء إلا ما أريده ، حتى وصلتني إحدى الخاطبات بفتاة قالت إنها أكثر مما أطلب . ثم خلى أهلها بينها وبيني ، فتلاقت عينانا ، ثم فكرانا ، ثم قلبانا ، فما أنكرت منها خلقاً ، ولا ذممت لها صحبة : ملاحة شرقية تغترق البصر ، وثقافة عصرية ترضي العقل ، ورشاقة رياضية تملك النفس ، وشهوة جامحة لعيش المترفين تصورها بالألوان السحرية أي قصر ستسكن ، وأي حلة ستلبس ، وأي سيارة ستركب ، وأي حفلة ستقيم ، وأي أسرة ستدير . فرأيت في رغباتها وحياتها صورة رغباتي ونمط حياتي ، كأنما خلقها الله رضا لهواي وتحقيقاً لمناي وتماماً لنفسي . ثم توثقت بيننا على جلوات الربيع وخلواته عرى المحبة ، فتساقينا كؤوس الهوى في كل حديقة وعلى كل نهر ، وأخذنا نهدهد حبنا الوليد على أناشيد الأمل انتظاراً ليومنا الموعود وعيشنا المرتقب !

على أن وحدة الخلق وجمعة الأمل وألفة الهوى لم تنسني السؤال عن المحبوب الأول والمطلوب الأولى وهو المال ولشد ما كانت خيبتي حين تكشف لي غناها عن دين فادح لا ضمان له ، ورياء فاضح لا حيلة فيه حينئذ تغير النظر وتبدل الرأي واختلف الغرض ، وأصبحت الخطيبة الحبيبة كعشرات الأوانس اللائي عقدتُ بهن أسبابي ، وأذقتهن ضلال نفسي وعبث شبابي . إذن فما معنى أن أجمع بين طمعي وطموحها ، ثم لا أملك لي ولا لها تحقيق أمل ولا قضاء نهمة ؟

مشيت معها مشى الشباب المعروف أعدُّها وأمنيِّها والخواطب الموعودات يغشين الدور ويقتحمن الخدور باحثات عن الثراء الضخم فى أى فتاة كانت ؛ حتى اهتدين إلى ابنة المرحوم « م باشا » وكان من الأغنياء المذكورين ، فلا مساغ للشك فى ثروته ، ولا وجه للسؤال عن ملكه . وكان العجب أن تظل ابنته مغمورة حتى تكشف عنها الخاطبة ؛ ولكن أعجب العجب أن يشترط أهلها عقد الزواج من غير روية ، وتعجيل يوم الزفاف من غير مهلة وكان لا يعنيني أن أسأل الخاطبة عن حِلية الخطيبة ، فإنها إن تكن جميلة ظفرت بالحسنيين ، وإن تكن دميمة كان لها معى بحكم زواجها بيت ، ولى مع غيرها بفضل ثروتها ألف بيت !

وفى الحق أنى تمثلتها حين دخلت بها كومة عالية من اللحم والشحم أضفو عليها أفواف الوشى وشفوف الحرير ، وفى ذروة الكومة نتأ رأس كرأس أبى الهول طوقوا أسفله بالذهب ، وتوجوا أعلاه باللؤلؤ . ولا تسل عن الذراعين والساقين فإنهن قوائم فيل أو أساطين هيكل ! ولكنها على بدانتها — شهد الله — خفيفة الظل عذبة الروح وحسبى منها ألا تكونُ هولةً[1] تُقذى العين وتؤذى النفس فى الساعات القليلة التى أُلمّ بالبيت فيها .

أطلقت يدى فى ثروتها ، على الرغم من معارضة أسرتها ، فعشت عيش الأمراء السفهاء ، أنفق باليدين على خليلاتى ونداماىَ وهى تنظر وتُغضى ، وتسمع وتسكت ، كأنما وازنت بين جمالهن وجمالها ، وقارنت بين حالى وحالها ، فلم يسعها غير الرضا بهذا النصيب . وكنت قد خدعت خطيبتى الأولى عن نفسها بقوة النقود والوعود فخضعت لى خضوع المنوّمة . ثم ركض بى فى طريق الغواية

(١) الهولة : ما يخوف به الصبى .

فرس الهوى الجموح ، وخلفت فى غبار النسيان حليلة يذيبها فقد زوجها ومالها فتموت ، وخليلةً يذلها ضياع أملها وشرفها فتجن !

* * *

لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . ما كان حديثاً يُفترى ؛ ولكنه الواقع ياسيدتى يثبت لك أن المال إذا جعل غاية للزواج كان شقاء لمن وجدته ولمن فقدته على السواء فهل سمعت حديثاً كهذا الحديث ، أو رأيت خبيثاً كهذا الخبيث

!

من طرائف الأزهر القديم

من البكاء إلى الضحك

(٧ يولية سنة ١٩٤١)

لا تزال طوائر المنون تحلق فى سماء الإسكندرية فترسل الصواعق والشهب على أهلها الغافين فى أكناف الأمان ، فتدك المنازل ، وتطحن الأجساد ، وتخسف الطرق ، وتقذف الرعب فى قلوب الناجين فيخرجون من دورهم هائمين على وجوههم ، فى مدارج السهول ومسالك الحقول وأزقة القرى ؛ حتى إذا ارفضّ عنهم الهلع واستقر بهم القرار ، نظروا فى أنفسهم ، فإذا هم على أرصفة المحطات ، أو على حواشى الطرقات ، أو تحت أفياء الجدُر ، فى ملابس النوم أو فى مباذل البيت ، لا يملكون ما يمسك الرمق ولا ما يستر الجسم . ثم نظروا إلى من معهم ، فإذا زوجة تصحب غريباً وهى تظنه بعلها ، وأم تحمل مخدة وهى تحسبها طفلها ، وولد ينادى أمه فلا يجاب ، ووالد ينشد أسرته فلا يجد . وحينئذ ينجلى الذهول ، ويتضح الخطب ، وتعيد الذاكرة إلى المشاعر تهاويل المنايا السود فى هوادى الليل المقمر ، فيذكرون انقضاض القنابل على المدينة ، وانهيار المنازل على الناسِ ، فيعاودهم الفَرق فيذهلون ، ثم يساورهم القلق فيرحلون ، وهم لا يدرون أين ينزلون ، ولا من أين يأكلون ، والناعمون على سُرر الذهب وحشايا الديباج ، ينظرون إليهم كما ينظرون إلى أسرى الطليان فى طريقهم إلى المعتقل ، أو يسمعون بهم كما يسمعون بجرحى الألمان فى طريقهم إلى الموت !

أربعمائة ألف أو يزيدون أخرجهم القدر القاهر من ديارهم وأموالهم ، ثم تركهم عاجزين فى ذمة الوطنية والإنسانية . وإذا علمت أن الوطنية فى عُرفنا

لفظ لا يذكر إلا فى دعاية لحزب يريد أن يحكم ولنائب يريد أن يُنتخب ، وأن الإنسانية فى رأينا معنى لا يفهم إلا فى عمل تحته شهرة أو وراءه لقب ، أدركت السبب فى وقوف بنى قارون من المنكوبين موقف تماثيل المسرح من المأساة !

إذن لم يبق للمهاجرين إلا أكواخ الفقراء ، وعتبات الأولياء ، وهبات الحكومة. فأما مواساة الفقراء لهم فحق ، وأما معونة الحكومة إياهم فيقين ، وأما ضيافة الأولياء فبقيت كضيافة الأغنياء موضع الشك !

كتب إلينا مهاجر أديب بطنطا يقول: « أيأسنى الأمراء والأغنياء من رزق الله ، فلجأت بعيالى إلى مقام سيدى أحمد البدوى فى طنطا ؛ فلم ألق منه ما لقى اللاجئون إلى مزارع جنا كليس فى البحيرة . فهل التوسل بالأولياء عبث ، والالتجاء إليهم فى الخطوب باطل ... »

وجوابى أنى ياسيدى المهاجر أعلم الدين والحمدلله عِلْم الفقيه المجتهد ، ولكنى لا أزعم لنفسى درجة الإفتاء . على أن بين يدى الآن شيئاً يشبه الفتوى صدر عن أحد مفتى الديار المصرية فى عهد مضى ، أقدمه إليك لعل فيه بعض الغناء فى موضوع هذا الاستفتاء !

وقع فى نفس هذا المفتى أن شيخ الأزهر إذ ذاك سعى هو وحزبه بين الخديو وبينه حتى أفسدوا حاله عنده ، فاستعدى عليهم سيدى أحمد البدوى بقصيدة رفعها إلى مقصورته الشريفة ، بعد أن قدم لها هذه المقدمة الطريفة. ودونك المقدمة والقصيدة ! (١)

« التجاء واستنجاد ، برجل الفتوة طويل النجاد ، وإمام الأولياء ،

---

(١) المقدمة والقصيدة نشرتا بمجلة المنار م ٢٧ ج٣ ص ١٧٣

وسراج الأصفياء ، الغوث الأوحد ، سيدى وولىّ نعمتى البدوى أحمد ، دامت إمداداته ، وعمت فى الدارين بركاته

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتى أضم إليهـا ألف آمينا »

* * *

أيرضيك يا غوث الورى وإمامهم غَبينة أهل الحق والحق ظاهر
تعدى لئيم القوم واشتد بغيـه وجاء بكل الحقد وهو يجاهر
أتى بالمعاصى مُعْلناً وهو يدعى مكانة دين قيم ، وهو فاجر
وساعده حزب على شكله سعوا بكل فساد أوضحته الكبائر
فَضلّوا جميعاً عن طريق رشادنا وأزهرنا منهم غَدا وهو صاغر
فجئنا حماكم نرفع الأمر سيدى ونطلب دين الله والله ناصر
وأنتم إمام الأوليـاء ولا مِرَا وأنت غياث الملتجى وهو حائر
إذا كان يا مولاى أزهر ديننا تدور عليه فى الضلال الدوائر
فأين يكون الدين يا سيد الورى وأين يكون العدل والعدل عاطر
فها قد بسطنا بعض شأن يزيده وَثم أمور قد حوتها الضمائر
فمنها دخول فى البقا وهـداية لأقوم طرق الله وهى المفـاخر
وصحــــة جسم للذين أحبهم كذلك لى فى العز والعمر وافر
ونصر على الأعدا وجاه مؤبد وفوز مبين دائمـاً يتقـــاطر
وتيسير ما أرجوه من كل مطلب وسكنى جنان الخلد حيث الأكابر
ورؤية خير الخلق جهراً بسرعة فها قد مضى عمرى وقل التناصر
فقل يا طويل الباع ها قد أجبتكم لـكل الذى ترجون والله جابر

أصلى على المختار ربى مسلماً كذا آله ما قام بالذكر ذاكر

كتبه عبد الإحسان الواقف بالباب
الراجى سرعة الجواب :
بكرى الصدفى
مفتى الديار المصرية

فأنت ترى أن فضيلة المفتى غفر الله له لم يقنع باستعداء السيد البدوى (سيد الورى) على خصومه ، وإنما دفعه الطمع فى فضله إلى أن يسأله الهداية وطول العمر وصحة الجسم له ولمن يحب ، والنصر على الأعداء ، والجاه المؤبد ، وتيسير كل مطلب ، ودخول الجنة ، ورؤية النبى جهرة . فإذا كان سيدى أحمد البدوى قد استطاع أن يستجيب هذه الرّغاب ، فليس أسهل عليه من أن يمن عليك برغيف وجلباب . ولكنى أفهم من أسلوب استفتائك أنك ستقول : سبحانك ربى ! هذا شرك عظيم . ولعلك تمعن فى إنكارك فتزعم أن ما أصاب الإسلام من قبح القالة ، وما حل بالمسلمين من سوء الحالة ، إنما يرجع إلى ماران على القلوب والعقول من أمثال الرسالة العليشية[1] والقصيدة الصدفية . ولكنى أعيذك بالله أن تسرع فى الحكم فتخطئ الصواب والخير لى ولك أن نعلن سؤالك إلى العلماء وننتظر الجواب .

---

(١) هى رسالة ألفها الشيخ محمد عليش المالكى فى تحريم السفر إلى أوربا وطلب العلم فيها، وقد نشرت ملخصة فى الرسالة .

من أحاديث القهوة

« ١٨ أغسطس سنة ١٩٤١ »

— ١ —

المنصورة بلد الطبيعة الساحرة والطبع الشاعر هي الآن مصيف ومهجر — هي مصيف ، لأن موقعها على ملتقى النهر الصغير والنهر الكبير جعلها كرأس البر على ملتقى النيل والبحر . والفرق بينهما أن (رأس البر) رملة من رمال الصحراء، والمنصورة روضة من رياض الجنة . وهي مهجر ، لأن بعدها عن الأهداف الحربية و الثغور البحرية صرف عنها لحظات المغيرين والغِيَر .

ومن جملة المصطافين بها والمهاجرين إليها تتألف فى القَهوات والندَوات جماعات فى الأدب والسياسة والتجارة واللهو والفضول ترتسم من مجموعها صورة مقاربة لمجتمعنا العام تصلح للتأمل والدرس . ومن جعل الله ديدنه وصف مايبصر وتسجيل ما يسمع ، لا يملك أن يشاهد هذا العالم الصغير دون أن يعرض بعض أحاديثه للبحث ، و بعض حوادثه للنظر

تتفيأ القهوةُ التي تجلس فيها جماعتنا الدوح الباسق والشجر الوريف بين شارع الكرنيش وشاطىء النيل فهي تنظر عن اليمين فترى فى الطريق أخلاطاً من الأجناس أكثرها الإغريق ، وأنماطاً من اللباس أغربها القلانس ، وصوَراً من الحسن أبدعُها الأوانس ، وهؤلاءَ من القبح أشنعها المتسولون والباعة . وتنظر عن الشمال فترى فى النهر زوارق العبور تنساب حابسة فى شُرُعها طلق الهواء ، أو ضاربة بمجاديفها وجه الماء ، وشباكَ الصيد يطرحها الصيادون

فى المكان الضحل فلا تصيب إلا صغار الحصى أو شبار السمك ، وخواطف الطير تحلق فوق الصائد فتخطف ما ثار أو تأخذ ما ترك .

يندو إلى هذه القهوة طوائف من الناس ألأت بينهم وحدة الحرفة أومصافقة المودة أو مبادلة المنفعة : فهنا المعلمون قد تكوفوا(١) على بعض المناضد القاصية يجادلون بالصوت الجهير فى الحرب والأخبار ، أو يخوضون فى حديث المفتشين والنظار ، ومذباتهم التقليدية تتحرك آليا فى أيديهم فتذود الغبار عن الثياب والذباب عن الأوجه وهناك التجار يتعاقب على مناضدهم الوسطى شكول من السماسرة والمنتجين فيقيمون فى حدودهم الضيقة سوقاً تصطرع فيها طباع المتسوقين من الإغراء والإباء ، والصخب والغضب ، والمشادة والملاينة ، والمسارة والمسايرة ، ثم ينجلى الأمر عن صفقة من الشعير أو الرز وهنالك فى أقصى الشرق مناضد بسطت عليها أغطية من القماش المخطط وقد أحاط بها عقائل من حسان الروم يفسرهن شباب منهن ، قد أنقذهم من نار الحرب سلام النيل وأفرغ عليهم وضاءة النعيم خير مصر ، وضمن لهم عيش الأمان سماحة المصريين . فهم يتساقون أقداح الزبيب ، ويتناقلون أحاديث الأنس ، ويتطارحون أضاحيك الحياة ، كأن شعبهم لم يذل ووطنهم لم يحتل ومليكهم لم يشرد !

وفى خلال هذه الزُمر ترى شاعراً وسنان الحركة نشوان الحس يقرأ على صفحة النهر الوردية أشعار الطبيعة ، أو طارئاً من ضخام القرويين لم يطق صبراً على عبث النسيم فنام على كرسيه أثقل النوم ، وغط فى نومه أقبح الغطيط وعلى حفافى القهوة وبماشيها تتهافت أفناء من ذباب البشر يقولون إنهم من رعايا وزارة الشئون الاجتماعية ، فيهم المعتوه المخيف ، والمريض المعدى ، والشيخ المتهدم ، والشمطاء الخاوية ، والناشىء الضرر ، وكلهم يسأل بإلحاف ، أو يبيع

---

(١) تكوفوا : تجمعوا واستداروا

بسماجة ، أو يحتال فى سخف !

وتحت الدوحة الكبرى وفى مكان لا يكاد يتغير تجلس جماعتنا طرفى النهار وزلفا من الليل . وهذه الجماعة من تأليف الحب وحده . تقارب فى أفرادها الذوق والرأى والهوى فتمكنت بينهم الألفة ، واستكمل بعضهم من بعض ما نقص من عوامل أنسه ومباهج نفسه وأحسبنى لا أعدو الحق إذا قلت إنها كثيرا ما تشقق الحديث فى شجون من الأدب والتاريخ ، وفنون من السياسة والنقد ، وشئون من التجديد والإصلاح ، إذا هى سجلت فى (الرسالة) على إيحاء الخاطر وإملاء الطبع كانت نوعا من الإنتاج الأدبى له قيمته وأثره ولعلنى أستطيع أن أنقل إليك الحين بعد الحين مقطعات من هذه الأحاديث تجد فيها لونا طريفا من ألوان المعرفة .

واسطة عقد هذه الجماعة رجلان كل منهما طراز وحده فى مناقلة الحديث ومبادهة الرأى : أحدهما الأستاذ محمد توحيد السلحدار ، والآخر الأستاذ محمود الزناتى . أما صديقنا السلحدار فكنز مدفون لم يشأ الله أن يُعرف : نفس كريمة لا تخلق إلا فى ملك ، وحس مرهف لا يكون إلا لشاعر ، وذوق سليم لا يوهب إلا لفنان ، ورأى حصيف لا يختمر إلا فى حكيم ، وثقافة شاملة لا تجتمع إلا لعالم ، وخبرة واسعة لا تتهيأ إلا لأريب درس الأستاذ توحيد وقرأ ، ثم رحل وشاهد ، ثم ذاق وجرب ، ثم عايش النبلاء بحكم نشأته ، ولابس الدهماء بحكم وظيفته وأعانه على الإفادة من كل أولئك أسرة غنية ويد سخية ونفس مُطلعة . فأنت لا تكاد تبدأ الحديث أو تلقى السؤال فى ناحية من نواحى الأدب أو الفن أو السياسة أو التاريخ أو الطب أو الطعام أو الشراب أو اللهو إلا بادرك بقول تظنه لصوابه تفكير يومه ، أو بادهك بجواب تحسبه لسداده اطلاع ساعته .

وأما أخونا الزناتى فحديث حسن المنطق عذب الأسلوب جامع لطائفة مختارة من أخبار العلماء والأدباء ورجال الحكم شهدها بنفسه ، أو سمعها من أبيه أو قرأها فى مخطوط من نوادره ومن هذه الأخبار ما لا تجده فى كتاب ولا تسمعه من أحد . وللزناتى تطلُّع الجبرتى وملاحظته ، فهو يستقصى أطراف الخبر ، ويستوعب أحوال الأشخاص ، ثم يخزن ذلك فى حافظة واعية ليؤديه متى شاء لا يند منه حرف ولا وصف ولقد اقترح أحد الأصدقاء على الأستاذ توحيد أن يطرف قراء (الرسالة) بأحاديث « من جانب الذاكرة » ، وعلى الأستاذ الزناتى أن يمتعهم بنوادر « من فيض الحافظة » ؛ فعسى أن ينزل الأستاذان على مقترح الصديق . وأن يعجّلا إلى القراء الظماء بهذا الرحيق !

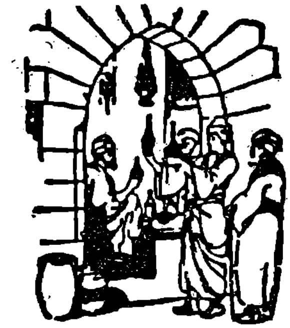

— ٢ —

أصبحنا فإذا النيل الجليل يقبل نفاحاً بالخير فياحاً بالنعيم ، تتريع[1] شطئانه الخضر بالعسجد الذائب ، وتتدفق مجاريه الفيح بالكوثر العذب ، وتتنفس أمواجه الصهب بالتحيات والبركات على بنيه الخلص الذين خُلقوا من طينه الحر ومائه الطهور ، وعاشوا على نائله الجم وخصبه الموفور . وكأنما تنفرج كل موجة عن سؤال من هذه الأسئلة التى اعتاد أن يلقيها كل عام على أهله :

— ماذا صنعتم يا بنى بالذهب الذى نثرته على أرضكم فى العام الذاهب ؟ هل قسمتموه بينكم على شريعة الله ، وأنفقتموه فيكم على منفعة الوطن ؟ أم هل بقيتم على طباع الوحوش الأوابد ، تتفارسون بالغيلة أو بالحيلة حتى لا تدع المخالب والمجاريف ، شيئاً للفقير أو للضعيف ؟ ألا تزال الأمة مقسومة إلى باشوات و (دلاديل) ، والسياسة قائمة على بهلوانات وتماثيل ؟

ألا يزال أربعة الأخماس من أبنائى ، يعيشون مجهودين على فضلات الخمس من أغنيائى ، وخيرى الفياض لم يدع فى مصر كلبا جوعان ولا ضفدعا عطشى ؟

أى شىء صار مائى السماوى الفرات فى دمائكم يا ساكنى الوادى ؟ أموانا وقد أحييت الصحارى ؟ أم ذلا وقد أعززت الفراعين ؟ أم جهلا وقد خلقت الحضارة ؟ إلى متى يا بنى تقابلون برى بالعقوق ووفائى بالغدر ، وتقبلون من أوليائكم أن يدعوا مائى وترائى يذهبان فى عباب البحر كما تذهب النفحة الرخية فى ثورة العاصفة وثراى مكروب وشعبى جائع !

ولكن أسئلته الأبوية السنوية تذهب فى الهواء كما يذهب فيضه

---

(١) تتريع : تفيض

فى البحر ، فلا أذن تعى ، ولا لسانَ يجيب !

* * *

أخذنا مجلسنا المعتاد من القهوة ، وكان النادون المعتادون قد راعهم ما رأوا من جمال النيل وجلال الفيضان فسكنت ثرثرتهم بعض السكون ، واتجهوا بمشاعرهم إلى النهر الطامى يقابلونه بالمشاشة و يبادلونه التحية وملكتنا نحن أيضاً روعة المنظر فذهلنا ذهول الشاعر المستغرق . وتراءت على مرهفى الحس منا سماتٌ من جلوة الخاطر وطلاقة النفس ؛ وكاد الذهول ينقلب نشوة والحديث يتحول شعراً ، لولا الذباب الذى يقع فى الكأس فيكدر الصفو ، أو المتسول الذى يسقط فى الحديث فيقطع الأنس والمتسولون فى المنصورة كالذباب فى رأس البر ، لا يَدَعون للمجالس مشغلة إلا بالاستعاذة والطرد . وكان الذى صرفنا عن المنظر الساحر والحديث العذب نوعاً من هؤلاء المتسولين طريفاً : كان رجلا كفيف البصر ، وثيق التركيب ، مربوع القامة ، على جسمه جلبابٌ محكم التفصيل ، وعلى رأسه عمامة حسنة التكوير ، وفى يده هراوة صلبة العود كان يقود نفسه على طوار الشارع وهو يقول بصوت جهير رزين ، ولهجة متزنة آمرة : « طالب من الله : أفطر ، وأشرب القهوة ، ونصف ريال ، وواحد يلمه لى » !

لم يكد هذا الرجل يُبدىء ويعيد ، ويذهب ويجىء ، حتى نهض إليه الجالسون بالقرش بعد القرش حتى أعلنهم أنه استوفى حقه ثم انصرف عنهم إلى غيرهم دون أن يجود عليهم بما تعود المتسولون أن يسرفوا فيه من مبتذل الدعاء والشكر !

قال لى صاحبى وقد بدا عليه ما بدا على من العجب العاجب : هذا المتسول

واحد من هؤلاء الأوزاع المتبطلين الذين يلحون على الناس بالضراعة والوضاعة ، ويلح الناس عليهم بالنهر والقهر ، فما السر الذى حمل القوم على أن يفردوه بهذه المعاملة ؟

فقلت له : السر فى رأيى هو القوة التى برزت فى هيئته ولهجته والإنسان منذ كان يعجب بالقوة ويخضع للقوى بدافع من فطرته ، لأن القوة دليل الحياة الصحيحة ووسيلة العيش العزيز ، وهى معبودة منذ كانت فى تهاويل الفلك وأفاعيل الطبيعة وتعاجيب الناس ولولا سلطانها الفطرى على القلوب لما عُبد صنم ولا قدس طاغية .

ربما يتفق لك أن تجادل بعض الناس بالحسنى وتحاجه بالمنطق ، فيركب هواه ويصر على غيه ، فإذا فجأته بالصيحة الغاضبة استكان وسلّم . وإنك لتجد كثيرا من خلق الله يصفقون لهجمات هتلر، ويصفرون[1] لخطب رزفلت ! وأولئك هم العامة وأشباههم ممن غلبت على نفوسهم عبودية القوة فآمنوا بالحيوان وكفروا بالإنسان ، وانقادوا للعاطفة وغفلوا عن المنفعة !

الديمقراطية كما تعلم وليدة المدنية العليا وما كان لمدنى سليم النفس والفكر والإرادة أن يعود إلى عيش القطيع فيلقى مقادته إلى رجل مثله يجوز عليه ما يجوز على البهيم من غلبة الشهوة وطغيان الأثرة ، ولكن النفس البشرية على ما بلغته من المدنية والثقافة لا تزال فى سرائرها بقايا من نوازع القوة تفسد بها وتصلح . فهى فى السلم الطويلة والرخاء الوارف تنماع فلا يمسكها غير الشدة ، وفى الحكم الصارم والسلطان الغشوم تذل فلا يعزها غير الهوادة . لذلك كانت الديمقراطية ياصديقى كاللحم : كلما اعتل الجسم واختل نظامه كان

(١) التصفيق استحسان والتصفير استهجان.

أول ما يشير به الطبيب على المريض ترك اللحم كذلك كلما انحل الشعب واسترخت قواه واضطرب أمره، كان أول ما يأمر به الزعيم نسخ الديمقراطية . ذلك ما كان فى روسيا وإيطاليا وألمانيا وأسبانيا ، ثم كان أخيرا فى فرنسا وطن الجمهورية ومعبد الحرية ومعقل الدستور! كأنما خلق الانسان آكل عشب فاللحم دخيل على طعامه ، وكأنما فطر على الجبر والاكراه فالحرية غريبة عن نظامه!

— ٣ —

حبسنى عن ندامى « الـكافورة » عوادٍ من الشغل والمرض فلم أعد إلى الأنس بهم إلا بعد حين : وهذا الحين على قصره كان كافياً أن يجعل الحال غير الحال ، ويبدّل الجو غير الجو .

هذه طلائع الخريف الباكر قد هيمنت على الأفق : فالرياح السوافى تنوح على عذبات الشجر الوريق فيرتعد فرَقَاً من نذير الجفاف والموت ، والغمائم الرقاق تتجمع غبراً كخمل النعام ، أو تتفرق بيضا كمندوف القطن ، فيتعاقب من تجمعها وتفرقها الظلام والنور والظل والحرور على صفحة النهر ووجه الأرض .

وطلائع الخريف تبـكر فى الريف فتحدث فى نظام الطبيعة قليلا من الفوضى . ذلك أن الفيضان يشارف غايته المقدورة فى أوائل سبتمبر ، فيُترع النيل كل القنوات ، ويغمر أكثر الحقول ، ويكون من جراء هذا الرى الطافح أن يفتر الحر ويرطب الهواء ، وينعقد بخار الماء سحباً فى السماء وأندية على الأرض ، فلا تجد أواخر الصيف مناصاً من الرحيل وفى رحيل الصيف على هذه الحال الفاجئة اضطراب فى حياة الناس والزرع فالقطن يعوقه احتجاب الشمس عن اكتمال النضج فيفسد لوزه ، والإنسان يُعجله تغير الجو عن اتخاذ الحيطة فيميل اعتداله .

* * *

سكنت الريح بعد هبة حمقاء هصرت غصون الشجر ، وكشفت أغطية الموائد ، وقلبت وجوه الُحدّاث والُجلاّس فقطعوا سلاسل الحديث ، واسترجعوا

ز سل النظر   وكان إخواننا المصطفون قد نابهم من ثورة الريح ماناب الناس، فانزوى كل امرىء عن أخيه وانطوى على نفسه. فلما سكت عن الريح الغضب عادوا يستقبلون أنفاس الموج ويستروحون أنسام الزروع، ويستمعون إلى الأستاذ نجيب، وكان يتحدث عن مشكلات التموين ومخزيات الإدارة والأستاذ نجيب مدرس بكلية الآداب، قضى أسابيع من عطلته بين أهله في سمنود. وكان له بجانب ذهنه معدة كمعدة الأحياء لا تفتأ تطلب القوت، والقوت اليوم بفضل الطاغية « هتلر » لم يعد كما كان مبذول المنال يأتيك على اغتماض وأنت وادع، إنما أصبح عزيز الدرك لا تناله إلا ببطاقة أو صداقة أو شفاعة فكان يلقى كتابه من يده ثم يخرج ومعه بطاقة التوزيع يسأل عن القمح فلا يجاب، ويبحث عن البترول فلا يجد.

نظام البطاقات محكم دقيق يضمن لكل بطاقة رصيدها، ولكل مستهلك نصيبه، فمن أين جاء الحرمان والخير موجود؟ وكيف سيطرت الفوضى والنظام قائم؟ كان الأمين الذي حملته الحكومة على خزائن التموين قد قضى أن يكون مع بطاقة التوزيع تصريح منه لا يظفر به إلا ذوو المال أو الجاه أو القربى، وصديقنا الأستاذ لم يؤته الحظ شفاعة من هذه الشفاعات المجابة، فبقي في جمهرة الفقراء يحتشدون كل يوم على باب الأمين يسألون فيه غير مجيب، ويسترحمون منه غير راحم   قال الأستاذ وقد نبض من الغيظ نابضه فارتجفت شفتاه وتهدج صوته

كان مئات من ذوى الضعف والمسكنة يتركون بيوتهم صفراً من القوت والوقود، ويظلون النهار كله على باب هذا (الحاكم) قياماً وقعوداً وبأيديهم القفف والأكياس، وفي جيوبهم البطاقات والنقود، يسألونه التصريح مرة

بالدعاء ومرة بالبكاء ، فلا يجيبهم غير الجنود بعصيهم الملهبة وكلماتهم الغليظة ، حتى إذا أمسى المساء انصرف المجدودون بقصاريهم إلى تاجر بعينه يكتالون بالسعر المقرر ، وانقلب المكدودون بأوعيتهم إلى التاجر نفسه يكتالون بالسعر المكرر . ومن عرق البائسين ودموع اليتامى تنتفخ جيوب وتكتظ كروش ، وبأمثال هذا الموظف وذلك التاجر تدول دول وتسقط عروش !

قلت : وما يدريك يا نجيب ؟ لعل الحال في بلدك هي الحال في كل بلد ! لقد فجر التجار وهودتهم[1] المطامع ، فاحتكروا السلع ، واختزنوا الأرزاق وعموا عن طريق الحق ، وصموا عن نداء الضمير ، ولم تزعهم خشية الله ولا سطوة الحكومة ، لأن الله يمهل ، ولأن الإنسان يهمل . والقانون من غير تنفيذ ورق مطبوع ، والتنفيذ من غير خلق ظلم مسلح

إن في مخازن الأغنياء ومخابىء التجار من الأقوات مالو عرض للبيع المشروع لأعاد إلى الناس عيشهم الأول ، ولكن الفقدان والحرمان سيدومان مادام للطامع يد وليس له قلب ، وللحكومة لسان وليس لها عين

إن الحكومة قد أيقظت وعيها ورأيها لشؤون الوقاية والتموين ، وفي سبيلهما تستطيع أن تبتكر الأسلوب البارع وتسن النظام المحكم ، ولكنها لا تستطيع أن تبعث النور في الحس المظلم ، ولا الشعور في الفؤاد المصمت .

هذه انجلترا تمون ملايين الجنود من نهر النيل إلى بحر قزوين ، ومن أقصى المحيط الغربي إلى أقصى المحيط الشرقي ، فهل تجد مع ذلك جندياً في البر أو في البحر أو في الجو يزعم أن نصيبه الموفور من الطعام والشراب والفاكهة والخمر والحلوى والعتاد والسلاح والذخيرة لم يدركه في موعده الموقوت على أكمل نظام وأعدل قسمة ؟ وهل كان هذا العمل المعجز ممكناً لو لم يكن بإزائه خلق

(١) هودتهم : جعلتهم يهودا .

يعين على قضاء الحق ، وضمير يحث على أداء الواجب ؟

قال الأستاذ : وهل عطل الأنظمة وعوّق الإصـلاح وأوهن العلائق وشتت الوحدة وأشاع البؤس غير فساد الأخلاق ؟ إن ما أصابنا من نكد العيش وذل النفس وحبوط العمل ، نتيجة محتومة لما أصبنا من فحش الجور وقبح الأثرة وسخف الذمة . (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) فقال الأستاذ توحيد : إن التعبير هنا بالدابة من معجزات البلاغة القرآنية ، فإن الناس إذا زاغو عن طريق العدل ، وخرجوا عن منطق العقل ، لا يصدق عليهم غير هذا اللفظ .

وعادت الريح البـاردة تهب هبوب الخلق الشموس فقطعت الحديث ، وقوضت المجلس ، وأنذرت القوم أن يهجروا الـكافورة فلا يعودوا حتى يعود الربيع

— ٤ —

كأننا حين كنا نجلس فى لِحَقّ القهوة على شاطىء النهر كنا نشرف على مسرح من مسارح الفكر والشعور لا يقع فى صفوه كدر من أوزار الناس ، ولا قذر من أوضار المادة . فلما دفعتنا بواكر الخريف إلى داخل القهوة أحسسنا الدنيا بصخبها وشغبها ، وجدها ولعبها ، وصدقها وكذبها ، وفشلها وغلبها ؛ واستشعرنا ثقل الحياة وضعة الناس وسخف الروايه الإنسانية تمثل على أسلوب واحد كل يوم فى أى مكان من الأرض صغير أو كبير ، وبأى عدد من الناس قليل أو كثير .

مسرح الحياة فى القهوة ضيق المجال ضئيل العدد قليل الشهود ، ولكنه صورة مقاربة لمسرحها فى الوجود الأكبر ثلاث سلاسل من المناضد الرخامية امتدت فى ثلاثة أورقة ، قد جلس عليها هواة النرد والدومينو والشطرنج والورق : فأما النرد ، ومثله الدومينو ، فيمثل مذهب الحظ والتهويش فى ابتغاء الربح ؛ فلاعبه لا ينفك طياش الحلم جياش الدم ، يصك الخانة بالقشاط ، ويربك الخصم بالعياط والزياط وأما الشطرنج ، ومثله الورق ، فيمثل مذهب الروية والأناة فى محاولة الكسب ؛ لذلك ترى لاعبه ساكناً ساكنا كتمثال الحكمة ، تحسبه من طول تفكيره لا يعمل ومكسب العقل أو الشطرنج بطىء ولكنه ثابت ، ومكسب الحظ أو النرد سريع ولكنه متقلب

وعلى حواشى هذه السلاسل جلست جماعات مختلفات فى منهج السلوك ودرجة الثقافة ؛ فهؤلاء من رجال العمل يداهى بعضهم بعضاً فى مبايعة أو

مقاولة ، وأولئك من رجال العلم يتنازعون الحجج فى مناقلة أو مجادلة .

وفى مماشى القهوة أفراد من صعاليك الخلق يمشون وأبصارهم لاتقع إلا على النعال أو على الأرض : أولئك هم ماسحو الأحذية ولا قطو أعقاب السكائر ؛ وهم يمثلون الذين رضوا بالهوان والدون ؛ وجهلوا أن فوق الأرض سماء وأن مع (البراطيش) طرابيش !

ولو أردنا لوجدنا لـكل طبقة من طبقات المجتمع صورة من صور القهوة نشقق عنها الحديث ونعمق فيها البحث ، ولـكننا نقف اليوم عند صورة هذه العيون المشدودة إلى الأرض ، أو المعقودة فى النعال ، فإنها أولى بالتفـكير وأجدر بالرثاء

هذه الصورة تمثل الفلاح ابن الأرض وعبد الأرض : قصر نظره على الأرض ليزرع ، كما قصرت البهيمة نظرها على الأرض لترعى ؛ فلا هو يطمح أن يكون إنسانا يترقى ، ولا هى تطمح أن تـكون طائرا يرتفع . حتى الصلاة لايعرف الفلاح منها غير الركوع والسجود ؛ أما دخوله فيها بالتـكبير ، وخروجه منها بالتسليم ، فمعنيان ميتان فى نفسه ، لايفهم من الأول صلته بالله ، ولا من الآخر صلته بالناس وإذا علمت أن هذا الفلاح فى بعض الأمم الدستورية الشرقية هو الـكثرة الـكاثرة والسواد السائد ، علمت كيف يزوّر فيها الرأى العام ، ويزيف النظام الديمقراطى !

كانت هذه الصورة فى تلك الليلة مثاراً للحديث عن الفلاح وما يتحمله من سوء الحالة وقبح الجهالة ؛ وكانت القهوة على ماتريد (الوقاية)[1] مغلقة النوافذ مرخاة الستائر لاتملك لضوضائها المـكتومة وأنفاسها المحبوسة متنفسا ولا فرجة

(١) الوقاية : نظام كان قائما فى زمن الحرب عمله أن يقى السكان أخطار الغارات الجوية .

وكان اصطكاك الثرد وارتفاع الأصوات وضجة المذياع قد جعلتنا أشبه باليهود في بورصة العقود ، فلم نكد نسمع الأستاذ عدلي وهو يلقي هذا السؤال على الأستاذ توحيد :

— إذا صح أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال فماذا نعلل بقاءنا في هذا الدرك الأسفل من الحياة ونحن لانكاد نسمع في كل مكان ومن كل إنسان غير شكوى من اختلال النظام واعتلال الحكم وانحلال الخلق ؟

فقال الأستاذ توحيد : أما إجماع الناس على الشكوى من سوء الحال فما أظن الواقع يؤيده . وإذا كنت تعني إجماع أهل الرأي من رجال الثقافة والصحافة ، فإن شكوى هؤلاء لاتدل إلا على آلامهم هم والقول بأن الأمة متمدنة لأن فيها قوما يأكلون أكل الذوات ، ويلبسون لبس الخواجات ، وبأنها متعلمة لأن فيها جماعة يحملون شهادات من كل نوع ، ودرجات من كل قياس ، وأنها طموحة لأن فيها طائفة من مرهفي الحس وعشاق الكمال يطمحون إلى خطير المساعي ويتشوفون إلى بعيد المطامع ، ذلك القول لايسوغه إلا الغرور أو الهزل

صحيح أننا كنا نقول قبل اليوم . إن المصريين أصل الناس ، وإن مصر أم الدنيا ، فلما كشفت الأغطية الكثيفة عن العيون كدنا نبصر موقعنا من البلاد وموضعنا من الأمم ، ولكن ذلك لايعني أننا شعرنا بالنقص ، ووقفنا على العلة ، وبرمنا بالجمود ، ونزعنا إلى التكمل .

إن الفلاحين وهم جمهور الأمة قد مات في نفوسهم — لسبب لا أدريه — ذلك القلق الروحي الذي يتحدى القدر ويخلق الطموح ويحقق التطور ، فإذا انبثق في صدورهم ذلك النور الإلهي اهتدوا إلى الطريق الإنساني

الذى أضلوه ، فلا يحتاجون إلى من يبنى لهم المراحيض فى البيوت ، أو يضع لهم النعال فى الأرجل . وليس العلم شرطاً فى حبك النظافة وطلبك الحق وإبائك الضيم ورعايتك الصحة ، فإن ذلك كله من مقتضيات الفطر السليمة . والبدوى على عنجهيته وجهله لا يزال المثل المضروب فى الاعتداد بالنفس والاحتفاظ بالكرامة وفى يقينى أن الواجب الأول على رجال الدين وأقطاب الصحافة ورجال الإصلاح أن يقنعوا الفلاح بأنه إنسان . ذلك وحده كفيل أن يعلمه كيف يعيش ، وأن يلهمه كيف يرق !

وهنا قدح الأستاذ توحيد زناده الفضى النادر ، وأشعل سيجاره التسكانى الفاخر ؛ ولم يكد يطفئه ويستأنف الكلام حتى أغلقت مفاتيح الأنوار ، وأطلقت صفارة الإنذار[1] فخشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، واستولى على الناس شعور من صريح القلق ورياء الصبر فاستحال الإصغاء وانقطع الحديث !

(١) صفارة لمويه كانت مصلحة الوقاية تطلقها أول الغارة الجوية وآخرها .

لا تقولوا أين الكتاب وقولوا أين القادة

(٢٤ فبراير سنة ١٩٤١)

أو كلما كظمت الأنفاس روائح الشر ، وكربت النفوس غواشي الفساد ذهل الناس عن مرسلي الريح ومثيري القتام وقالوا أين الكتاب ؟ هل الكاتب إلا نذير ؟ وهل على الكتاب إلا البلاغ ؟ لقد كتبوا حتى أوشك المداد أن ينفد ، وخطبوا حتى كاد الريق يجف ؛ ولكن أكثر العامة لا يقرأون ، وأكثر الخاصة لا يفهمون : ومتى أغنى القول عن الفعل وجزى الرأى عن العزيمة ؟

إن من أقبح ما يعاب علينا وعلى أمم الشرق أننا لم نعرف من أدوات السياسة ووسائل الإصلاح غير الكلام والكتابة ؛ فسياستنا خطب ، وإدارتنا تقارير ، ومناهجنا وعود. ولو كان الشعب قارئاً لرجونا من وراء الكتابة صلاح النفس فى الفرد وسمو الروح فى الجماعة ، ولكن الأمية لا تزال بفضل وزارة المعارف حجاباً مستوراً بين عيون الناس ونور الحق . فماذا عسى يصنع الكتاب وليس لهم من الأمر شىء ؟ هل يصنعون إلا أن يفتحوا بأسنان أقلامهم أجفان المتعلمين لتنفذ إلى عيونهم صور العيوب فيدركوها ، وهم قد فعلوا ذلك ولم يألوا ؛ فعلوه فى الكتب والصحف ، وفى المدارس والمسارح ، حتى لم يبق فى هؤلاء الذين تقسموا الحكم ، وتوزعوا السلطان ، وتنازعوا القيادة ، من لم يحفظ صور الفساد ووجوه الإصلاح عن ظهر قلب ! ولكن الله الذى آتى زعماءنا ملكة الكلام لم يؤتهم ملكة العمل فهم يستطيعون أن يقولوا ما قال الكتاب ،

ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ما فعل القادة ومصداق ذلك أنك تراهم فى أندية الأحزاب، وفوق مقاعد النواب، وبين أعمدة الصحف، يكشفون عن مواضع النقص، ويشيرون إلى موقع الكمال، فيفتون فى كل مسألة فتوى العالم، ويدلون فى كل معضلة برأى الخبير، ويعترضون على كل أمر اعتراض اليقظ؛ فإذا وليتهم الحكم وخلينا بينهم وبين العمل، التاث عليهم الأمر، وبرّح بهم التطبيق، وأصبح جهدهم مصروفاً إلى مناقضة القول بالقول، ومعارضة الرأى بالرأى؛ كأنما تبوأوا مقاعد الحكم ليردوا وهم وزراء ورؤساء، على ما انتقدوه وهم كتاب وخطباء!

* * *

مَن من الزعماء يجهل أن الأمة لا تزال متخلفة فى الخلق والمعرفة والحضارة عن أدنى أمم الأرض المعدودة قروناً من الزمان؛ فحياتها بدائية، وأخلاقها همجية، ونظمها ارتجالية، ومعيشة الزراع والصناع فيها أقرب إلى معيشة البهيم، منها إلى معيشة الإنسان الكريم؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة؛ ولكن اشتغالهم بسفاف الأمور، صرف أكثرهم عن النظر فى شؤون الناس وأحوال المجتمع، فلا يذكرون الشعب إلا يوم يقوم الانتخاب، وتصطرع الأحزاب، ويحتاج كل طامع إلى سلالم من أكتاف المساكين يصعد فيها إلى النيابة والحكم.

ومَن من الأغنياء يجهل أن الفقر فى مصر ضرب من الرق يذل النفوس، ويقتل المواهب، ويشكك المرزوء به فى العدل والحق؛ فهو يسكن ليستكين، ولكنه قد يثور ليثأر؟

كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة وهم

مقتنعون بأن علة هذا الفقر هى أكلهم الحق الذى جعله الله فى أموالهم للفقير ؛ ولكن العلم وحده لا يبسط الأنامل الكزة ، ولا يهز النفوس الشحيحة !

ومَن من العلماء يجهل أن دين الله صالح لكل جيل من الناس ولكل حين من الدهر ، فهو ثابت بحقيقته ثبوت الخالق ، ولكنه متطور بطبيعته تطور المخلوق . كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ، ولكنهم أغلقوا على عقولهم باب الاجتهاد فظلوا فى دنيا الماضين ، يذهبون ما ذهبوا ، ويقرأون ما كتبوا ، ويجذبون ركب الإنسانية إلى الوراء ثلاثة عشر قرناً ليأخذ من ساكنى القبور ، جواز المرور !

ومَن من الموظفين يجهل أن الأمة هى أسرته الكبرى ، وأن الوطن هو بيته الأكبر ، فالعمل الذى يقوم به هو عمله ، والمال الذى يقوم عليه هو ماله ، والرجل الذى يقف أمامه فى شأن من الشؤون هو أخوه ؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ؛ ولكنهم فى الكثير الغالب يتحاملون على ضمائرهم فيخضعونها لسلطان الكبر والأثرة ، فيرفعون أقدارهم على أقدار الناس ، ويضعون المنفعة الخاصة فوق المنفعة العامة ؟

ومَن من التجار يجهل أن الحرام لا يزكو ، وأن الغبن لا يحل ، وأن الحكرة لا تجوز ؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ؛ ولكنهم فى سبيل الثراء الدنىء يتعامون عن بؤس الفقير ، ويتصامون عن صوت الضمير ، ويهتبلون فرص الحرب ليعصروا الذهب والفضة من دماء القتلى ودموع الأيامى وعرق العملة !

* * *

الواقع الذى لامرية فيه أن أمم الشرق لا يعوزها إدراك النقص ولا عرفان الواجب ؛ إنما يعوزها الرجل الذى يطبق علمها على العمل ، ويوحد رأيها على الحق ، ويجرى خلقها على الرجولة ، ويجمع شتاتها على الطريق فهل لصديقى العشماوى بك أن يوافقنى على أن مصر اليوم لا تحتاج إلى « علىّ » بلسانه الحكيم ، وإنما تحتاج إلى « عمر » بدرته[1] الحازمة ! ؟

(١) الدرة : عصا عمر بن الخطاب

بمناسبة الأربعين

بعض الكلام فى (مى)

(٨ ديسمبر سنة ١٩٤١)

وُلدت « مى » وعاشت ثم ماتت كما يولد النهر من قَطْر السماء ، فتربيه الطبيعة فى الينابيع الهادئة الفسيحة ؛ ثم تبعثه برسالة الحياة إلى حوضه ، فيشق بالجهد والصبر طريقه الموحش فى صخور الجبل وقفار الأرض وأصول الغاب ، ثم يُلقى على شاطىء الوادى ما حمل من فضل الله ، فيحيا الموات ، وتتجمع الخيرات ، وتنشأ الحضارات ، وتتألف الملاحم ، ويتكلم التاريخ . ثم يأخذ النهر مجراه بين الحقول الناضرة والمدن العامرة شادياً بالمال والجمال والحب حتى يذهب فى عباب البحر كما تذهب الروح الطيبة فى فضاء اللانهاية !

لن تجد « لمى » فى حياتها وموتها أقرب من هذا التشبيه فقد كانت فى خلال ما غشى الشرق من الهمود والظلام قبساً من الحياة من حسه وهيجه وسناه انتعش ما همد منه ، واستنار ما أظلم فيه

كانت « مى » فى حياة القاهرة ظاهرة من الظواهر العجيبة ! والعجيب فيها أنها كانت كممدوح المتنبي واحدة من ناس دنياها وليست منهم : كانت جنساً من الخلق الجميل تميز بخصائص الجنسين ، فكان فيها أفضل ما فى الرجل وخير ما فى المرأة فمن كان يسمعها خطيبة فى محفل ، أو يشهدها محدثة فى منزل ، كان يحسبها — وقد استدارت على رأسها الأنيق هالة من السحر والفتنة — « قليوب » إحدى بنات « جوبتير » التسع ، وإلهات الفنون التسعة ، قد سرقت من أخواتها أسرار فنونهن ثم هبطت من فوق جبل « البرناس » إلى ضفاف النيل .

تجدد فى الناس آى المسيح تميت القنوط وتحيي الأمل

ومن يستطيع أن يحسب « مى » غير هذا وهى فتاة قد نشأت فى عهد كانت المرأة فيه شيئاً من المتاع ، ترى ولا تعلم ، وتسمع ولا تفهم ، ثم تحذق هى الكتابة والخطابة والشعر والفلسفة والتصوير والموسيقى ، وتتقن العربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والإسبانية ، وهى لم تولد فى قصر ، ولم تتخرج فى جامعة ؟ !

* * *

أبصرت « مارى زيادة » الدنيا أول مرة فى « الناصرة » بلد المسيح ، ومن هنا استوحى أبواها اسمها الأول على ما أظن . ثم أرسلت إلى منبت أسرتها فى قضاء كسروان بلبنان ، فتثقفت طفولتها قليلا فى مدرسة « عين طورة » ، ثم هاجرت إلى مصر مع والديها ، فتفتح صباها الغض على ماء النيل ، وتفتق ذهنها الصافى على نسيم الوادى . وكان والدها إلياس يحترف الصحافة ويصدر (المحروسة) فكان لها من عمل أبيها ، ومن أصالة الملكة فيها ، حافز سديد

التوجيه إلى الأدب . ولكن أدبها على الرغم من نشوئه و بلوغه و نبوغه فى القاهرة لم يتأثر بأدب مصر ، و إنما تأثر فى شكله وموضوعه بأدب لبنان ، لأن الأدب اللبنانى كان وحده فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر مظهر الحياة والجدة والتنوع فى الأدب العربى الحديث فبينما كان الأدب المصرى يصدر عن الأزهر ، والأدب العراقى يصدر عن النجف ، والأدب السورى يجرى على أسلوب هذين الأدبين ، كان الأدب اللبنانى يصدر عن مدارس تتسم بسمة الدين ، ولكنها تعترف بوجود الدنيا ؛ فهى تعلم العلوم الحديثة ، وتلقن اللغات الحية ، وتعتمد فى أدب القلب على الإنجيل ، وفى أدب اللسان على القرآن ، فبيضت الكتب الصفراء[1] ، ورتبت المعاجم المشوشة ، ونشرت الكتب المقبورة ، ولقحت الآداب العربية بالآداب الأوربية وكان من أثر هذا اللقاح النقد والترجمة والصحافة والتمثيل والقصص وكان من ثمر هذا اللقاح طلائع هذه النهضة من آل اليازجى والبستانى والشرتونى وزيدان وصروف وشميل والريحانى وجبران ومطران . وكان لابد لمارى العربيـة أن تجنى ثمر الثقافة مما غرس الفرنسيسكان والأمريكان والمارون ، وأن تقبس نور العروبة من الضياء والهلال والمقتطف ، وأن تناجى عنادلنا الغردة فى رياض مصر وخمائل لبنان ومنازه الدنيا الجديدة ، وأن يحملها الاعتداد بجنسها ولغتها على أن تقتصر من اسمها الأعجمى على طرفيه ليكون اسمها العربى (مى) وعلى هذا المنهج بلغت مى غايتها من الأدب والعلم والفن ، فاستفاض ذكرها على الألسنة ، وعظمت مكانتها فى الأفئدة ؛ ووصلت بينها و بين كثير من أولى الفكر والجاه أسباب من الروح ؛ فكان صالونها فى أيام الثلاثاوات كصالون الولادة بنت المستكفى منتجع الصفوة من أقطاب السياسة وأعيان الأدب يعكفون على أصدق مثال

(١) كتب الأزهر المعقدة

للأناقة واللباقة والذوق فى فتاة بارعة الظرف ، تشارك فى كل علم ، وتفيض فى كل حديث ، وتختصر للجليس سعادة العمر كله فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة !

* * *

لقد كان لمى ولصالون مى فى أدب العصر آثار وسمات : ألهمت صبرى وأوهمت الرافعى[1] ، وألهبت جبران ، ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان متنوعة الأفنان أضافت إلى ذخائر الفكر الإنسانى ثروة .

ثم تقدم العصر وطوت (مى) أكثر مراحل الشباب ، فتنكر الدهر وتغير الناس . وورد أبواها متعاقبين حياض المنون فاستكانت للحزن، وأخلدت إلى الوحدة ، فانفض السامر الأنيس ، وانطفأ السراج اللامع وانحدرت (مى) فى طريق الوحشة والمرض والنسيان إلى نهايتها الأليمة !

* * *

أما بعد فقد قال بشار لبعض جلسائه ذات يوم : ما سمعت شعر امرأة قط إلا أحسست فيه الضعف ! فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال فى لهجة الفطن المحترس : أوه ! تلك فوق الرجال !

ونحن نقول فى مى ما قال بشار فى الخنساء ، ونزيد عليه أن مى هى الأديبة الكاملة فى تاريخ الأدب العربى كله ! أما إجمال هذا التفصيل فله مناسبة أخرى

---

(١) كان المرحوم مصطفى صادق الرافعى من زوار مى وكان يتوهم من جميل لقائها أنها تحبه

على ذكرى عيد الميلاد

(٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤١)

بعد ثلاثة أيام تتجدد ذكرى « مولد المسيح » فيقف أبناء « قابيل » آلة الحرب ؛ ثم يخرون جاثين لله فى الثكنات والمطارات والبوارج والخنادق والحانات والكنائس يرتلون وهم حاسرو الرءوس نشيد السلام المأثور :

« المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ! »

فإذا أصبحوا انقلبوا سراعاً إلى آلات الفناء فأرسلوا منها الصواعق على إخوانهم الذين هتفوا معهم بالمجد لله فى السماء و بالدوام للسلام على الأرض ، فسحقوهم أو أحرقوهم على رمال لوبيا ، وفوق ثلوج روسيا ، وبين أطباق الهواء ، وتحت أعماق الماء ؛ كأنما اختلت الدنيا ، واختبلت الناس ، وانقلبت المعانى فصار الدين معناه الكفر ، والسلام معناه الخصام ، والمفاوضة معناها الختل ، والمعاهدة معناها الغدر ، والأخوة معناها العداوة ، وأصبح هذا الكوكب بقاراته ومحيطاته وسكانه كرة من النار تتقاذفها الأرجل الحديدية بين فريق هتلر وموسولينى والميكادو ، وفريق تشرشل وروزفلت وستالين ولا يدرى إلا الله من سيقذفها فى (الجول) ؛ وما الجول هنا إلا عبودية الأبد ، أو حرية الأبد !

كان العالم المسيحى فى مختلف أقطاره يجدد بعيد الميلاد ما انطمس فى نفسه من معانى المودة والرحمة والأسرة والطفولة ، فيصل بالتزاور ما انقطع من أسباب القرابة ويؤكد بالتهادى ما وهى من عرى الصداقة ، وكان الميكادو على وثنيته يقوم بدور الشيخ الطيب « نويل »[1] فيحمل اللعب من اليابان بأبخس

(١) إشارة إلى أن اليابان كانت تصدر إلى الأمم لعب الأطفال قبل الحرب .

الأثمان إلى كل بيت فيه طفل ؛ فلما صُلبت المسيحية فى أوربا على صليب النازية المعقوف انتكست الطباع ، وانعكست الأوضاع ، وانتكأ بعض الشعوب إلى البربرية الأولى ، يغالبون بعصبية الجنس ، ويسودون بيأس الحديد . وجامل الميكادو فى الشر كما جامل فى الخير ، فترك دوْر الشيخ « نويل » وقام بدَور الأب « فُويتار[1] » ، فاستبدل بلعب الاطفال من صور الدبابات والطائرات والسابحات ، قطعاً كالجبال من الحديد والبارود تدك مدائن البر ، وتبتلع جزائر البحر ، وتشعل النار فيما بقى من أطراف الأرض ، حتى أوشك أن يخرج من الصواب قول الفلكيين إنها كوكب مظلم !

* * *

بعد ثلاثة أيام تعاود الناس ذكرى ليلة الميلاد وهم من تفاعل المذاهب والقرون فى رجفة من الصراع الماحق توشك أن تقيم عليهم القيامة وسيذكر الشباب المجندون لمجالدة الحق أو مجاهدة الباطل أنهم كانوا فى مثل هذه الليلة أمام المواقد وحول الموائد قرة عيون وزينة بيوت ، وأنهم فى هذا اليوم يستقبلون عيد الحياة وهم مشردون فى مجاهل الأرض ومساقط الموت لا يعرفون متى يصرعون ولا أين يقبرون ثم يقول هذا الشباب الرّيق الريان لنفسه : أبعد التربيب والتهذيب والعيش الناعم والأمل الباسم والغد المرجو نصير طحيناً لهذه الرحا الهائلة من غير سبب موجب إلا نزوة من نزوات الطيش ، فى رأس رجل من طلاب العيش !

---

(١) يعتقد أطفال المسيحيين أن بابا نويل يزور البيوت ليلة عيد الميلاد ومعه الأب فويتار فيوزع هو على عقلائهم اللعب والحلوى ، ويترك الأب فويتار لخبثائهم حزما من العصى الصغيرة اللينة .

— أما الزعماء الستة الذين يحاولون أن يقرروا مصير العالم على مشيئة الله أو على هوى الشيطان ، فسيذكرون بمولد المسيح أشياء أخر : سيذكر هتلر بيلاطس ودقليانوس ، وسيذكر الدنشى يهوذا ونيرون وسيذكر رزفلت بولس ، وسيذكر تشرشل قسطنطين ، أما ستالين إن ذكر فسيذكر لوثر ، وأما الميكادو فلا يذكره العيد معنى من حياة المسيح ، ولا مغزى من تاريخ المسيحية ، إنما يذكره تلك اللعب التى كان يقدمها إلى لهو الاطفال ليربح من ورائها القروش ، فأصبح اليوم يقدمها إلى قتل الرجال ليربح من ورائها العروش !

* * *

سبحانك ربّ السموات والأرض ! ما كان لنفس مؤمنة أن تحسبك تركت أمر هذا العالم لهؤلاء الحمقى من خلقك

لا جرم أن لك من هذه القارعة الصغرى حكمة تدق على بصيرة ابن آدم .

إن مع القيامة نشورا أكمل وحياة أفضل كل نظام سنه ابن العاصى[1] سيتغير ، وكل قانون نزغ فيه الشيطان سيلغى ، لن يبقى يامولاى غير شرعك ، ولن يدوم غير دينك .

وكلت ابن آدم إلى نفسه فجرب قواه كلها فى تدبير أمره وتسخير غيره فما أنتج غير الاضطراب والخراب والفوضى .

تبجح بعلمه وتشريعه وفلسفته ؛ وزعم أنه هيمن على الغريزة بقوة الخلق ، وسيطر على الطبيعة بسلطان العلم ، وتوهم أنه يستطيع بما كشف عن الأسرار وذلل من القوى أن يصنع مفاتح الغيب ويقتحم أبواب القدر ، فلما ابتليته بتحقيق زعمه وتطبيق فهمه ، تحرك فى طبعه الطين[2] الراسب ، وتيقظ فى نفسه الحيوان الراقد ، وتألبت الأهواء على رأيه فاضطرب وتفرق ، وتغلبت

---

(١) العاصى . آدم (٢) إشارة إلى أن آدم خلق من طين .

الطامع على جمعه فتنازع وتمزق !

* * *

رباه إنا مؤمنون ، وإنما مطمئنون ، فأدم علينا نعمة الهداية ، واكفنا شر هذه الغواية ، واجعلنا الأدلاء على طريقك ، والأمناء على حقك ، حتى تنجلي هذه الغمة عن الدنيا ، فيرجع إليك الغوى ، ويخضع لك القوى ، ويلوذ بك الضعيف !

مشكلة الرغيف

(١٩ يناير سنة ١٩٤٢)

وكيف لا يكون للرغيف مشكلة ، والمشكلات منذ هبط الإنسان الأرض إنما تتناسل من أب واحد هو الرغيف ، ومن أم واحدة هي المرأة ؟

سمِّ الرغيف وسيلة حفظ الحياة ، وسم المرأة وسيلة حفظ النوع ؛ ثم حاول أن تنسب بشيء من التحليل الدقيق جميع ما سجل التاريخ من خصومات وأزمات وثورات إلى هاتين الوسيلتين ، أو هاتين الغريزتين ، فلن تجد في نسبة البنات إلى أبويهن غموضاً ولا مشقة .

كانت المرأة في بدء الخليقة هي حواء ، وكان الرغيف في حياة الجنة هو الشجرة ، وكانت الأثرة والطمع والحسد هي إبليس . وكانت الضحية لهؤلاء جميعا هي سعادة آدم .

ثم مضى الرغيف والمرأة وإبليس يعملون في دنيا الأرض ما يشاء القدر : يصلحون هذا ويفسدون ذاك ، ويعمرون هنا ويخربون هناك ، ويخلقون التنافس لتنشط عناصر الحياة ، ويوجدون الخلاف لتتفق عوامل الموت ، وينزعون الملك من يد إلى يد ، وينقلون الحكم من دولة إلى دولة ، حتى قال ابن أبي الحديد بحق « لم تسَلّ السيوف إلا لوجه أصبح من وجه ، ولقمة أسوغ من لقمة »

ولو كان الملائكة يأكلون الرغيف ويخالطون المرأة لكانوا أناساً كالناس ، ولكان الملكوت الأعلى كالملكوت الأدنى ؛ ولكن الله لم يشأ أن يجعل

النور كالظلام ، ولا أن تكون السماء كالأرض !

على أن الرغيف لاكتنان سر الحياة فيه كان أشد الثلاثة إيقاداً للخصومة !

كان مالك بن أنس يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول « والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر[1] »

وأنت إذا ذكرت فى تاريخنا ، العدنانية والقحطانية ، والقيسية واليمانية ، والمهاجرين والأنصار ، والهاشمية والأموية ، والعباسية والعلوية ، والعروبة والشعوبية ، والتركية والفارسية ، والهلالية والصليبية ، والإسلامية والقبطية ، والسعدية والعدلية ، والفُلانية والعِلانية ، لما قلت إلا ما قال أنس بن مالك !

كذلك إذا ذكرت فى تاريخ الناس الشرقية والغربية ، والديمقراطية والدكتاتورية ، والرأسمالية والشيوعية ، لما وجدت لهذه الأسماء معنى ولا مغزى إلا ما قاله كثير بن شهاب لغلامه وقد طلب منه الطعام يوماً فقال الغلام ما عندى إلا خبز وبقل قال : ويحك ! وهل اقتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل ؟

لذلك كله عالج الدين مشكلة الرغيف بتنظيم المعاملات ، وفرض الصدقات ، وكفكفة النفوس الشرهة بالقناعة والعفة والحدود ؛ واتقت الدول جرائر الرغيف بالعلم والنظام والإصلاح والاستعمار . فإذا غلب الكفر أو طغت الأثرة ، شبت الثورة أو نشبت الحرب . ذلك أن الفرد أو الشعب يصاب فى حريته فيصبر ، ويؤذى فى كرامته فيستكين ، ويفتن عن عقيدته فيرضى ؛ ولكنه إذا حرم

(١) الثريد الأعفر : الخبز المفتوت فى مرق اللحم .

الرغيف انقلب ضارياً كالوحش ، أو جارفاً كالبركان ، لا يذر من شيء أتى عليه إلا جعله كالرميم .

* * *

هذه مصر هبة النيل وجنة الشرق وملتقى البحرين والبرين طالما عركتها الخطوب فاستكانت للقدر ، واستعانت بالصبر ، ومضت على حسن ظنها بالله ، تتربص الدوائر بالمغير ، وترجو الغوائل للظالم ، حتى إذا أخذت هذه الحرب الأكول تنازعها الرغيف ، أصبحت كلها لساناً واحداً يتضاغى مخافة انقطاعه ، فلا تجد فى الأمة ولا فى الحكومة إلا سائلاً عنه ، أو شاكيا منه، أو باحثاً فيه، أو ساعياً له ؛ وكأنما اختزلت لغات الناس فأصبحت لا تعدو ألفاظ التخزين والتموين ، والإحصاء والاستيلاء ، والاستيراد والاستكثار ، والمطاحن والمخابز ، وما يدخل فى هالة الرغيف النورية من مادة وأدب فليت شعرى إلام تؤول الحال إذا تأزم الأمر ، وضاقت موارد الرزق ، فلا أرض تغل ما يكفى ، ولا بحر(١) يسد ما ينقص ؟ !

تمثيل الحال فى الخيال مرعب فما بالك بتقرير الحس وتصوير الواقع ؟

الأمر جد لا مساغ للعبث فيه . والخطر بادٍ فلا مناص من الاعتراف به . والتقصير ثابت فلا سبيل إلى التنصل منه وإذا فاتنا الاستبصار للمستقبل فلن يفوتنا الاعتبار بالحاضر وإذا عجزت السياسة أن تحل مشكلة الرغيف فلا أزعم أن يحلها الأدب وكل ما يستطيع الأديب أن يقوله للسياسي إن مشكلة التموين لا يحلها أن يكون لها وزارة ، ولا أن تقصر على أمورها السياسة والإدارة ، إنما يحلها أداء الحاكم للواجب ، وقضاء المحكوم للحق وأقسم بالله جَهْدَ القسم لو أن القائمين على شئون الناس بسطوا لها الأيدى النظيفة ، وتحروا

(١) المراد بالبحر أن يأتى الناقص عن طريقة من الخارج وهو الاستيراد .

عيها الأوجه الصالحة ، ثم ساووا بين العامة والخاصة فى القسمة ، عدلوا بين الأقوياء والضعفاء فى التكليف ، وأيقظوا العيون لخفايا الحيل ، وأنضجوا الآراء لمشتبهات الأمور ؛ ثم عاونهم الشعب بفضائله ، فلا يطمع المنتج ، ولا يدخر المستهلك ، ولا يحتكر التاجر ، ولا يشح الغنى ، ولا يجزع الفقير ، لما كان الرغيف فى مصر مشكلة ، ولا كان للتموين فى الحكومة وزارة ولكن مشكلة المشكلات هى أن مكارم الأخلاق لا تباع ولا تعار ولا تكسب فى الزمن القليل ، إنما هى تهذيب الدين الصحيح وصقال الدهر الطويل .

صحة الفقير وثروة الغني

(٢ فبراير سنة ١٩٤٢)

في هذه الأيام العجاف يكثر الكلام في الغني والفقر والكلام في الغني والفقر وما يتصل بهما يوشك أن يكون الوظيفة الطبيعية للسان الإنسان؛ ففي الرخاء يكون تعبيراً عن سخط مكظوم، وفي الشدة يكون تبريراً لسخط متفجر. فإذا وجدت في الفقراء من لا يسخط على الأغنياء فثق أنه من أتباع الفلسفة التي تؤمن بمبدأ التعويض في قانون الطبيعة وتقول: «إذا لم يكن للفقراء الأرض فلهم السماء، وإذا لم يُرزقوا المال فقد رزقوا الصحة والآخرة خير وأبقى من الدنيا، والعافية أعلى وأغلى من الثروة».

من هؤلاء الذين جعلوا القناعة فلسفة رجلٌ من القراء المنكرى الصوت لا يملك في أكثر أوقاته غير قوت يومه، ولكنه مع ذلك موفور الحظ من السلامة، لا يتسخط ولا يتبرم، ولا يجد في جسمه ما يشكوه، ولا في نفسه ما يرجوه، ولا في غده ما يخافه. رآني بالأمس جالساً في مكان ضاح من القهوة أنقع في أشعة الشمس الفاترة جسدي المقرور وعليّ من ثياب الشتاء لفائف فوق لفائف، فأقبل إليّ يطفر طفور الظبي بين المناضد المصفوفة وليس على جسمه غير غلالة بيضاء من التيل، وعباءة سوداء من الصوف، قد رفع ذيلها إلى عاتقه، ثم جلس متهلل الوجه متماسك البدن مكتنز اللحم رفاف البشرة يكاد إهابه من فرط الرّي وسورة المرح ينشق فلما تكلم وجدته على ما عهدته من فراغ البال وسلامة الصدر وقلة المبالاة، فلم أتمالك أن بدهته بهذا السؤال: أفي هذه

السن وفى هذه الأيام لا أرى للخبز المخلوط[1] أثراً على وجهك ، ولا أسمع المجاعة المتوقعة ذكراً على لسانك ؟

قال الشيخ منصور بلهجة الخلىّ وضحكته : والله يا سيدى ما أكلت الخبز نقياً من قبل حتى أشكو خلطه اليوم . ومن تعود أن يأكل الخبز مخلوطاً بالحصى والتراب ، لا يصعب عليه أن يأكله مخلوطاً بالذرة والرز . أما المجاعة التى يتوقعها الناس فلا تختلف عما أنا فيه وإذا جاز لى أن أشكو شكوت إلى الله طغيان الصحة ؛ فان للصحة الطاغية تكاليف أقلها النَّهم والقرَم[2] وتحلب الريق وسُعار الجوف وسرعة الهضم وتحقيق الشبع الدائم للشهوة الدائمة لا يمكن إلا بخزائن عاشور ومخازن عمرو . إنى أسأم الصحة كما يسأم غيرى المرض وفى ساعة من ساعات الشبَرَه يقوم فى نفسى أن الله قد منح الفقراء الصحة ليزيد ألمهم من الحرمان ، ولكننى حين أسكن أطيط[3] أمعائى بفطيرة من الذرة وطبق من المش ورأس من البصل وحزمة من السريس ، ينمحى ما صوره الخيال فى ذهنى من أطيب الآكال وأعذب الأشربة ؛ ثم تنتشر على بدنى حرارة العافية فأرى الجمال فى كل منظر ، والنعيم فى كل شىء ، واللذة فى كل عمل ؛ وأدرك بمشاعرى السليمة القوية ما انبثّ فى عالم الحس من كل متاع ويخيل إلىّ من فرط الشعور وفيض السرور أن الهواء الذى أنشقه هو مددٌ من الروح الخالق يبعث فى جسمى النشاط وفى نفسى الغبطة .

أؤكد لك يا سيدى أن الغنى يجوع مثل جوعى ، ولكنه لا يشبع مثل شبعى . أنا إن أصبت شِبْع بطنى بأى لون من ألوان الطعام بدا على من دلائل الراحة والسعادة ما وصفته لك أما الغنى فإنه إذا جرؤ على معدته المترفة بالشبع قضى وقت هضمه العسِر الطويل وهو فاقد الشعور بالدنيا لشدة ما يلقى من حَزَ-

---

(١) كان الخبز يخلط فى زمن الحرب بالذرة أو بالرز لقلة القمح .

(٢) القرم : شدة الشهوة للحم . (٣) أطيط الأمعاء قرقرتها من الجوع .

الحموضة وثقل الطعام وضيق النفس وضربان القلب وهو فى الكثير الغالب ممعود أو مفؤود أو مكبود أو ممرور أو مصاب بالملح أو بالسكر[1] ، فلابد له من الجرعات المختلفة التى تنيم الألم أو تكافح الداء أو تؤخر الخطر . وقد ينتهى به الأمر فى الزمن القريب أو البعيد إلى الإمساك عن الطعام إلا ما يمسك الرمق

كان لى عند الباشا ثمن أربعين مقطفاً ضفرتها من الخوص لدائرته ، فلما جئته أقتضيه الثمن أكبره وأنكره ، وتهدم على بالكلام العنيف وقال محتجاً لسبابه واغتصابه : « إن ضفر الخوص عمل العاجز وإن رجلا فى مثل صحتك وقوتك لايجدر بيديه غير الفأس والكريك » فقلت له فى مثل هذا الهدوء الذى أحدثك به : « يا باشا إن نصيحتك إياى على نفاستها وقداستها لا تبرر أكلك لحقى . ومن اليسير علىّ أن أنزل لك عن هذه القروش ثم لا أنقص شيئاً ؛ ولكنك قد تزيد شيئاً . وكلما زاد مالك ساء حالك إنك قد بلغت أرذل الغنى ثم انحدرت إلى أسفل الفقر . فأنا وأنت يا باشا سواء : أنا فقير لأنى مصاب فى جيبى ، وأنت فقير لأنك مصاب فى معدتك ، فأنا أشتهى ولا أجد ، وأنت تجد ولا تشتهى ؛ ولكن حرمانى مؤقت وحرمانك مؤبد ، ونقصى يسده الرضا ونقصك يزيده السخط ، وجيبى المفتوق يرتقه الرّفاء بقرش ، ومعدتك البالية لا يجددها الطبيب بمليون » .

وكنت لا أزال أرسل الكلام على هينَة وحذر مخافة أن ينفجر فى وجهى على عادته مع الناس ، ولكن المعجزة التى ظهرت على يده أو على يدى — لا أدرى — هى أن الرجل استرخى وتليّن وبدا على وجهه الأبكم سمات التفكر لأول مرة ثم قال فى لهجة لا تزال فيها بقية حائلة من الشموخ : « ليتك تدلنى على ما فتل عضلك وشد عصبك ودفّق فيك هذا الدم الفوار

---

(١) الممعود : المصاب فى معدته ، والمفئود المصاب فى قلبه ، والمكبود المصاب فى كبده ، والممرور المصاب فى مرارته .

الحار النقى ، فليس ذلك من عمل طاه ولا طبيب » فقلت له فى شىء من الشماتة : ذلك يا باشا تعويض الفقر من الغنى ، وهو صنع الله ولا حيلة فى صنعه . أما الطاهى فهو الذى يقدم للغنى خيوط الكفن وهو ينسجه بأضراسه . وأما الطبيب فلا يعرفه من لا يشبع ولقد قال أبو جعفر المنصور لأعرابى : « أما عندكم فى البادية طبيب ؟ » فقال « يا أمير المؤمنين ، حُمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار » والشبه بين حالنا وحال البدو فى الخضوع لقانون الطبيعة واضح . .

قطعت الحديث على الشيخ منصور بهذا السؤال : أتكره أن تكون فى مكانه وهو فى مكانك ؟ فأجاب الخبيث : لا أقبل ثروة قارون إذا لم أحتفظ بمعدة منصور ، ولا أرفض وزارة المالية إذا أسندوا إلىّ معها وزارة الصحة !

كيف عالج الإسلام الفقر

(٩ فبراير سنة ١٩٤٢)

ألق عن عينيك هذا المنظار السحرى الذى صنعه الأدب والفن ، ثم انظر إلى الحياة فى شتى مظاهرها تجدها معركة هائلة على القوت لا تنقطع ولا تفتر وهذه المعركة التى لا تدرك لها طولاً فى الدهر ، ولا عرضاً فى الكون ، لا تنفك رحاها تلفظ على جنباتها قتلى وجرحى ؛ وأولئك هم الذين خذلهم الضعف فماتوا شهداء ، أو عاشوا فقراء . أما الموت فلا حيلة لأحد فيه . وأما الفقر فهو الداء العياء الذى خامر الإنسانية منذ طبعها الله على القدرة والعجز ، وبرأها على الكمال والنقص. وهذا الداء كان وما زال موضوع الطب الاجتماعى يخفف بُرَحاءه بالمرقدات ، ويكفكف غلواءه بالتمائم ؛ ولكن دواءه الناجع ظل من وراء إمكانه حتى وصفه الله فى دينه ، وطبقه فى شرعه ، فانحسمت العدوى وانكشفت البلوى وبرئت العلة . فإذا رأيت فى وطن الإسلام طرائد للفقر وفرائس للجوع فصدّق الله وكذّب نفسك إن الوطن الذى ترى لم يعد ذلك الوطن الذى أشرق بنور الله وتعطر بريح الجنة ؛ إنما هو طلل ترحّل عنه أهله، ومريض فرط فيه أساته ، ومسلمون انطمست فيهم معانى القرآن فتعبدوا بألفاظه ، وحاكمون أعضلت[1] بهم أصول الحكم فاكتفوا بصوره فلو كان للاسلام رأى فى الحكومة وسلطان على الأمة لكان الوطن كله أسرة ، والناس جميعهم إخوة ، تجد فيهم الفقير ولا تجد المحروم ، وترى بينهم الضعيف ولا ترى المظلوم ، لأن شريعة الله جعلت بين الغنى والفقير سبباً هو البر ، وأنشأت بين القوى والضعيف نسباً

---

(١) أعضل به الأمر : ضاقت عليه الحيلة فيه .

هو الرحمة !

* * *

عالج الإسلام الفقر علاج من يعلم أنه أصل كل داء ومصدر كل شر . وقد أوشك هـذا العلاج أن يكون بعد توحيد الله أرفع أركان الإسلام شأناً ، وأكثر أوامره ذكراً ، وأوفر مقاصده عناية ولو ذهبت تستقصى ما نزل من الآيات وورد من الأحاديث فى الصدقات والبر ، لحسبت أن رسالة الإسلام لم يبعث بهـا الله محمداً آخر الدهر إلا لينقذ الإنسانية من غوائل الفقر وجرائر الجوع . وحسبك أن تعلم أن آى الصيام فى الـكتاب أربع ، وآى الحج بضع عشرة ، وآى الصلاة لا تبلغ الثلاثين ؛ أما آى الزكاة والصدقات فإنهـا تربى على الخمسين

كأنما اختار الله لـكفاح الفقر أشح البلاد طبيعة وأشد الأمم فقراً ليصرعه فى أمنع حصونه وأوسع ميادينه ! فإن الفقر إذا انهزم فى قفار الحجاز كانت هزيمته فى ريف مصر وسواد العراق أسرع وأسهل ثم اختار الله رسوله فقيراً ليـكون أظهر لقوته ، كما اختاره أميا ليـكون أبلغ لحجته .

كانت جزيرة العرب إبان الدعوة العظمى مثلاً محزنا لما يجنيه الفقر على بنى الإنسان من تضرية الغرائز ، وتمزيق العلائق ، ومعاناة الغزو . ومكابدة الحرمان ، وقتل الأولاد ، وفحش الربا ، وأكل السُّحت ، وتطفيف الـكيل ، وعنت الـكبراء ، وأثرة الأغنياء ، وفقد الأمن ، وانحطاط المرء إلى الدرْك الأسفل من حياة البهيم . فلما أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق كانت معجزته الـكبرى هذا الـكتاب المحـكم الذى جعل هذه الأشلاء الدامية جسماً شديد الأسر عارم القوة ، ونسخ هذه النظم الفاسدة بدستور متين القواعد خالد الحـكمة ؛

ثم كانت بوادر الإصلاح الإلهى أن قلّم أظفار الفقر ، وأسا كلوم الفقراء ، وقمع جرائر البؤس ، فألف بين القلوب ، وآخى بين الناس ، وساوى بين الأجناس ، وعصم النفوس من القتل الحرام ، وطهر الأموال من الربا الفاحش ثم عالج الداء الأزلى نفسه بما لو أخذ به المصلحون لوقاهم شرور هذه الحروب التى أمضت حياه الناس ، وكفاهم أخطاء هـذه المذاهب التى قوضت بناء المجتمع عالجه بالسفارة بين الغنى والفقير على أساس الاعتراف بحق التملك ، والاحتفاظ بحرية التصرف ، فلا يُدفع مالك عن ملـكه ، ولا يعارَض حر فى إرادته . إنما جعل للفقير فى مال الغنى حقاً معلوماً لا يكمل دينه إلا بأدائه ! ذلك الحق هو الركن الثالث من الأركان الخمسة التى بُنى عليها الإسلام ، فلا هو فرع ولا نافلة ولا فضلة وليست الزكاة بالقدر الذى يخفى أثره فى حياة الفقير ؛ فهى ربع العشر فى المال وما يُقدَّر بنحو ذلك فى غيره فاذا جُبيت الزكاة بالأمانة على حسابها المقدّر ، ووزعت بالعدالة على نظامها المفروض ، شفت النفوس من الحقـد ، وأنقذت المجتمع من البؤس ، فلا تجد سائلاً فى شارع ، ولا جائعا فى بيت ، ولا جاهلاً فى عمل

ولم يقف الإسلام فى علاج الفقر عند فرض الزكاة ، وإنما شرع للبر فى العبادات والمعاملات موارد لا يأسن لها مَعين ولا ينقطع عنها رافد :

يحنث الرجل فى يمينه فيكفرّ بإطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم أهله ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة

ويقسم ألا يفعل شيئاً ، ثم يرى أن فعله خير من تركه ، فيكفّر بإطعام المساكين ثم يفعله .

ويظاهر من زوجه ثم يبـــدو له أن يعود ، فيطعم ستين مسكيناً

أو يحرر رقبة .

ويرمى فيقتل نفساً عن غير عمد ، فيطعم أو يعتق فضلا عن أداء الدية .

ويعجز عن صوم رمضان لسقم أو هرم ، فيفطر ويطعم كل يوم مسكيناً .

ويفطر عامداً فى رمضان من غير علة ، فيطعم ستين فقيراً أو يفك رقبة .

ويخل الحاج بشرط من شروط الحج فيكفر عنه بذبح يقدمه للمساكين .

ويتجرد عن المخيط فإذا لبس شيئاً منه لزمته الفدية .

ويُرزق الرجل غلاماً فيعق عنه بذبيحة يطعمها الفقراء يوم أسبوعه .

ويقبل عيد الصوم أو عيد الحج فيجب على الأغنياء أن يرفهوا عن الفقراء بزكاة الفطر أو بلحوم الأضاحى .

وينذر المسلم لله نذراً فيوجب عليه الدين أن يفى به براً بالفقراء وعوناً للمساكين .

ويعجز الرجل عن تكاليف العيش فيوجب الدين على من يرثه بعد موته أن ينفق عليه ! فينفق الابن على الأب ، والأب على الابن ، والأخ على الأخ ، والزوج على الزوج ، عملا بالقاعدة الإسلامية الحكيمة : (الغرم بالغنم) . ولقد رأى الفاروق عمر بن الخطاب يهودياً لا يقدر على شيء ، فوقف به ثم قال له : ما أنصفناك أيها الذمى ! أخذنا منك الجزية فى قوتك ، فيجب ألا نضيعك فى ضعفك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يمسك نفسه

وجاءت الشريعة بالوصية لمن حضره الموت : يوصى بثلث ماله لوجوه البر فضلا عن الوصية للوالدين والأقربين .

ونوهت السنة بالصدقة الجارية ، فكانت بركة من بركات الرسول الكريم

على المريض والزمنى وذوى الخصاصة وأبناء السبيل وطلاب العلم وحجاج البيت ، بما وقف عليهم أولو الفضل والسعة من المستشفيات والملاجئ والخانات والزوايا والأربطة والمدارس والمساجد والمكاتب . وكفى شهيداً على أثر (الصدقة الجارية) فى علاج الفقر وإشاعة البر ، أن تحصى الأوقاف فى الأقطار الإسلامية ؛ ثم تنظر فيما حبست عليه من وسائل الإصلاح ووجوه الخير ؛ ثم تحكم على ما قدمت لذوى الحاجات والعاهات من إحسان لا يغب وإسعاف لا يغيب

كل أولئك إلى ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسول الله من الحث على الإنفاق فى سبيل الله والترغيب فيما عند الله من حسن المثوبة ، بفنون من القول الرائع والتشبيه المحكم .

* * *

كذلك عالج الإسلام الفقر من طريق آخر غير طريق الزكاة والصدقات والكفارة . عالجه من طريق الكسر من حدة الشهوة ، والكف من سورة الطموح ، والغض من إشراف الطمع ، فرغب الغنى فى الزهد ، وأمر الواجد بالقناعة ، ومدح الفقير بالتعفف .

* * *

ذلك ما عالج به الإسلام داء الفقر الذى أعيا الإنسانية منذ الدهر الأول . وهو على إحاطته وبساطته ونجوعه ينهض وحده دليلا على حمق الذين يقولون إن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية ، وشريعة نابليون أصلح للناس من شريعة الله ، ونظام كرل مركس أجدى على العالم من نظام محمد .

فلو أن كل مسلم أدى حق الله فى ماله ، ثم استقاد لأريحية طبعه

وكرم نفسه ، وأعطى من فضل ، وواسى من كفاف ، وآثر من قلة ؛ ثم قيض الله لهذا كله من ولاة الأمر من يجمعه على أكمل حال ، ويدبره على أفضل وجه ، ويوزعه على أعدل قسمة ، لكان ذلك عسيا أن يقر السلام فى الأرض ، ويشيع الوئام فى الناس ، فتهدأ ضلوع الحاقد ، وترقأ دموع البائس ، ويسكن جوف الفقير ، ويذهب خوف الغنى ؛ ويتذوق الناس فى ظلال الرخاء سعادة الأرض ونعيم السماء!

من صور الريف

على المصطبة

(٢ مارس سنة ١٩٤٢)

على المصطبة الغبراء وفوق حصيرها الخشن جلس (البك) وفى عينيه نظرة يكسر من طولها الخجل ، وعلى شفتيه بسمة يمد فى عرضها الملق ؛ وفى يمناه سبحة يقطر من حباتها الرياء ، وفى يسراه صحيفة لا تزال على طية البريد ، وتحت قدميه بقية من وحل الشتاء تهدد حذاءه اللامع ، وبين يديه وعن يمينه وعن شماله جلس الفلاحون يسارق بعضهم بعضاً نظر المستفهم عن سر هذا التواضع الغريب ، وسبب هذا التنازل المفاجىء ، ورب الدار يذهب ويجىء فى ربكة تبدو دلائلها على حركاته المضطربة ، وكلماته المتقطعة ، وتحياته المتكررة .

صحيح أن صاحب المصطبة رفيع الصوت فى القرية ، نافذ الرأى فى الناس ؛ ولكنه منذ أيام قلائل كان فى دائرة (البك) فريسة لغضبة هوجاء من غضباته أخذته بالشتم واللطم والسخرية ، لأنه جرؤ على أن يسأل (الكاتب) عما له من حساب الإجارة ، وأن يعترض على (الناظر) فيما عليه من نفقات الإدارة . ومن السير على المنطق المحض أن يستخرج هذه النتيجة من تلك المقدمة .

كان (البك) المالك يرد التحيات الساذجة بالانحناءة والإيماء والتحنى ؛ فكأنما انقلب جانبا معطفه الأسود جناحين رءومين يرفرف بهما على بنيه ! وكان أكابر القرية قد تسامعوا بمقدم (مالكهم) على حال من التطامن والتبسط لم يألفوها منه ، فأقبلوا على المجلس الذى شرفته سيارته بالوقوف عنده .

ومهما يكن (البك) عيّ اللسان كليل الذهن فلا بد أن يتكلم ليكشف عن سر قدومه . وقد استأذنت الشيخ منصورا راوى هذا الحديث أن أترجمه بلغة الناس فأذن

قال البك : لم أزركم منذ خمس سنوات لأن أعمال مجلس النواب لم تدع لى وقتاً يتسع للاهتمام بأسرتى ، ولا للتفكير فى معدتى ، فكنت فى أغلب الأحيان لا آنس بأهلى ولا أهنأ بطعامى

فقال الشيخ منصور مقاطعاً ولكننا يا صاحب السعادة لم نقرأ لك كلمة واحدة فى محضر من محاضر المجلس .

فقال البك : ذلك لأن فى المجلس فريقاً يتكلمون وفريقاً يعملون ؛ وأنا من هذا الفريق .

فقال الشيخ منصور بلهجة المستدرك الخبيث ؛ ولكنك لم تفارق العزبة فى أكثر الأيام التى ينعقد فيها المجلس !

فقال البك ذلك لأن الكلام يكون فى داخل المجلس ؛ وأما العمل فيكون فى خارجه

واندلق مالك القرية فى الكلام ليأخذ على الشيخ منصور سبيل الرد فقال : وقد أخذت الحكومة برأيى فى كثير من مشكلات التموين وأزمات الحكم ، واستفاد النواب من اقتراحاتى واعتراضاتى فى (بوفيه) المجلس وفى لجانه ؛ ولكنى إذا انتخبت هذه المرة فسأوزع مواهبى وجهودى بالعدل بين الحكومة والأمة ؛ وبين القرية (والدائرة) سأنظر بعين الرحمة إلى ما يكابده إخواننا الفلاحون من الغلاء المرهق ، والعناء المضنى ، والمرض المضنى ، والجهل المطبق ، والعيش الخسيس ؛ فأخفض الإيجار ، وأردم البركة ، وأرمم المسجد ،

وأعيد المدرسة ، وأحمل الحكومة على أن تمدكم بالماء النقى والنور الكهربائى ، وأن تخصكم بوحدة طبية أقل ما يكون فيها صيدلية وطبيب .

ولعلى بذلك أكون قد أوفيت لكم بذمتى ، وقضيت للوطن واجب خدمتى ، وأديت لله زكاة قدرتى وثروتى

وكانت عين البك لا تنفك تراقب وجه الشيخ منصور ، فلما رآه يتحفز للكلام بادره بقوله :

— وأنت يا شيخ منصور ! ما هذا الحديث الذى قرأته لك فى (الرسالة) ؟

— أى حديث تعنى يا بك ؟

— حديثك عن صحة الفقير وثروة الغنى .

— لقد قلت شيئاً كهذا ولكنى لم أنشره .

— زرنى غداً فى العزبة فأريك عدد (الرسالة) وأسر إليك بعض الحديث .

قال البك ذلك ونهض فودع الناس ثم ركب سيارته الفخمة وذهب يعيد هذه الاسطوانة نفسها فى قرية أخرى !

وأقبل القوم بعضهم على بعض يتساءلون : لماذا يُعنى البك نفسه هذا العناء ، ويستخذى للناس هذا الاستخذاء ، وهو بحمد الله ضخم الثروة ، فلا يحتاج إلى مكافأة البرلمان ، زَمن المروءة فلا يصلح بطبعه لخدمة إنسان ؟ فقال الشيخ منصور إن فى أربعين جنيهاً لمضرباً ، وإن فى مزايا النيابة لطماعية وإن الله الذى فطر بعض النفوس على الأثرة والشح جعل من خصائصها الوضاعة إذا تسامى المطلب ، والضراعة إذا تجافى المطمع وقد رأيتم هذا الرجل المتكبر المترفع الكزّ كيف طامن من كبره ، وردّ من جماحه ، وبسط من

يده لتعطوه أصواتكم فى الانتخاب ، حتى إذا انتخب عاد إلى معاملتكم بالسفه ، ومحاسبتكم بالدناءة ، واستغلالكم بالشره ، ومقاطعتكم بالأنفة . إنه هو وأمثاله لا يرون للفلاح قيمة ولا كرامة إلا فى أيام الانتخاب . وقد كنا أحرياء ألا نعطى أصواتنا إلا من يعيش عيشنا ويشعر شعورنا ويتألم ألمنا ؛ فإن منطق الطبع يقول إن خصمك لا يدافع عنك ، وإن سيدك لا يحب حريتك

فصاح أحد الحضور : ولم لا ترشح نفسك ونحن نضمن لك أصوات القرية ؟

فقال الشيخ منصور إنى — وأسفاه — لا أحرز من النصاب قيراطاً ولا أملك من التأمين مليما ! والنصاب والتأمين عقبتان وضعهما قانون الانتخاب فى سبيل الكفايات الفقيرة ، كأن المال شرط فى صدق الجهاد للوطن وإخلاص النيابة عن الأمة ! وإن مثلك فى ضمان أصوات القرية واستسهال ما بعدها كمثل السائح الذى لقى فى بعض طريقه نعل حصان واحدة فالتقطها ثم ضمها إلى صدره وقال :

آه وافرحتاه ! بقى ثلاث كهذه وحصان ثم أركب !

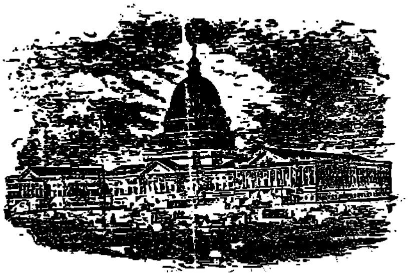

بين ناخب ونائب

(١٦ مارس سنة ١٩٤٢)

بين غداة وعشية أمسى غنينا الطائح عضوا بالتزكية فى مجلس النواب . والفوز بالتزكية هنا معناه امتناع المنافس لا انقطاع النظير ، وخلو الميدان لا بطولة الفارس . ومع ذلك نصب (البك) السرادق ، وقدم الحلوى ، وتقبل التهنئات ، وسمع بأذنيه الطويلتين القصائد العور والخطب البُتر فى الإشادة بالكفاية العالية فيه ، والثقة الغالية به ، والخير المرجو منه وللريف شعراء وخطباء كعصافير الحصاد : تقع فى الجرن ولا تقع فى الروض ، وتزقزق للحبة ولا تزقزق للزهرة ، وتكرر أغرودتها الواحدة ولا تقصد بها معنى غير فرحها هى بسعة البيدر وضخامة العرمة

ولكن البك وحده هو الذى صدق هذه التفاعيل العروضية فانتفش انتفاش الديك ، وراح يعد ويمنى ، ويعدد ويمن ، ويفخر ويفيش ، ويزعم أنه باجتهاده وجهاده سيجعل المجلس يبسط الأرزاق ، ويطيل الأعمار ، ويضمن لكل ناخب فى دائرته قصراً فى الدنيا وقصرا فى الجنة . كان الرجل ينتفخ والناس يجاملون بالإصغاء ، ويتجملون بالصبر ، إلا صديقنا الشيخ منصوراً فقد قال فى شىء من حدة الصراحة وشدة الحجاج :

— ذلك يا بك كلام من لغة التحيات والمجاملات ترده الألسن بحكم العادة ولا تريد به شيئاً ؛ هو أشبه بقولى : (أهنئك بالفوز) وما كنت أريد انتخابك ، أو قول اللص : (السلام عليك) وهو يريد انتهابك ولو كانت

الوعود البرلمانيـة فى آخر الانتخاب ، والبرامج الوزارية فى أول الدورة ، من الـكلام الذى يقصد به معناه ، لما بقى فى صحارى مصر شبر يشكو الظمأ ، ولا فى مساكين مصر فرد يشكو الجوع . لقد قلتم كثيراً ولم تفعلوا ، فحاولوا هذه المرة أن تفعلوا ولا تقولوا !

— أنت يا شيخ منصور كالفرس المخالف فى دولاب الساقية ! لا يجرى كلامك مع الـكلام ، ولا يقف رأيك مع الآراء ! ماذا تريد أن يفعل النائب أكثر من أن يمثل الأمة ، ويشرع القوانين ، ويبحث الميزانية ، ويراقب الحـكومة ؟

— ذلك هو المفروض يا بك ! أما الواقع فهو أن بعضكم متى دخل البرلمان لا يمثل إلا نفسه ، ولا يقضى إلا حاجته ، ولا يراقب إلا عدوه ، ويصوت على القانون فى قاعة المجلس بالإقرار ، ثم يكون هو أول من يطلب خرقه فى ديوان الحـكومة بالوساطة !

إن ما يطلب من الحـكومة والبرلمان فى شؤوننا العامة . لا يزيد كثيراً على ما يطلب من صاحب العزبة فى شؤونه الخـاصة : استصلاح الأرض والانتفاع بكل ما فيها ، ثم تدبير القوت والصحة والمعرفة لـكل من يقوم عليها . ليس لنا مستعمرات تقتضى إدارتها النشاط والحـكمة ، ولا أسواق تجارية تطلب مراقبتها الذكاء والخبرة ، ولا سياسة خارجية تحتاج معالجتها الدهاء والقوة . ها هى ذى عشرون سنة مرت على مصر ولها استقلال وفيها برلمان ، فهل تستطيع أن تقول إن المصرى الآن ، أصبح خيراً مما كان ؟ . إن هذه العشرين سنة غيرت نظماً وخلقت أمماً وقلبت الدنيا كلها رأساً على عقب ؛ ولـكنها مرت على النائمين فى الـكهف مرور الحلم المزعج ، حرك الأجسام بعض الحركة ، وترك

المشاعر ساكنة كل السكون

— ما هذه الفلسفة يا شيخ منصور ؟ هل تستطيع أن تقول لى أنت متى تركوا الحكومة تستقر ، وخلوا البرلمان يعمل ؟ إن الدستور فى الأمة كالمصباح فى الصحراء ، لا ينشر ضوءه إلا إذا تركته الرياح آمناً

— لو تفلسفت يا بك كما أتفلسف لتبينت أن استقرار الحكومة واستمرار البرلمان لا يكونان مع سياسة الكلام ؛ فإن سياسة الكلام هى سياسة الفراغ ، وإذا شغلها شاغل فانما هو المراء والمكابرة والمهاترة والخصومة . وكلما علا صوت على صوت ، وظهرت دعاية على دعاية ، انقلبت الأوضاع ، وتغيرت المكاتب ، وتبدلت المناصب ، وتعطلت المواهب ، وتقوض المبني ، وانتكث المفتول ، وتوقف السائر . أما سياسة العمل فتهيء لكل ذهن ما يشغله ، ولكل يد ما تعمله . وإذا اشتغلت الأذهان وعملت الأيدى ، عيت الألسنة فلا تجادل ، وائتلفت القلوب فلا تختلف ، وانقطع دابر القوالين فلا تعود الحزبية تجارة ولا السياسة حرفة .

— إن الدلائل يا شيخ منصور تبشر بصلاح الحال وما دام الأمر فى يد أهله فانظر إلى المستقبل نظر المتفائل الآمل

— لا تتكلنى إلى المستقبل يا بك . إن من يضيع يومه لا يجد غده . ومن يفرط فى عاجل الشهادة طمعا فى آجل الغيب ، كان حقيقاً ألا يدرك شيئاً

— وماذا تريد أن أصنع لك الآن ؟

— أريد أن تنزل عن مكافأتك البرلمانية لدائرتك الانتخابية . إنك والحمد لله ضخم الثراء رفيع العيش ، فلا أقول إنك طلبت النيابة كما يطلب الناس الوظيفة وإن أربعين جنيها فى كل شهر تقسم على ثمانى قرى لا تدع

فيها أميا واحداً قبل انقضاء الدورة . ولا أعتقد أنك تؤدى إلى أمتك فى طول نيابتك عملا أرفع ولا أنفع من هذا العمل .

— ولـكنك تطلب ما لم يطلبه أحد فى أمة من الأمم

— وهل تجد فى أمة من الأمم فقراء فى مثل فقرنا يعطون ، وأغنياء فى مثل غناكم يأخذون ؟ إن النيابة عندهم بذل وتـكليف ، ولـكنها عندنا ربح وتشريف وإن أكثركم ليسخو بالآلاف فى سبيل الدعاية لها والظفر بها ، فهل يضيركم أن تنزلوا لنا عن هذه العشرات فتحفظوا مهجاً من التلف وعقولا من الجهالة

— كلامك يا شيخ منصور سديد ورأيك أسد . وإنى أعدك ألا أعارض إذا قبل الآخرون .

— أى آخرين تريد يا بك ؟ ولم لا تسن أنت هذه السنة الحسنة فيكون لك أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم يحل المجلس ؟

— يحل المجلس ؟ قل إلى يوم تنتهى الدورة يا شيخ ! فأل الله ولا فألك ! لقد شغلتنا بثرثرتك عن تحية الناس . ثم أشاح البك عن الشيخ وأقبل على المهنئين يوزع عليهم تحياته الشريفة ! فلما أعدنا هذه التحيات على ترتيبه خرجت لحسن حظ الأدب منظومة فى هذا البيت :

أهلا وسهلا ، طيبون ، وحشتنا سلمات ، ازيك ، وكيف الحال ؟

رَبيعٌ ورَبيعٌ

ترجمة صورة

هذا ربيعكما يا فتاتى الفاتنة ويا طفلتى الجميلة : صفاء من سلام النفس يفيض بشراً فى العين وطلاقة فى الوجـــه ، ورواء من ألق الشباب يشع نوراً فى السماء وسروراً فى الأرض ، ورخاء من نعيم الطبيعة ينتشر عطوراً فى الجو وزهوراً فى الروض ، وانتشاء من رحيق العيش يشيع لذة فى الحس وبهجة فى القلب ، وهدهدة على أرجوحة الحب تذهب مع الأمل الباسم وترجع مع الرضا السعيد .

* * *

هذا ربيعكما يا فتاتى الفاتنة ويا طفلتى الجميلة : استغراق فى أمان الله واستطلاع لمتاع الحياة ، واتساق ربيع العمر مع ربيع العام ، واتحاد الجمال البشرى بالجمال الإلهى الماثل فى وشاء الحقول وأفواف الخمائل وأعطار النسيم وألحان الطير وأنفاس الأحبة . فأين — بالله ربكما — أجد الفرق بينكما وبين ملكين يعتنقان فى نشوة الخلد ، ويأتلقان فى وضاءة الفردوس ؟ أفى النظرة الساهمة ، أم فى البسمة الحالمة ، أم فى الفتنة النائمة ، أم فى الخلو الحقيق بالطهر ، أم فى الحنو الخليق بالأمومة ، أم فى الذهول الغريق فى اللذة ، أم فى الصبا الذى يضوع بريح الجنة ، أم فى الحلم الذى يصل باللانهاية ؟

* * *

هذا ربيعكما يا فتاتى الفاتنة ويا طفلتى الجميلة ! وما كان أحرى الناس أن يكون لكل امرىء ربيع مثله ! ولكن

النفوس إذا عاث فيها الشر أجدبت فلا تربع ، واضطربت فلا تطمئن !

هذا ربيعنا يا زهرتىّ النضيرتين يلفح بالسموم ويطفح بالهموم ويضطرم بالعداوة ! كأنما استخلف الله الشياطين على حكم الأرض ، فنى كل دولة إبليس ، وفى كل أمة جهنم ومن طباع الأباليس كراهة الفراديس فهم لا يريدون سلاماً فى وطن ، ولا يحبون ربيعاً فى زمن ولا يدعون آدم فى جنة . هذا مفيستوفولس النازى ، وشمهورش الفاشى[1] ، أصابهما الله بنمو القرون فجأة ، فتأبها وتألها ونازعاه ملكوت الأرض ، فأحدهما يريد أن يعبده الغرب ، والآخر يريد أن يعبده الشرق ، وهما لذلك يحشدان كل ما فى الجحيم من سموم ونيران وحمم ليدمرا فى أيام معدودات سكان الدنيا وحضارة الدهر ! والعالم كله قد وقف أمام الشيطانين موقف الدفاع ، لا تنتج معامله غير الخراب ، ولا تخرج مصانعه غير الموت ، ولا تحرك دوله غير الجيوش ، ولا يفكر ناسه إلا فى الحصون والخنادق والأسلحة والمخابىء والأقنعة !

فكيف يكون لربيعنا فى هذا الجدب ازدهار ، ولنفوسنا على هذا الفزع استقرار ، ولحضارتنا مع هذا البلاء استمرار ، ولحياتنا على هذه الحال المحزنة جمال ولذة ؟!

لعن الله يا ابنتى حواء شياطين الإنس وشياطين الجن ، فإنهم لو لم يخلقوا لكانت الأرض كلها جنة ، ولكان الناس كلهم ملائكة !؟

---

(١) هتلر وموسلينى

لا بد للإسلام من مؤتمر

(٣٠ مارس سنة ١٩٤٢)

جلست ذات أمسية إلى المذياع أتنقل فيه بسمعي المرهف بين برلين و بارى ولندن وموسكو وطوكيو و باريس وأنقرة ، وكلها تذيع باللغة العربية ، وتوجه الكلام إلى الأمة العربية فقلت فى نفسى : سبحان الله ! ماهذه العناية اليقظة بنا ، والاهتمام البالغ بلغتنا وأدبنا ، كأننا لا نزال نملك زمام الدنيا ونصرف عنان القدر ! ثم أعلن المذيعون أنباء الحرب فى ميادينها المختلفة ؛ فإذا هم يذكرون : أفريقية الشمالية ، ومصر ، وفلسطين ، وسورية ، والعراق ، وإيران ، والهند ، والصين ، والملايو ، وسنغافورة ، وجزر الهند الشرقية ؛ وكلها مواطن الأمم الإسلامية ، ومسارح الثقافة العربية ، وليس من أهلها المغير ولا المدافع ، وإنما هم كثروة الأرض وعروض التجارة خسارة للمغلوب وربح للغالب . فعدت أقول لنفسى : ما أشبه تلك الإذاعات اللينة العطوف بالرقى الساحرة ، يسلطها المفترس على أعصاب الفريسة لتخدر وتنام فلا تنشب فى حلقه ولا تضطرب فى جوفه ! وما أعجب ألا تشب الحرب الاستعمارية ، وتتصارع الدول القوية ، إلا حيث يملك العرب ويعيش المسلمون ، كأنما أصبحوا سلباً لكل غاز ونهباً لكل غاصب !

ألم يكن هؤلاء الناس أعقاب أولئك الفاتحين الذين نزل على حكمهم الدهر ودخل فى ملكهم العالم بضعة قرون ؟

أليس هذا الإسلام الذى يؤمنون به اليوم هو إسلام ذلك الخليفة العباسى

الذي نظر ذات يوم إلى السحائب الجون تزجيها الرياح الوعن إلى أقاصى الأرض ، فقال فى لهجة تنم على العزة والجلالة والشكر : أمطرى يا سحائب حيث شئت فان خراجك لى !

بلى ، هؤلاء أعقاب أولئك ، ولكن الدين الذى يعتقدونه لم يعد دين ذلك الخليفة ! إنما هو بقية من الإسلام الأول حالت ثم آلت إلى صوفية بلهاء لا يفيق الممسوس بها من الغفلة ، ولا ينشط من الخمود ، ولا يبالى أن يبلغ ساحل الحياة مركوبا على ظهره أو مسحوبا على وجهه ! والدين والعلم مآلهما فى النفوس الضعيفة والعقول الخفيفة إلى الترهات والأباطيل : فأيلولة الكيمياء إلى البحث عن حجر الفلاسفة ، وعلم الفلك إلى التنجيم والسحر ، كأيلولة الإسلام إلى هذه العقيدة الملفقة التى ريف فيها الإيمان بالقدر حتى أهمل الناس التوقى استسلاما للقضاء ، وتركوا السعى اعتمادا على (القسمة) . و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال »

ولئن سألتنى بعد ذلك : هل بلغ العلماء رسالة الله لأقولن لك « لا » مغلظة مكبرة مكررة وأكبر الظن أنهم لا يؤمنون بأن لهم رسالة وأن عليهم تبعة .

رجال السياسة يعملون بحق أو بباطل ؛ ورجال الحكم يتصرفون بعدل أو بظلم ؛ أما رجال الدين فى ممالك الوطن الإسلامى كله فقد قنعوا باللقب والزى واكتفوا بالشبع والرى ، ورضوا أن يكونوا متونا لذوى الطمع ، وحواشى لأولى النعمة ، وهوامش على صفحة الحياة !

على أن سلطان الدين أكمل وأشمل من سلطان السياسة وسلطان الحكم ؛

فإن هذين لا يتجاوزان بقعة من الأرض ولا أمة من الناس ؛ ولكن ذاك ينبسط على كل مكان فيه لله ذكر ، ويهيمن على كل إنسان له فى الإسلام فكر . وعلماء الدين هم الطوائف التى نفرت من كل فرقة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم ، فإذا تفقهوا ولم ينذروا ، أنكروا ما خلقوا له ، وعصوا ما أمروا به . وليس الإنذار أن يلهجوا بذكر الحساب والعذاب ، وإنما الانذار أن ينبهوا المخطىء ، ويوجهوا الحائر ، ويرشدوا الغوى ، وينصبوا فى مجاهل الأرض أعلام الطريق .

لو كان علماء الإسلام يعملون لكان لهم مثل ما للمبشرين والمستعمرين والمستشرقين من المؤتمرات التى تعقد العام بعد العام فى الدولة بعد الدولة . والله قد فرض على المسلمين أمثال هذه المؤتمرات العامة يوم فرض الحج وإذا كان وفود العلماء من الأقطار المختلفة إلى إحدى المدن تعوقه الأهواء والظنون ، فإن وفودهم إلى مكة لا يعوقه غير الشيطان ، ورجال الدين والحمد لله فى عصمة منه .

لا بد للاسلام من مؤتمر يجمع زعماء الرأى فى أهله ليجددوا ما درس منه ، ويوضحوا ما التبس فيه ، وينفوا عنه ما غشيه من أباطيل القرون وأضاليل النحل ، ويجلوه للناس كما كان صالحاً للحياة ، كافلا للفوز ، ضامناً للسعادة

لا نطمع أن يجتمع هذا المؤتمر اليوم ، فإن الزلزلة التى لا تنفك آخذة بأقطار الأرض وأفكار الناس تجعل العقاب[1] والسدود من دونه ، ولكنا نطمع أن يفكر أولو الأمر فيه ويهيئوا الأسباب له : حتى إذا عادت السلم وتحلق زعماء الأمم حول الموائد الخضر لإقرار السلام الدائم واختيار النظام الملائم ، اجتمع كذلك علماء الإسلام ليعرضوا على العقول الحائرة والأجسام الخائرة نظام الله

---

(١) العقاب : جمع عقبة .

خالصاً كما أوحاه ، صافياً كما أنزله   نعم لا بدّ للإسلام من مؤتمر يقيم بين البهرج والصحيح حداً من نور الحق يجتمع عليه القطيع الشارد ، ويهتدى إليه الركب المضلل . ولكن ليت شعرى من الذى يفكر فى هذا المؤتمر و يعمل له ويدعو إليه ؟

لقد عقدنا الآمال بالأزهر فى كل ذلك ، فهل عقدناها بلعاب الشمس ؟[1]

كانت (جماعة كبار العلماء) معقد الرجاء ومناط الثقة ؛ وكانت هذه الجماعة فى نظامها الجديد عسية أن تدعو إلى هذا المؤتمر بعد الحرب فى العيد الألفى للقاهرة ؛ وكان الظن ببرنامج الإصلاح الذى اقترحه شبابها المصلحون وأقره أقطابها المخلصون ، أن يكون نواة الإصلاح ونقطة التحول   ولكن جندياً باسلا من جنود الإصلاح الدينى كتب إلينا يقول   إن برنامج الإصلاح أدركته أزمة رجعية توشك أن تخنقه فى درج المشيخة ؛ فإن عضواً من الجماعة يوجس منه شراً ، فهو ينسج حوله الشكوك ويؤلب عليه القوى ؛ وقد نجح فى ذلك !

فهل يجوز فى ظن امرىء أن يكون فى كبار العلماء من يشتبه عليه الحق والباطل والخير والشر والصلاح والفساد ؟ ذلك مالا نصدقه ، ولا نود أن تجرى الأمور بما يحققه .

---

(١) لعاب الشمس : شىء كأنه ينحدر من السماء إذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسج العنكبوت ، ويقال له مخاط الشيطان أيضا

أرواح وأشباح

(١٣ أبريل سنة ١٩٤٢)

على الضفة الشجراء من مصيف المنصورة عرفت « على محمود طه » ، وعلى هذه الضفة الخضراء من مربعها قرأت ديوانه « أرواح وأشباح » وكان بين اللقية الأولى للصديق و بين القراءة الأخيرة للشاعر إحدى وعشرون سنة

كان حين عرفته فى إبان شبابه ، وكنت حين عرفنى فى عنفوان شبابى وابن آدم فى هذه السن ربيع من أربعة الفردوس لا يدرك بمحدود الشعور ، ولا يوصف بلغة الشعر ؛ فهو منضور الخلقة ، مسجور العاطفة ، مسحور المخيلة ، لا ينشد غير الحب ، ولا يبصر غير الجمال ، ولا يطلب غير اللذة ، ولا يحسب الوجود إلا قصيدة من الغزل السماوى ينشدها الدهر و يرقص عليها الفلك .

وعلى ذلك كنا أيام تعارفنا وتآلفنا : هو على حال عجيب من مواسّ الهوى وما لابسها من ألوان وصور ، وأنا على عهد قريب من ترجمة (آلام فرتر) وما سايرها من أحلام وذكر !

قال لى صديق « حسين » ونحن عائدان من نزهتنا اليومية فى الشقة الحلوية من شارع البحر :

« مل بنا إلى قهوة (متيو) أعرفك بشاب من ذوى قرابتى يرضيك خلقه و يطربك حديثه ، وقد يعجبك شعره »

وكان شارع البحر كما هو اليوم متنزه المدينة ؛ وكان نصفه الغربى لا يزال يومئذ مخطوطاً بين النيل والحقول ، فلا ترى على جانبيه غير بماص قصب السكر ،

ومشارب الكازوزة ، وعريشة من عرائش الكرم وألفاف الشجر تتفيأه هذه القهوة .

دخلنا القهوة فوجدنا فى باحتها بعض الإغريق وعلى إحدى مناضدها المنعزلة فتى رقيق البدن شاحب الوجه فاتر الطرف ، ينظر فى سكون ويقرأ فى صمت . فلما رآنا هش بقريبه ورف لى ، ثم كان التعارف . وطارحناه طرفاً من الحديث ، ثم طلب إليه صديقى أن ينشدنا بعض شعره ، فنشط لهذا الطلب وارتاح كأنما نفسنا من كربه أو خففنا من عبثه ثم قال فى سذاجة الريفى ووداعة الطفل : « نشرت لى جريدة (السفور) هذه القصيدة وقدمتها بهذه الكلمة » ثم أدى المقدمة عن ظهر الغيب وهم بإنشاد القصيدة . وكنت حين ذكر السفور قد أصغيت سمعى وجمعت بالى ، فلم يكد يفرغ من سرد المقدمة حتى صحت به :

أأنت صاحب تلك القصيدة ؟

— نعم

— وأنا صاحب هذه المقدمة !!

— عجيب !!

كان ذلك فى سنة ١٩١٨ ؛ وكانت جريدة السفور يحررها يومئذ الأعضاء الأصدقاء من لجنة التأليف والترجمة والنشر . وكان النظر فيما يرد على الجريدة من الشعر موكولا لصديقى الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ولى . فألقى إلينا البريد فيما ألقى هذه القصيدة غفلا من الإمضاء ، فقرأناها للاختيار ، ثم قرأناها للاختبار ، فوجدنا قوة الشاعر الموهوب تطغى على ضعف الناشىء البادىء ، فضننا بها على السلة ، وصححنا ما فيها من الخطأ ، وقدمت لها ببضعة

أسطر تنبأت فيها بنبوغ الشاعر ، ونصحت له أن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن ، وأخذت عليه أن يكره قيثاره المرح على النغم الحزين واللحن الباكى وهو لا يزال فى روق الشبيبة كما يقول شعره

ثم تتبعت بعد ذلك علياً : تعقبت آثاره ، وتعرفت أطواره ، وتقصيت أشعاره ، فاذا الفراشة الهائمة فى أرباض المنصورة ورياض النيل ، تصبح « الملاح التائه » فى خضم الحياة ، و « الأرواح الشاردة » فى آفاق الوجود ، و « الأرواح والأشباح » فى أطباق اللانهاية ! وإذا الناشىء الذى كان يختشب[1] الشعر ويتسمح فيه ، يغدو الشاعر المحلق بجناح الملك أو بجناح الشيطان ، يشق الغيب ويقتحم الأثير ، ويصل السماء بالأرض ، ويجمع الملائكة بالناس ، ويقضى بين حواء وآدم !

« أرواح وأشباح » هى ملحمة الرجل والمرأة ، وقصة الفن والوحى ، وحوار الجسد والروح ، وأنشودة الشباب والحب سما فيها الأستاذ « على طه » إلى غاية من الفن قل أن بلغها شاعر

هى حادث جديد فى حياة الشعر المصرى لا يزكو بالنقد الأدبى أن يهمل الاحتفال بتسجيلها فى تاريخ الأدب وهى قصيدة من النمط العالى لا تحك فى أية حلقة من سلسلتها إلا ثبتت على الحك فهى فى الصياغة مشرقة البيان منتقاة اللفظ ، وفى التفكير واضحة المنهج سديدة المنطق ، وفى التخيل بعيدة الغاية قريبة المأخذ . وأشهد أنى قليل الاهتزاز لأكثر الشعر وأكثر الغناء ، ولكن « أرواح وأشباح » هزت نفسى هزاً شديداً ، فكنت أطيل الوقوف عند كل رباعية ، وأديم النظر فى كل بيت ، أتذوق جمال صياغته برفق ، وأستجلى سر بلاغته فى أناة وإن « الحية الخالدة » و « الفنان الأول »

---

(١) اختشب الشعر : قاله من غير تنوق ولا تعمل له

و « حواء » لمن الروائع التي تطول على مقاييس النقد وتدخل فى منتخبات الخلود

على أن أسلوب هذه الملحمة ليس بدعاً من أسلوب على طه ؛ فان الصفات الغالبة على أسلوبه كله هى الوضوح والأناقة والسهولة والسلامة ومرجع ذلك فيه إلى ثقافته الرياضية وليس كالعقل الرياضى شكيمةٌ للخيال الجموح يسلس بها ويصحب(١) . وما دام الخيال فى قيادة المنطق طار بالفكرة فى جواء مشرقة لا سحاب فيها ولا ضباب ؛ فتتميز الألوان وتتحدد الخطوط وتتبين الصور . أما الخيال الشعرى الجامح ، فهو كالحب الصوفى الجامح ، لا يجد اللفظ الذى يسفر ولا العبارة التى تُبين إنما هى « شطحات » وراء الفكر لم تتضح فى الشعور ولم تستقم فى الذهن ، يحاول الشاعر أن يعبر عنها بالمجازات البعيدة والرموز الخفية ، فيغرب ولا يعرب ، ويشير ولا يدل

* * *

إن من عادتى فى هذا المكان من (الرسالة) ألا أجامل فى سياسة ولا أدب .. وربما كان من الخير فى هذه المرة أن أدافع الظنون عن هذه العادة بذكر الحكم مؤيداً بأسبابه ، وكان ذلك يقتضى تحليل القصيدة إلى عواملها البلاغية ، ولكن الكتاب فى أيدى القراء ، والتنبيه على مواضع الجمال فيه اتهام للأدباء !

---

(١) أسلس وأصحب : انقاد

وهذا كتاب

(١١ مايو سنة ١٩٤٢)

قال لي صديق منذ شهرين : إن العقاد يخرج كتاباً عن محمد . فقلت له : ذلك ما تمناه الناس وتوقعناه نحن منذ أخذ العقاد يعالج بعض هذا الموضوع في « الرسالة » . ولعل هذا الكتاب يكون الأول في بابه ؛ لأن العقاد صاحب جد وصراحة ؛ فهو لا يتكلف ما لا يحسن ولا يحسن ما لا يعتقد ، ولا يعتقد ما لا يسوغ في المنطق وإذا كان الذين كتبوا عن محمد إنما كتبوا للدين أو للدنيا أو للأدب أو للهوى ، فإن العقاد لن يكتب إلا للعقل وإذا استراب أكثر الناس بأكثر هذه الكتب ، لأن صاحب الدين موافق ، وصاحب الدنيا منافق ، وصاحب الأدب خداع ، وصاحب الهوى متعصب ، فإن القراء على اختلاف ثقافاتهم ودياناتهم سيخلدون بثقتهم إلى العقاد ، لأنه سيكتب غير ما كتب هؤلاء جميعاً .

ثم قدرت في نفسي النواحي البكر التي سيطرقها العقاد من هذا العالم الأعظم فكأنما قدرت عن تلقين الغيب : قدرت أنه لن يكتب ترجمة ولا سيرة ولا قصة ، لأن الناس في القديم والحديث ، وفي الشرق والغرب ، لم يكتبوا غير ذلك وذلك الذي كتبوه إنما كان مداره على الوحي والرسالة والمعجزة والدعوة ؛ وإدراك العظمة أو العبقرية في هذه الأمور موقوف على الإيمان بها . فلو أن امرأ غير مسلم حاول أن يستشف من خلال ما ينكر من هذه الصور الإسلامية صورة محمد في نفسه ، لما وجد فيما بقي على الهامش أو علق بالإطار

ما يقنعه بأن محمداً لو لم يكن أعظم الرسل بدينه ، لكان أعظم الأبطال بخلقه

فصورة محمد فى نفسه هى الناحية التى طوّف حولها الرُّوّاد ولم يدخلوا ، وحوم فوقها الوراد ولم ينزلوا وهى التى قدرتها على التخمين فى خطة العقاد ، ثم قرأتها على اليقين فى « عبقرية محمد » وأشهد الله أنى لو مضيت على المخيل فيما أكتب عن هذا الكتاب لما كذبنى الظن ، ولا أخطأنى الصواب ذلك لأن العقاد كاتب مؤمن بالعقل والرجولة ؛ فإذا درسته أو قرأته على ضوء هذا الإيمان تكشف لك عن منطق فحل لا يتناقض فى الرأى ، ولا يتعثر فى الأداء ، ولا يتكثر باللغو ، ولا ينزل عن طبقته حتى فى المقاصد المبتذلة والمعانى المطروقة وإيمانه بالعقل والرجولة هو الذى بعثه على أن يكتب كتابين فى أدب ابن الرومى وفى سياسة سعد زغلول على كثرة الأدباء والساسة فإذا كتب عن محمد فإنما يكتب بوحى هذا الإيمان عن عبقريته « بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يثبت به الحب فى قلب كل إنسان وليس فى قلب المسلم وكفى » ، « وبالقياس الذى يفهمه المعاصرون ، ويتساوى فى إقراره المسلمون وغير المسلمين » « ليقيم البرهان على أن محمداً عظيم فى كل ميزان . عظيم فى ميزان الدين ، وعظيم فى ميزان العلم ، وعظيم فى ميدان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون فى العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية »[1]

والحق الذى لا تجوّز فيه أن كتاب « عبقرية محمد » هو التفسير الملهم المحكم لقول الله تعالى لنبيه الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » . . ولا يدهشنك

(١) ما بين الأقواس من مقدمة الكتاب

أن أقول إن شهادة الله لرسوله بعظمة الخلق ظلت مجهولة الفور والمدى والدلالة في التفسير والتاريخ حتى جاء العقاد فصورها بأبعادها وحدودها وألوانها وسماتها كأنطق ما يكون المثال وأصدق ما تكون الحجة هل تجد معنى من معانى الأخلاق فنى فى شرحه وتشريحه من الريق والمداد على طول القرون ما فنى فى تحليل معنى الصداقة والصديق ؟ ومع ذلك تقرأه فى فصل (محمد الصديق) من كتاب العقاد فتجده معنى من معانى العظمة لم يتمثل فى ذهن كاتب من قبل على هذه الصورة . إقرأ قوله على سبيل المثال : « وهنا أيضا قد تمت به لمحمد معجزته التى لم يضارعه فيها أحد من ذوى الصداقات النادرة فأحدقت به نخبة من ذوى الأقدار تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة ؛ وكل منهم ذو شأن فى عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة — كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر وعمر وخالد وأسامة وابن العاص والزبير وطلحة وسائر الصحابة الأولين — وربما عظم الرجل فى مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين فى تلك المزية كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون . بل ربما أحاط الصالحون بالنبى العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة أما عظمة العظمات فهى تلك التى تجذب إليها الأصحاب النابغين من كل معدن ومن كل طراز وهى التى يتقابل فى حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبى بكر وعلى ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم ، وكلهم مع ذلك مخالف فى وصف العظمة لسواه .

تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت

تجمع إليها البأس والحلم ، والحيلة والصراحة ، والألمعية والاجتهاد ، وحنكة السن وحمية الشباب .

تلك هى بلا ريب عظمة العظمات ، ومعجزة الإعجاز فى باب الصداقات »

ذلك سمو العقاد فى المطروق المبتذل ، فما ظنك به حين يعالج الأحرار الأبكار من معانى العبقرية المحمدية فى السياسة والادارة والرياسة والبلاغة ؟ أما تحليله البراعات الخلقية والنفسية فى محمد الزوج والأب والسيد والعابد ، ودفعه الشبهات المريضة عن دعوة الرسول وعظمته فى تحكيم السيف وتحليل الرق وتعدد الزوجات ، فغاية الغايات فى دقة الفهم وشدة الحجاج وقوة الأسلوب . ولولا أن العقاد أدركه نسيان الإنسان فأراد غار ثور وكتب غار حراء ، لقلت إن كتابه قبس من الوحى نزل عليه من السماء !

مثل المصرية الحديثة

(٢٨ يونية سنة ١٩٤٢)

— ١ —

لا تزال السيدة و . . . على العهد بها طاهرة القلب حاضرة اللب ساحرة الحديث حرة الفكر ، لا تختلف وهى عقيلة تدبر البيت وتدير المزرعة ، عنها حين كانت معلمة تسوس الفصل وترأس المدرسة . ولا يزال بهوها الجميل يستقبل فى مساء الخميس من كل أسبوع نفراً من خليط الخاصة ، فيهم الأديب والطبيب والمحامى والجندى والفلاح والواعظ ، وكلهم إما قريب أو صديق أو صهر .

والسيدة و . مثل صادق للمصرية الحديثة حين تراها فى ثوبها الأنيق ، المحكم على قدها الرشيق ، تتخذ من البهو مكان القلب ؛ فترسل الدم بالحياة والنشاط والرغبة والبهجة إلى كل عضو من أعضاء المجلس .

جمال السيدة فاتن ؛ ولكن جلال الحشمة فيه يكف عنه النظر الشهوان فيقف على حد الإعجاب به .

وأدب السيدة رائع ؛ ولكن روعته آتية من قوة الذكاء لا من سعة الاطلاع ؛ فهى ترى الرأى فى بعض معانى الأدب فتحسبه من التماع الذهن فيه عالى النمط ، وهو فى حدود الوسط .

وعلم السيدة دون الكفاية ؛ ولكنها ترفده بقليل من الدعوى المقبولة ، فترفعه المبالغة منها والمجاملة منك إلى المستوى اللائق بالمرأة المثقفة .

وذوق السيدة رفيع ؛ ولكنه ذوق الأنوثة الموهوب لا ذوق الحضارة المكتسب . أرهفته بالقراءة ، وصقلته بالمرانة ، حتى أوشك أن يكون من خلالها الأصيلة ، يصدر عنه ما يصدر عن الطبع السليم من حسن الاختيار وجمال التنسيق وصحة المواءمة .

وزوج السيدة طبيب ؛ ولكنه يعمل فى عيادته عمل المنهوم بالعلم والمال ، فهو لا ينفك طول يومه بين تفريق (التذاكر) وجمع النقود ، ثم لا يعلم من دنياه شيئاً بعد ذلك . فهى تدبر المنزل وتدير العزبة وتربى الأولاد وتنمى الثروة وتراجع البنك وتعامل الناس ، ثم تجعل من بيتها ومكتبتها وحديقتها جنة يسكن إليها زوجها المكدود وولدها المجهود وقريبها المكتئب وزائرها المتطلع .

قد يكون لمزاولتها التعليم فى شباب العمر بعض الأثر فى تكوينها على هذه الشيمة من حسن الإدارة وحب النظام وبراعة الحيلة ولطف المداخلة ؛ ولكن المرأة المصرية على الجملة تبذ الرجل فى هذه الخلال متى سلمت فطرة الله فيها من بطر النعمة وريف التربية وسوء المحاكاة

* * *

زرت ندّيها فى يومها المختار فوجدته حافلاً بمن ينُدون إليه فى العادة من الأقارب الأدنَين والأصدقاء الخلّص وكانت هى حين أخذت مجلسى تناقل المحامى حديث السياسة وزوجها يساجل الواعظ حديث الدين وكان الضابط البطين والفلاح البدين يلقيان السمع إلى هذين مرة وإلى ذينك أخرى ، تبعاً لارتفاع الصوت واشتداد الجدل . وكان محضر السيدة فى الصالون ، ورشاقتها فى الإشارة ، ولباقتها فى الحديث ، وتجلى ذوقها وروحها فى طراز الأثاث ، وطرافة ألوانه ، وانسجام قطعه ، وحسن توزيعه ، كان كل أولئك قد غمر

للجالسين بشعور من السمو لم يألفوه ، فرقت الأصوات ، واتأدت الحركات ، واتزنت الكلمات ، وسما كل شيء في كل نفس . ولا ريب أن للزى الذى أنت ترتديه ، وللمكان الذى تجلس فيه ، وللرجل الذى تتحدث إليه ، أثر فى نفسك يصدر عنه الفعل مطابقاً للحال التى أحدثته .

قالت لى السيدة وقد ترامى بنا الحديث إلى أثر المرأة فى الإصلاح ومكانها فى الأدب :

— ما بال فلان وفلان يحبان أن يُذكرا بمعاداة المرأة وما أظنها وقعت فى حياتيهما موقع العائق عن إنتاج أو إصلاح أو سعادة ؟

فقلت لها ذلك فى رأيى ضرب من الحب ونمط من الغزل ! أما دعوة أحدهما إلى استعبادها فلأنه شقى فى الحصول عليها ، فهو ينتقم منها انتقام الصائد الأرعن من الطائر المسحور وأما دعوة الآخر إلى استبعادها فلأنه يئس من الوصول إليها ، فهو يزهد فيها زهد الفأر الأبتر فى قدرة السمن والمثلان معروفان !

فقالت : إذن لو كان نصيبهما من المرأة خيراً مما كان لأصبحت حواء خيراً من آدم ، ولكانت المرأة المصرية خيراً من المرأة الأوربية !

وهنا ابتدرنى الواعظ إلى الكلام فقال .

— لا يجوز فى الدين ولا فى العقل أن تكون حواء خيراً من آدم . ذلك أنها خلقت من ضلع أعوج ، فمن طبيعتها ألا تستقيم وما لا يستقيم لا يصدر عنه استقامة ولا عدل . ولو أن الله أراد لها غير ذلك لخلقها من رأس آدم فهيمنت عليه ، أو إحدى جوارحه فسمت معه .

فقالت السيدة : ولم لا يكون لخلقها من ضلع آدم حكمة أخرى يا أستاذ ؟

أليس فى خلقها من أحناء صدره تعيين لوظيفتها وتوجيه لرسالتها ؟ إن حنوها على الزوج والولد ، كحنو الضلوع على القلب والـكبد والأسرة التى تشبل عليها المرأة هى العضو الرئيسى فى جسم الأمة ، كما أن الأجزاء التى تشبل عليها الضلوع هى الأعضاء الرئيسية فى جسم الإنسان .

قال الطبيب : معنى ذلك أن عمل المرأة لا يتعدى المنزل .

فقالت السيدة : وهل ذلك يسير ؟ إن المنزل عالم أصغر ينطوى فيه العالم الأكبر وإذا كانت الأمة هى الأسرة مكررة ، والوطن هو الدار مكـبَّرة ، فان المرأة القـائمة على شؤونهما لتحتاج من الثقافة والحصافة ما يحتاجه رجل الدولة . إن فى البيت حجرة طعام ، وغرفة نوم ، و بهو استقبال ، وقاعة مكتبة ، وحديقة زهر ، ولـكل مكان من هذه الأمكنة ثقافة خاصة لابد للمرأة الصالحة أن تحذقها جميعاً

ومضت السيدة فى حديثها العذب تفصل هذا الإجمال ، والطبيب والمحامى يصغيان إصغاء الإعجاب ، والضابط والفلاح ينظران نظر العجب ؛ أما الشيخ فقد كان همه كله من هذا الحديث ، أن يرقب اتفاقه أو اختلافه مع القرآن والحديث

— ٢ —

قالت السيدة (و .) تفصل ما أجملت من رأيها فى معنى لفظ البيت الجديد بأن يكون بيت أسرة، وفى حقيقة معنى المرأة الجديدة بأن تكون ربة بيت:

قد تكون الزوجة أبصر النساء بفنون الطبخ وشؤون المطبخ وأصول المائدة ، ولكنها تكون أجهلهن بما يجب لمهد الطفل وسرير الزوج ومدفأة الأسرة وبهو الضيوف ، وإذن لا تعدو أن تكون طاهية

وقد تكون الزوجة أقوم على رعاية الطفل والزوج ، وأضبط لحساب الدخل والخرج ، وأحزم فى سياسة العمال والخدم ، ولكنها تكون عامية الفكر خشنة الجانب مبتذلة الهندام فلا تعدو أن تكون قهرمانة(١)

وقد تكون الزوجة بطبيعتها ولوداً فتتوزعها الآلام والأسقام والشواغل فى الحمل والوضع والرضاع والفطام والتربيب والتهذيب والتمريض فلا يبقى من جهدها طاقة للبيت ، ولا من وقتها ساعة للناس ، ولا فى قلبها مكانة للزوج ، فلا تعدو أن تكون والدة

وقد تكون الزوجة أجذب أنوثة من كليوبطرة ، وأعذب حديثاً من شهرزاد ، وافتن رشاقة من بنات هوليود ، ولكنها تكون خرقاء لا تجيد العمل ، حمقاء لا تحسن التدبير ، فلا تعدو أن تكون حليلة .

وقد يقتصر مدلول البيت فى ذهن السيدة على غرفة الزينة وقاعة المطالعة وصالون الاستقبال ، فهى ترقب الحديث من الثياب، وتقرأ الجديد من الكتب، وتناقش الطريف من الآراء ، ولكنها تعيش على هامش الأسرة عيش الترف والظهور والحذلقة ، فلا تعدو أن تكون أديبة .

وليست المرأة الصالحة لملكوت البيت واحدة من أولئك ، وإنما هى هن

---

(١) القهرمانة : مديرة البيت gouvernante

جميعاً : هي مخلوقة من نوادر الخلق ركبها الله من مجموع ما تشتت من الفضائل في هؤلاء النسوة ، كما ركب الإغريق « فينوس » من جملة ما تفرق من الجمال في مختلف الحسان .

قال الطبيب الزوج : كأنك يا عزيزتي تنقلين عن نفسك صورة هذه المرأة . وأقسم لقد تعلمت في بعض بلاد أوربا وتقلبت في بعضها الآخر فلم أر صاحبة بيت تفوقك فيما سردت من مزايا الزوجة الصالحة .

فقالت الزوجة : قد يكون في شهادة الزوج لزوجه بعض الهوى الذي يميل ميزان الحكم ، أو بعض الرضا الذي يزيغ بصر الناقد .

قال المحامي : ربما كان الهوى والرضا من شوائب الحكم في غير الزوج ! فإن الغالب أن يتهم الزوجان بعد طول العشرة ، ودوام الخبرة ، وسأم الخلاط ، بقسوة العدل أو برقة الظلم في حكم أحدهما على الآخر . على أن صديقنا الدكتور لم يعد ما في نفوسنا جميعاً . وإنما المسألة الصريحة التي تطلب الجواب الصريح هي أنني عرفت من النساء من هن أوسع ثقافة وأرفع بيئة وأضخم ثروة وأكرم أسرة ؛ ولكنني لم أجد فيهن ما وجدت فيك من خلال الزوجة المرجوة التي تجمع حنان الأم وإخلاص الزوجة وبراعة القهرمانة ومهارة الطاهية وأناقة الحبيبة وثقافة الأديبة فإذا لم تكن الثقافة أو البيئة أو الثروة أو الأسرة هي التي تكون الفتاة على هذه المزايا فمن تربيته يكون ؟

قالت السيدة : إن الأغلب في هذا الضرب من النساء أن يكون وليد الفطرة وربيب الطبيعة . وهو يكثر حيث يشتد التماسك ويقوى التضامن في الأسرة ، لذلك تراه في القرى أكثر منه في المدن ، وبين العامة أظهر منه بين الخاصة . وما دامت القسمة الطبيعية قائمة بين الشريكين الدائمين على أن يكون للزوجة البيت وللزوج ما وراءه ، فإن هذه الخصائص الفطرية تنشأ في المرأة بحكم الضرورة ، وتقوى بفعل المرانة ، وتحكم بسلطان العادة . وليس

التعليم والتمدين إلا ثقافاً وصقالا لهذه الخصائص يقومانها ويرفعانها إلى المستوى الذى بلغه المجتمع فإذا وجدت امرأة تجردت من هذه الشمائل كلها أو بعضها فلا نشك فى أن طبيعة الأنوثة فيها قد فسدت لسبب من الأسباب فغدت من شواذ الخلق كالجمل المستنوق أو الناقة المستجملة

قال الفلاح : لقد كنت أتمثل فى ذهنى المرأة القروية حينما كنت تصفين ربة البيت . ولكنى لم أستطع إقحامها فى الحديث لأنها فى رأى الجمهور عنوان الجهالة حتى سمعتك تقررين أن الزوجة الصالحة تكثر فى القرية . والحق الذى يؤيده العيان أن الفلاحة تقوم على شؤون البيت ، وتنهض بأمور الأسرة ، على المنهج الأعلى الذى رسمته فى قولك واتبعته فى فعلك والفرق بين القروية والمدنية هو الفرق بين بيت وبيت ، وبيئة وبيئة ، وحياة وحياة . وتجانس العقلية فى المجتمع القروى يجعل مكان المرأة فيه أرفع ، وسلطانها عليه أوسع ، لتميزها على الرجل فى قوة النشاط ولطف الحيلة ويقظة الرأى .

فقالت السيدة : ذلك يؤيد ماقلت من أن ربة البيت هى من صنع الضرورة والطبيعة ، لا من صنع المدرسة والبيئة . والضرورة هى وجود البيت ، والطبيعة هى توزيع العمل على حسب الاستعداد والقدرة ولا أعنى بالبيت المسكن ، وإنما أعنى به الأسرة . وللأسرة فى النظام الاجتماعى مفهوم قلما يتضح فى أكثر النفوس ؛ فلا تظنوا أن قصور الخاصة بيوت تسكنها أسر ، إنما هى فنادق ينزلها أفراد . فللزوجين والأولاد غرف لا يدخلونها إلا وقت النوم ، ومائدة لا يرونها إلا ساعة الأكل ، وصالون لا يزورونه إلا يوم الاستقبال ، ومرافق لا يعرفونها إلا عند الحاجة أما القصر وما فيه ومن فيه ففى ذمة القهارمة والخدم ومن المحال أن ينشأ فى مثل هذه الجماعة المنتثرة سيدة تصلح لبيت ، أو آنسة تصلح لزوج وفى اعتقادى أن الكتاب الذين يعادون المرأة المصرية بين رجلين : رجل أحبها ويريد بعدائها أن تتحدث عنه فهو خادع ، ورجل كرهها لأنه عرفها فى البيئات الممسوخة فهو مخدوع .

غراب وطفل

(٢٠ يولية سنة ١٩٤٢)

حادثان وقعا فى نهار يوم وليله ، لمَا بهما من لمَا ، وتفكرفيهما من تفكر ، وبات أثرهما الباقى يعمل فى نفسى وفى رأسى ما يعمل الهم إذا جاش ، والألم إذا برح ، حتى أصبحت فإذا بى لا أجد فى ذهنى ما أكتبه إليك ، غير أن أقص نبأ هذين الحادثين عليك .

نشب جناح أحد الغربان فى مشتبك الغصون من أعالى (السكافورة) ، وجهد الطائر الأسير أن يخلص جناحه بالاضطراب والاجتذاب والخفق فما استطاع وكان قد حط بالقرب منه غراب ، فهبّ ينعب نعيب المستغيث ، ثم حاول أن يجتذب بمنقاره الجناح الناشب فأعياه ذلك فارتد يثب من حوله صاعداً هابطاً وهو ينعب ، حتى أقبل على صوت الإغاثة غرابان ، فحوّما هنيهة فوق أخيهما المصاب ، ثم أطلقا فى الفضاء نعيقهما المنذر . فلم تكن غير لحظات حتى تتابعت الغربان فكان منها على ذوائب الدوحة الفينانة عصابة ، وعقدت هذه العصابة مناحة ، وظلت هذه المناحة بقية النهار لا ينقطع لها صوت ولا تفتر بها حركة وكأنما كانت الغربان تضرع إلى الناس أن يسعفوا أخاها المسكين بحيلهم البشرية ؛ ولكن الناس كانوا قد تجمعوا على طِوَارَىْ الشارع تجمع البله ، لينظروا إلى الحادث العجيب نظر الفضول ! وقلما تجد بين البله والفضول مكاناً للمروءة !

فلما دنا الليل واستيأست الغربان انصرف بعضها وبقى بعضها الآخر

ولم تقصِّر الأغربة الباقية فى مواساته والترفيه عنه ، حتى لقد زعم بعض أصحابنا أنه رأى غراباً يزقه بالحب والماء . وانصرفنا نحن كذلك عن القهوة بعد موهن من الليل ، وليس فى نفسى غير هذا المظهر الأخوى الرائع فى نوع من الطير لم يرسل إليه رسول ، ولم تنشأ لتربيته جامعة ؛ وما كنت رأيت ولا قرأت ولا سمعت من قبل ما يشبه ذلك فى عالم الحيوان .

* * *

لم أكد أسكت المذياع بعد إعلانه الأنباء الأخيرة حتى سمعنا صراخ طفل حديث الولادة ينبعث فى سكون الشارع على حال غير مألوفة فاطَّلعت من النافذة فإذا الصراخ يتتابع من ركن مظلم أمام حانوت جارنا النجار فظننت أول الأمر أن إحدى الوالدات جلست تسترفه من التعب ، أو تستندى أكف المارة . وكانت امرأة من سواد الناس تمر فى تلك اللحظة فماجت بحكم غريزتها على الطفل الباكى ، وجعلت تجسه بعينيها ويديها ، ثم صاحت تقول فى ارتياع وحسرة : الله يلعنها فى كل كتاب ! زِنَى وقتل ؟ !

ثم اندفعت المرأة فى طريقها تهرول وتدمدم كأنما تريد أن تنجو بنفسها عن موطن الشبهة !

ووقف بعدها على الوليد المنبوذ كل سائر . وكان كل واقف يشعل ثقاباً وينظر إلى محيا الطفل البرىء ثم يحوقل وينصرف !

وكان الطفل على ما فهمت من وصف الواصفين من الواقفين أزهر اللون جميل الصورة قد وضعته أمه (الحنون) فى قفة جديدة من الخوص ملفوفاً فى خرقة بالية من قماش مهلهل النسج لا نقش عليه ولا خيط فيه ! ولعلها خشيت ، إذا هى ألبسته بعض الثياب أن يستدل الشرط بها عليها ! والاحتياط لسلامة

الخدر المصون من سوء السماع ومض الملام فوق كل اعتبار !

كان المارة يجتمعون على جوانب المهد الخشن والطفل يضطرب فيه بيديه ورجليه ، ثم يتفرقون ولا يجرؤ أحد منهم أن يسبل غطاءه عليه ، أو يمد يده إليه ، كأنما هو فى ذاته لعنة مجسدة تعلق بمن يمسها وتلحق بمن يقربها ! والواقع أن اللقطاء أو أبناء السكك والدهاليز كما يسميهم الشرفاء ، أشقياء بالولادة . وقد تشتمل الرحم الفاجرة على الشقى والشقاء فى وقت معاً . فاللقيط وهو جنين يكون خطراً لا ينفك مهدداً بالعار إذا استمسك ، و بالموت إذا سقط . فإذا سلم على طعن البطن باليد ، وتسميم الرحم بالعقاقير ، وُلد فى الخفاء ، وغمر بالظلام ، وأحيط بالسكون ، وأصبح فى حجر أمه جريمة مولودة تطفىء نور البصر ، وتذوى شباب القلب، وتقطع خيط الرحم ، فتحاول أن تتنصل من هذه الجريمة الواحدة ، باقتراف جرائم متعددة ! فإذا عاش على سوء الولادة وجفاء المهد وقسوة الهجر ، عاش موسوماً بالخزى ، موصوفاً بالمهانة ؛ لا يرتفع به بيت ، ولا يشرف به منصب

يا حسرتا على اللقيط من بنى آدم ! يمر الانسان بالمتروك أو الضال من جراء الكلبة ، أو خنانيص الخنزيرة[1] ، أو حملان النعجة ، أو فراريج الدجاجة ، فيؤويه إليه حتى يجد صاحبه ؛ ثم يمر بالمتروك من جنسه فيشيح بوجهه وينأى بجانبه ؛ لأنه إذا ضمه إليه اتهمته زوجه ، و إذا أظهر العطف عليه اتهمه الناس . ومن ينكره أهله لا يعرفه أحد ! ومن ضاق ذرعه بابنه لا يتسع صدره لمتبناه . لذلك كان الناس يمرون باللقفة المتروكة ، وفيها ثمرة الحب يتضـــور و يبكى فلا يجودون عليه إلا بنظرة حنان ، أو كلمة رثاء ، أو إشارة إعجاب، أولعنة انتقام وخفت أن يبيت الطفل على قارعة الطريق فدعوت من حمله إلى مركز البوليس

---

(١) الجراء : جمع جرو لولد الكلبة . والخنانيص : جمع خنوص لولد الخنزير .

وأصبح الصباح فقيض الله للغراب من عالج جنـــاحه بعود طويل من الخشب حتى خلص ، وانطلق الأسير فى رفاقه الأوفياء يرفه عن الجناح العليل فى العش الناعم والفضاء الحر والإخاء الوثيق وذهب صديقنا (على) يسأل رجال الشرطة عن مصير الطفل ؟ فقيل له : منحناه اسماً من الأسماء ، ونحلناه أباً من الآباء ، وسجلناه مجهول الأب والأم ثم أرسلناه إلى الملجأ ليعيش عمره الطويل أو القصير من غير أسرة ولا كرامة ولا ثروة ولا رجاء !

* * *

أما بعد فذلك غراب وهذا طفل ! أما الغراب فلم يتركه قومه حتى أنقذوه وأخذوه ؛ وأما الطفل فقد تركه أبوه لأمه ، وتركته أمه للناس ، وتركه الناس للقدر ! فمن ذا الذى يقول بعد ذلك إن ابن آدم خير من ابن آوى ، و إن بنت حواء أفضل من بنت اللبون ؟ إن هذا الغراب هو الذى علم قابيل جد هذ الطفل أن يوارى بالدفن سوأة أخيه المقتول ! وهل نجد أبلغ فى تسجيل العجز على الإنسان من قول قابيل حين رأى الطائر يبحث فى التراب :

« يا ويلتا ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ؟ »

من عجائب الناس

(٢٨ سبتمبر سنة ١٩٤٢)

لعل ابن آدم هو المخلوق الوحيد الذى يرى الشىء الواحد بعينيه الاثنتين أبيض تارة وأسود أخرى على حسب الصبغ الذى يلونه به الهوى ! فقد يتحد الشىء فى ذاته وصفاته ، ولكنه يختلف واعجباه فى نظره أو فى رأيه ، فيكون حسناً وقبيحاً ، أو خيراً وشراً ، أو حلالاً وحراماً ، أو نافعاً وضاراً ، لا باعتبار حقيقته فى نفسه ، ولكن باعتبار ما تقتضيه الحاجة أو الأثرة أو الرياء أو المحاباة . و بفضل هذه الميزة العجيبة فى الإنسان تعددت مقاييسه ، وتضاربت أهواؤه ، وتناقضت أحكامه ، وتباينت عقائده وتفرقت سبله .

ذلك كلام لا نكير فيه ولا لبس فلا أحلل ولا أعلل ؛ و بحسبي أن أدع الحوادث تحدِّث والأمثلة تمثل .

أذاع راديو (بارى) منذ ليلتين أن فريقاً من الطلاب الهنود تظاهروا فى بمباى فاعترضتهم فئة من الشرط الانجليز فتفرقوا فى شوارع المدينة أباديد بعد أن أصيب نفر منهم بجروح ثم عقب المذيع على هذا الخبر بأن الاعتداء على المتظاهرين بالضرب ينافى المدنية ، ويجافى الخلق ، ويصم الذين ارتكبوه بالقسوة الوحشية والبربرية الأثيمة وفى هذه الاذاعة نفسها أعلن هذا المذيع نفسه أن مليوناً من جنود المحور قد اقتحموا بالدبابات الثقيلة والطائرات المنقضة والسيارات المدرّعة منازل « ستالينجراد » على الروس وفيهم النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، فدكوا كل بناء ، وسحقوا كل حى ، وركموا أشلاء القتلى فى الحجرات والطرقات على صورة لم يرها الراءون ولم يروها الراوون . ثم أخذ هذا البوق البشرى يهذى بفضل هذا النصر على المدنية ، وينوه بعظيم أثره فى مستقبل الانسانية !

كان لكاتب من كبار المصلحين حصه مأكولة فى وقف أهلى ، فظل

يكتب فى وجوب حل هذا النوع من الوقف حتى نضب مداده ، ويخطب فى جشع النظارة وإهمال الوزارة حتى جف ريقه وتداول الناس مما كتب وخطب جملة من البراهين الملزمة والنصوص الصريحة والوقائع الثابتة لا تدع لوجود الوقف الأهلى مبرراً ولا للدفاع عنه حجة فما هو إلا أن آلت النظارة على هذا الوقف إليه حتى بلغ لسانه فلم يخطب ، وكسر قلمه فلم يكتب ، وفرغ لاستغلال الوقف والاستبداد بريعه فلم يقبل رقيباً عليه ، ولم يقابل مستحقاً فيه ! ذكرت بهذا الكاتب المصلح ذلك الاشتراكى المفلس الذى كان يرى الرأسمالية وبالاً على المجتمع ، والرأسماليين كلا على الناس وكان يسوغ فى سبيل اشتراكيته الإرهاب والإضراب والمصادرة والقتل ، حتى ورث عن أحد أقربائه الأباعد قطعة من الأرض ، فنصب على كل جهة من جهاتها الأربع لافتة كتب عليها بالخط العريض : « ممنوع المرور » !

وكان خطيب من خطباء المساجد عليه سمات التقى والزهد لا ينفك يقرع آذان المصلين بالعظات الزاجرة عن احتكار السلع وإغلاء الأسعار وإرهاق الناس فى هذه السنين العجاف ؛ فإذا فرغ من الوعظ وخرج من المسجد جلس فى حانوته الصغير يسبح الله ويقسم لطالب السكر أو الزيت أو الرز أن دكانه من كل أولئك خلاء . فإذا وجد الضعيف المضطر أعطاه بالسعر المضعف والكيل المطفف بعض ما يطلب ! وهيهات أن تنفذ إليه عيون الحكومة من وراء الحجب الأربعة التى ضربها عليه من وظيفته وعمامته ولحيته ومسبحته !

هذا الشيخ يحسب أن حدود الدين لا تتعدى حدود المسجد ، فإذا عالج شؤون الدنيا عالجها على المنهج الذى سنه الشيطان لأوليائه ؛ فهو كالتلميذ الذى يحسب أن قواعد النحو لا تتعدى «حصة» اللغة العربية ، فإذا كتب فى التاريخ أو فى الكيمياء كان مطلق الحرية فى إنشائه . ذلك أحسن الفروض ، فإذا كان يعتقد أن الدين طعم الدنيا وشرك المال ، كان كذلك الصوفى الهرم الذى

زعموا أنه كان يركب الترام كل صباح إلى ضريح الإمام الشافعى ، فكان كلما أقبل « الجابى » يطلب أجرة الركوب أدبر عنه وشغل لسانه بالذكر ويده بالتسبيح حتى ينصرف إلى غيره فنى ذات يوم ألح الجابى على تغافل الشيخ وسأله عن (التذكرة) فلم ير بدًّا من أن يدفع هذه المرة ويقول فى هيئة المفحوم ولهجة الذاهل : « معذرة يا بنى ! فقد شغلت بالله عن كل شىء » !

وكان كبير من الكبراء له فى الصوم مذهب جديد ؛ فهو يصوم الصوم (الصحى) الذى يفيد الجسد ولايفيد الروح : يتعاطى كل ساعتين كوباً كبيراً من عصير العنب أو الليمون أو المانجو ، ثم يمسك عن التبغ فى النهار وعن الخمر فى الليل ، ويصر على أن تساقط أصابعه الثلاث حبات المسبحة منذ أذان العصر ، وأن يفطر على أشربة رمضان وآكاله عند أذان المغرب . فإذا بلغه أن أحد مرءوسيه غفل عن آداب الصيام ، فى النظر أو فى الكلام ، أخذه أخذاً شديداً (بتعليمات الوزارة)

وكان أستاذ من أساتذة الأدب لا يحاضر إلا فى الدين ولا يجادل إلا فى الخلق ، له فى الحرية الشخصية مذهب فضفاض يسحب أطرافه السابغة على كل معروف من الدين والخلق ؛ ثم لا يعوزه أن يجد لكل رغبة من رغائب نفسه الشهوانية سنداً مما يسميه هو الدين والخلق . فمثله كمثل ذلك الفقيه الثقة الذى تبحر فى القانون وتقصّى فى الإفتاء حتى لا تند عن ذهنه مسألة ، ولا تغرب عن براعته حيلة فلما تولى بعض أمور الناس وجد لكل مأزق من مآزق الضمير مخرجا من مخارج الرأى لايضيق عن أمرمن الأمور فى أى غرض من الأغراض!

هذه أمثلة من الواقع المشهود تؤيد شقاء الإنسانية بين العقل والهوى . ولو طاوعت القلم لسردت عليك ما هو أعجب ؛ ولكن . . .

قالت الضفدع قولاً ردّدته الحكماء
فى فمى ماء وهل ينطق مَن فى فيه ماء ؟

الرسالة في عامها الحادي عشر

(٤ يناير سنة ١٩٤٣)

أقبل العام الميلادي تسعى بين يديه الشمس ؛ ومن ورائه يقبل العام الهجري يسعى بين يديه القمر ؛ و بين هذين النيرين الآلهيين تبلغ « الرسالة » مرحلتها الحادية عشرة في سبيلها الشاقة ، إلى غايتها الحاقة ، ومنهما معرفتها ورشادها ، وفيهما تضحيتها وجهادها ومن نور القمرين نور الدنيا ، ومن هدى التاريخين هدى الناس ؛ فإذا تعسر الخطو وتعثر الخطاة فذلك لأن النور الإلهي احتجب ، والبصر الإنساني . كل على أن نورالهدى تدركه البصائر لا الأبصار ؛ فإذا عميت القلوب تخبط الناس في ظلام جهنمي تموج فيه تهاويل الشر ، فأفسدوا كل صالح ، و بددوا كل منتظم ، وهددوا كل حي . وما محنة العالم اليوم إلا ضلال عن الطريق . والضال إذا لم يهتد هالك لا محالة ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً

كلما عاد عيد الهجرة أو عيد الميلاد صاح بالضالين المتفانين شيخ الإسلام أو حبر النصرانية : أن تعالوا إلى الطريق! ولكن كلا الدليلين — وا أسفاه ! — يقف على رأس الجادة المهجورة داعياً ولا سميع ، وراعياً ولا قطيع !

فتى يا إله الناس تنحسر عن العيون السادرة أغشية الضلالة فيعود الجائر إلى القصد ، ويرجع الشارد إلى الحظيرة ؟

لقد طغى الفناء على الكون ، وأرسل على ملكوت الله سمائمه السود تعصف في كل مكان بالخوف والجوع والدمار والموت لا تكف ولا تخف

حتى لا يدرى الممسى كيف يصبح ، ولا الغادى كيف يروح !

هذا هو الشتاء الرابع يقبل عَلَى هذه الرجفة الآدمية العالمية وهى راعدة لا ينقطع لها دوى ولا حم ولا نار ولا ضحايا ؛ وبنو آدم المتمدنون لا يفتأون يسحرون العلم الذليل الخاضع فى تأريث براكينها المزمجرة ، فتقذف الردى شهباً فى السماء ، وتصبه حميا فى الماء ، وتشعله جحيما فى الأرض ، وأولادهم هم أشلاء هذه المقتلة ، وحضارتهم هى أنقاض هذه الزلزلة وكل أولئك فى سبيل الرغيف ورزق الله موفور ميسور ما دامت السماء تمطر والأرض تنبت ! ولكن الإنسان مهما يتعلم ويتقدم لا يزال فى سياسة معدته على الفطرة الأولى من حب الاستئثار والاحتكار ، فلا يعرف القناعة فى الرزق ، ولا يقبل العدالة فى القسمة ، ولا يحسم الخلاف على القوت إلا بالقوة إذا تأسد ، وبالمراوغة إذا تثعلب . وقد تتفانى الدول وتبقى الأرض ، كما يتفانى الأسود وتبقى الفريسة !

والخاسرون فى معركة الحياة هم عبيد الطمع من الأفراد والأمم . يبذلون دماءهم فى سبيل الحياة لا لينعموا بها ، ولكن ليحافظوا عليها . وهم مادة الغذاء فى يد الطبيعة : ترعاهم ليأمنوا ، وتدر عليهم ليسمنوا ، فإذا تكاثروا وامتلأوا قدمتهم إلى الحياة العامة فكانوا سماد الزرع ليخصب ، وقلامة الشجر ليغلظ !

* * *

كان الشأن فى الحرب القديمة أن يخرس اللسان والقلم إذا نطق السيف والرمح وكانت نيرانها المحصورة لا يصلاها إلا المتحاربون ، رجلا لرجل ، أو فئة لفئة ؛ ولكن هذه الحرب الجديدة فى خططها وعددها ، قد جندت كل قوة وأوعدت كل حياة . جندت العلم والأدب والفن والصحافة والإذاعة والتمثيل والسينما ، وعبأت الزراع والصناع والتجار والمدنيين والعسكريين والمحايدين

والمحاربين والأطفال والشيوخ ، فلم تدع أحداً فى العالم كله يفكر إلا فيها ، ولا يشغل إلا بها ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يألم إلا منها ؛ فكأنها أصبحت المحرك الأول لآلة العيش ، استولت عليه الشياطين فأنتجوا به من أداة الشر ما لم يقع فى سماع التاريخ ، ولم يخطر ببال الناس ، ليهلكوا ما ادخرته القرون ويهدموا ما شاده الله !

لذلك نما وطما كل ما يمت إلى هذه الحرب بسبب من الإنتاج المادى والفكرى ، وذبل وضؤل منهما ما لا يحارب ولا يدعو . والأدب فى الحرب القديمة كان تشجيعاً ، ولكنه فى هذه الحرب أصبح دعاية . وقد نفق هذا النوع من الأدب نفوقاً عجيباً فى كل أمة ، لأن الحكومات على اختلافها وائتلافها تتملقه وتتعهده وتنفق عليه . والأدب كالحرب عصبه المال : بفضله يخصب ويزدهر ، وبحوله يتسع وينتشر . أما الأدب الذى لا يحارب ولا يدعو ، فقد ظل كالشعب المحايد ، يعانى الحرمان ولا يد له فيه ، ويقاسى الغلاء ولا ربح له منه .

والصحافة الأدبية من هذا النوع : ألح عليها فحش الغلاء وحرمان العوز حتى نحل بدنها وشحب لونها ، وكادت تنبت من فرط الضنى فى وسط الطريق أصبحت لا تجد الورق إذا وجدت المال ، ولا تملك زيادة العرض إذا ملكت زيادة الطلب ، ولا تضمن بقاء الغد إذا اطمأنت على بقاء اليوم . فإذا قدر الله لها أن تخرج من محنة هذه الحرب وفيها حشاشة نفس ، كانت حرية بعد ذلك أن تستهين بكل صعب ، وتثبت على كل خطب . ورجاء الرسالة فى الله أن يرزقها من الجلد ما تتماسك به على عرك هذه الشدائد . وحسبها من صدق الأمانى أن تعيش حتى ترى الطريق قد استبصر ، والسلام قد استقر

والأمر قد استقام ويومئذ يتسع لها المجال فتشارك جاهدة مخلصة فى رأب ما تصدع وتجديد ما تهدم .

وإذا كان للرسالة فى مستهل هذا العام ما تغتبط به من فوز جهادها ونجاح دعوتها ، فذلك توفيقها فى معالجة الإصلاح الاجتماعى توفيقاً لمست أثره فى منهاج وزارة الشؤون الاجتماعية فى عهد وزيرها القائم بأمرها اليوم . فلقد أتاه الله حزم الحكماء وعزم المصلحين فطوى فؤاده الشهم على نية الإصلاح بالفعل لا بالقول فرفع شأن العربية فى دواوين الحكومة ، ومهد السبل المؤدية إلى تنظيم الاحسان وجباية الزكاة ومحاربة الأمية ومطاردة الفقر على نحو يشبه ما نحته الرسالة فى معالجة هذه الشؤون

وأمنية أخرى طالما تمنتها وودتها الرسالة وتوشك أن تكون مقاصد الحكم فى هذا العهد : تلك الأمنية هى الاتحاد العربى على أى صورة يكون . وفى كلام الزعماء ومنطق الحوادث ما يعزز الرجاء فى تحقيق هذا الأمل ؛ وفى توفيق الله وجهاد الصادقين ما يحقق النفع المرجو من هذا العمل .

نهاية أستاذ

(١٦ أغسطس سنة ١٩٤٢)

مئات من المدرسين وآلاف من الطلاب يعرفون الأستاذ أحمد عثمان المهدى مدرس (الفرير) الشابر خمسا وثلاثين سنة . ولكن معرفتى إياه رفيقاً فى الدراسة ، وزميلاً فى التدريس ، تجعلنى أقدرَ من عرفوه جميعاً على حكاية مأساته ، وكشف ما خفى من أسرار حياته ومماته .

عرفته سنتين طالباً فى الأزهر يُعنَى بتجويد الخط ، ويحاكى « أبناء البلد » فى الرواء والسمت ومن كان ربيب أسرة المهدى[1] المترفة كان خليقاً أن ينشأ على حب الجمال فى الزى والمنظر .

وزاملته سبع سنين مدرساً فى كلية الفرير بالخرنفش يُعلِّم العلوم العربية فى فصولها المختلفة ، وينسخ « للأخ بلاَج » المفتش أصول (مؤلفاته[2]) فى النحو والبلاغة والأدب وما كان أحذقُ المتنبئين ليستطيع حينئذ أن يتنبأ لهذه النفس الراضية والطبع المرح والثغر الضحوك واللسان المداعب ، بهذه الكهولة الأليمة والعاقبة المحزنة . نعم كان المتفطن المستبصر يخشى أن تكون له فى بعض الأزمان المقبلة زوجة وأولاد ؛ فقد كان يعيش عيش السمك فى الماء ، لا يكاد يعرف له مستقراً ولا غداً ولا غاية . كان يقضى فراغه كله فى المقاهى بين زمرة من الشباب الملق المتملق، وكان العِرق التركى الذى فيه لايزال يضرب عليه بالشموخ والأبهة ، فلا يسمح لأحد من الجلاس أن يدخل يده فى جيبه . وكان

---

(١) كان أبوه من مماليك الشيخ المهدى العباسى ، ومن هنا كانت نسبته

(٢) من الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن أقول بهذه المناسبة أن الذى ألف كتابى (سفينة النجاة) و (سفينة البلغاء) هو الشيخ سيد الشايب، وأن الذى حرر كتاب (بحر الآداب) فى أجزائه الخمسة ووضع نثره ونظمه فى هذا الأسلوب الأخير هو الشيخ أحمد حسن الزيات ، وكان الرجلان مدرسين فى كلية الفرير .

فضلا عن ذلك مخروق الـكف والـكيس فلا يمسكان على ما يكسب ، ولا يبقيان على ما يملك كان لا يسأله أحد إلا أعطاه ، ولا يعرض عليه شيء إلا اشتراه . وكان أكثر ما يشتريه لا يحتاج إليه ، كأداة للطبخ وليس له بيت ، أو حاجة المرأة وليست له زوجة ، إنما كان مولعاً بمساومة الباعة الجوالين ، ويسره أن يعلموا أنه خبير بالصنف فلا يغش ، عليم بالثمن فلا يغبن . وقد فطن الخبثاء إلى هواه فـكانوا يتغالبون له ويتشاكون منه ، وهو يشترى ويشترى ثم يودع ما اشتراه صاحب القهوة ثم يذهل عنه فلا يطلبه !

وكان لحبه الخير والشهامة يتمدح بما فعل وما لم يفعل منهما. ولخياله الخصب فى هذا الباب حوادث وأحاديث يكون هو فيها البطل المرموق . وكان يكفى أن تحسن الاستماع وتظهر الاقتناع لتسلبه الإرادة وتقوده إلى حيث تريد . وضعف إرادته إنما كان يظهر فى نواحى المروءة والرحمة ، أو فى أمور المـال والمعيشة فـكان لابد له من قيم يدبر ماله وينظم أمره ، ولـكنه مع ذلك كان يعيش أرغد العيش وينعم أطيب النعمة ، لأنه كان يخلف ما يتلف كان يكسب من الدروس الخصوصية لليهود أضعاف ما يأخذ على عمله اليومى فى المدرسة وكان من الجائز أن يقضى العمر فى ظلال هذا العيش الغرير لولا أن وقع المحذور وتنبهت عيون الحوادث . تزوج المسكين ! وكانت زوجه لسوء حظه صورة مؤنثة منه بل زادت عليه أنها من قوم فقراء يحبون الرفد والمعـونة ، وكانت كما شاء القدر ولوداً ، فلم يأت على زواجهما بضع سنين حتى كانا فى بضعة أولاد وتظاهر ضعف الزوجين وإسرافهما الشديد ونزاعهما المتصل على حياة هذه الأسرة البائسة فلم تنعم بهدوء ولم تظفر بتربية . وأصبح كدح الرجل قليلاً على تسعة أفواه لا تحسن غير الخضم والهضم ، فـكان يكد ويحتال ويتصرف ويقترض . ولـكن الأمر كان فوق طاقتـه ومن المحال أن يتعادل دخل المبذر وخرجه والماء مهما يزخر ويرتفع لا يبقى إذا ما انتهى إلى بالوعة !

وتسابقت الأحداث على المسكين فقدحه الدين ، وركبه الهم ، وغاضت بشاشة وجهه ، وذهبت أناقة هندامه وقسا عليه الدهر ذات مساء فانتحر ابنه البكر تحت الترام وهو معه ينظر إلى أشلائه المبددة ، ويستمع إلى أناته المرددة !

ثم جاءت هذه الحرب بما نعرف من بلائها وغلائها ، وكانت عوارض الوهن والانحلال قد ظهرت على المعلم المكدود فاضطرب تفكيره وفتر نشاطه وصعب على « الفرير » خدام الدين والعلم أن يمشوه عظماً كما نهشوه لحماً ، فأخرجوه بعد أربع وثلاثين سنة قضاها معهم فى جهاد العجمة واللكنة لا يدخر جهداً ولا يبالى مشقة وأخرجوه وكل ما فى يده مائة وخمسون جنيهاً كافأوه بها على ما أفنى من صحته وشبابه . وكانت هذه المكافأة طعام أشهر معدودة كان فى أصباحها وأمسائها يطرق الباب بعد الباب عسى أن يجد السبيل إلى رزقه الهارب ، أو الوسيلة إلى عيشه المفقود وتصامّ أكثر الأصدقاء فلم يستجيبوا لطرق الأنامل النحيلة على الأبواب الصقيلة فباع الرجل فضول المتاع ثم باع حاجاته . وكادت الأسرة الشريدة تجوع وتعرى لولا أن قيض الله له صديقاً من ذوى الجاه والفضل فرشحه للتدريس فى المدرسة الملكية بالمنصورة ولهذه المدرسة شهرة بحب الجمع وكراهة القسمة ، فرتبت له ثمانية جنيهات فى الشهر وحاول البائس المضطر أن يسد بهذا المرتب أجرة مسكنه ونفقة عياله فاستحال ذلك عليه إلا أن يسكنوا نصف السكن ، ويأكلوا بعض الأكل ، ويخلصوا من عقابيل السرف القديم ، فكان يقترض من المدرسة سبعة جنيهات فى كل شهر على حساب الأشهر المقبلة ، حتى جاء شهر مارس الماضى وليس له من مرتب العام كله غير خمسة جنيهات ! نعم خمسة جنيهات هى كل ما بقى لسبعة الأشهر الباقية ! إذن ماذا يصنع ؟ لم يبق فى المنزل ما يباع ، ولا فى الناس من يعين ، ولا فى الغد ما يُرجى !

وها هو ذا بعد أن نيف على الخمسين فى خدمة اللغة والأدب يجد نفسه على

بشا الهاوية ممنوع الرزق مقطوع الرجاء ، لا منصب يُظِل ، ولا ثروة تُغل ، ولا ولد يعول ، ولا عشيرة تؤوى ، ولا أمة تساعد !

وفى هوادى ليلة سوداء من ليالى مارس انفرد به الهم الملازم فى ركن منعزل من البيت النائم ، وكان مستقبله القريب الداهم قد تمثل فى ذهنه وبرز فى عينيه حجاباً من الظلام الكثيف يتدجى بالمخاوف واليأس ، فلم يستطع أن يتبين من خلاله غير صفيحة من البترول صبها على جسده ، وغير ثقاب من الكبريت أشعله فيه ! فلما شاعت النار فى جسمه خرج يعدو إلى الشارع وهو يستغيث بأبنائه واحداً بعد واحد فما أصاخت أذن ولا تنبهت عين وسقط المسكين صريعاً أمام كنيسة المارون فى الحسينية ، وكان الصراخ الهالع قد أيقظ قسيسها فخرج يستطلع الخبر . وانحنى القسيس على المحترق يتأمله ، ورفع المحترق نظره إلى المنحنى يتبينه ، فإذا كلاهما يعرف الآخر ، وإذا القسيس تلميذ من تلاميذ الأستاذ القدماء !

— ماذا صنعت بنفسك ياشيخ عثمان ؟

— تلك مشيئة الله !

ونقلت المحتضر عربة الإسعاف إلى المستشفى ليلفظ آخر أنفاسه حين تنفس صباح الجمعة . وأبطأت إجراءات النيابة والصحة حتى دخلت ليلة السبت ولم يكن حاضر أمره غير ناظر المدرسة ووكيله . فاقترح الوكيل أن يبقى فى المستشفى إلى الصباح ليشيعه زملاؤه وتلاميذه ؛ وصمم الناظر أن يقبر فى الليل ، لأن النهار يقتضى قماشاً وفراشاً وقهوة !

وشيعت فى ظلام الليل وسكون الناس جنازة جندى باسل من جنود الأدب المجاهدين ، وليس أمامه إلا الناظر والوكيل ، وليس وراءه إلا أولاده وزوجه !

الرسالة في عامها الثاني عشر

(١٠ يناير سنة ١٩٤٢)

في بصيص من الأمل يلمع في دياجي الآفاق استهل عامنا الوليد! وهذا البصيص قد لاح من الشرق أيضاً : لاح في أفق « العلمين » من صحراء لوبيا! ولصحارى الشرق أسرار يبوح بها القدر كما قضى الله أن يخرج العالم من ظلمة إلى نور! ولرَب السموات والأرض نظام يدبره على مقتضى أمره. فلا الزلزال ولا الإعصار، ولا الحديد والنار، ولا الدمار والموتان، ولا الجبروت والطغيان، ولا النازية النازِيَة، ولا الفاشِيَّة الفَاشيَة، تستطيع وإن تظاهرت أن تُعقِّب على حكمه، ولا أن تبدل ما سبق في علمه.

كان العالم كله في النصف الأول من العام الذاهب يتيه في بيد قوائم الأعماق من مجاهل الأرض، نجومها رجوم، وآفاقها غيوم، ورياحها سموم، ومسالكها لغوم، وهواتفها جِنة. وكانت الوحوش النازية تزأر في جنباتها السود، فتردد زئيرها الرعود، وتنزل بوعيدها الصواعق. ثم أراد مالك الملك ألاّ يشركه في ملكه أحد، فبدا في غياهب « العلمين » ودياجي « ستالنجراد » شعاع من نوره، فإذا الظلام يشف والطريق يستبين، وإذا اليأس يتحول رجاء، والزئير ينقلب عواء، والمارد الجبار يعود إلى القمقم، والتنين الخرافي يرتد مثخناً بالجراح إلى قفصه الهائل، وقد شرَع مخالبه الكثيرة بين قضبانه الطوال الغلاظ ليعوق القدر الهاجم ويؤخر الأجل المحتوم!

في هذا الشعاع الإلهي الذي هدى المجوس ليلة ميلاد المسيح، وضلل المشركين يوم هجرة محمد، ثم عاد فبيَّن للانسانية نسم الطريق في معامي هذه

الحرب ، تستقبل « الرسالة » عامها الثاني عشر ، وهى باعتبارها لسانا من ألسن الإصلاح الإنساني تجد بهذا التحول الحربي والسياسي رَوْحاً وغبطة ترتاح لأن تباشير النصر تكاد تنبئ عن سلام رخي يرد الوئام على الناس ويعيد النظام إلى الدنيا . وتغتبط بعقبى هذه الحرب التي لا نعت لها في لغات الناس إذا استطاعت نارها التي لم تخب ساعة في أربع سنين أن تنفى خَبَثَ الغرائز عن العنصر السماوى فى ابن آدم المسكين وما أسعد الإنسانية جمعاء إذا عوضها الله من ملايين الأنفس التى أزهقت ، ومن قناطير الذهب التى أنفقت ، ومن آلاف المدن التى أحرقت ، تلك الأمانى العذاب التى اشتمل عليها ميثاق الأطلسى ، وعبرت عنها حريات رزفلت !

لقد ظلت هذه المنى دعوة الدين ورسالة الحكمة منذ هبط هذه الأرض آدم ؛ فكانت تُقص كالأحلام وتُسمع كالأنغام ، فتهدهد الغرائز العارمة ساعة الشبع والغفوة ؛ فإذا انتبه الإنسان على وخز الحاجة كشرّ عن الناب وشمر عن المخلب ، ثم يفعل ما يفعل كل حيوان من كل جنس فلما جاءت المدنية لم تزد على أن جعلت للناب غطاء من الذهب الوهاج ، وللظفر غشاء من الصبغ القانى ! فهل آن لعقول الناس أن تفهم عن وحى الله ، وللخلائق المكسوبة بالتهذيب أن تتغلب على الغرائز الموروثة بالفطرة ؟ لا نظن ذلك . إنما هى القوة التى تحولت بتأثير الكثرة والثروة إلى تهديد مستمر . وهى الحرب التى تطورت بتسخير العلم والفن إلى فناء عام ! فاذا فكر قادة الإنسانية اليوم أن يحسموا أسباب الحرب فيما بقى من عمر الدنيا ، فذلك لأن الحرب المقبلة معناها انفطار السماء وانفجار الأرض وقيام الساعة والنزاع الدولى مهما تختلف دواعيه نزاع على مادة الحياة . فاذا كان يؤدى إلى الفناء المطلق ، وجد فى أصل الفطرة

الإنسانية ما يمنعه . والأصل في طبيعة الحرب أن تُنتج النصر من بين قوة وضعف ، فإذا تكافأت القوى بطل عملها أو تفانت . وكل دولة من الدول التي تمتاز اليوم بكثرة الأرقام في عدد الأنفس والأموال ومعاهد العلم ودور الصناعة ، تستطيع أن تعبئ الجيوش وتهيئ الأسلحة ولكنها لا تستطيع أن تضمن الغلب ، فلا مناص إذن من تحالف دولتين أو ثلاث منها لتُبطل التكافؤ وتثقل الكِفّة ، ولا يدوم هذا التحالف الحتمى بين الدول المختارة لحفظ السلم إلا إذا انقدعت نفوسها عن الطمع والأثرة . لذلك كنا متفائلين بنتائج هذه الحرب إذا دارت دوائرها على المحور ؛ فإن جنوح الأحلاف إلى تحكيم العقل المسلح في النزاع ، وتوخى العدل الممكن في القسمة ، وإيثار التبادل الحر في المعاملة ، هو حلم الأمم الضعيفة بطبعها في العدد والعُدة .

على أن سلطان العقل والعدل وإن قوى أثره في نظام العالم المرجو لا يضمن وحده سلامة شعب اجتمعت على أهله القلة والذلة والفرقة والجهالة ؛ فإن لهذه الصفات الخسيسة أثرها في تخفيف الموازين وتخفيض القيم . ولن تستطيع ولو حرصت أن تعدل بين متفاوتين في العقلية والحرية والمدنية والقوة . ولا يستوى في طلب الحق أو الدفاع عنه واحد وجماعة . والدول الصغيرة كالآحاد قوتها في أن تُجمع . ودول البلطيق والبلقان والشرق الأدنى قوى متفرقة ؛ فلو تجمعت المتجاورات منها لكان لها في الحرب والسلم شأن غير هذا الشأن .

اللهم رحماك ورضاك ! هذا خامس شتاء يقضيه عبادك في زمهرير جهنم ! ونار الطاغين يا أعدل الحاكمين غير تاركة ، يصلاها البر والفاجر ! لم يبق في العالم المحروب صدر من غير بلبلة ، ولا بلد من غير زلزلة ، ولا أمة من غير أزمة ! فاجعل اللهم هذا العام حداً لهذا البلاء الشامل !

عبقرية الإسلام

(١٧ يناير سنة ١٩٤٤)

عبقرية الإسلام[١] عنوان وضعته لكتاب اشتغلت باعداده منذ اشتغل العالم بهذه الحرب وكان الذى وجه فكرى إلى هذا الموضوع ما وقع فيه الناس كافة من هذا التفانى الذريع لأسباب لا يصعب حسمها على العقل الأصيل. وبداهة الرأى أن نرجع إلى ما شرع فاطر الأرض وواهب الحياة ومنزل الوحى بعد أن عجز الذين طاولوه فى ملكه من دهاقين الحكم وأساطين العلم عن قسمة رزقه بين أشتات خلقه وما كان لبشر سليم الفطرة ليرتاب فى أن الذى برأ الخلق على اختلاف فى القدرة والحيلة ، وأنشأ الغرائز على اتفاق فى الطمع والغيلة ، هو أعلم بما سينشأ فى كونه من تصادم القوى وتعارض الأهواء ، فلا جرم أن يكون شرعه دستوراً كاملاً تصلح عليه شؤون الفرد وأحوال الجماعة من كل جنس وفى كل عصر وعلى كل أرض

ولقد كانت إدامتى النظر والفكر مدى هذه السنين الأربع فى مصادر الإسلام الصافية مصداقاً لهذه الفكرة ؛ فإن غير الله لا يملك أن يضع فى الإسلام هذه الأسس والقواعد التى تضمن نظام العالم وسلامه مهما تختلف الأجيال و بتطاول الأبد . وهل كان — لولا وحى الله — فى مقدور رجل أمى نشأ بين اليتم والعدم فى قرية جاهلة من قرى الحجاز الجديب أن يعلن فى أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحرياته ، وهى التى أعلنت بعضها بالأمس فرنسا نتيجة لتلك الثورة وتمنت بعضها اليوم أمريكا غاية لهذه الحرب ؟ !

* * *

عبقرية الإسلام هى ذلك الإشراق الإلهى الذى انبثق من غار حراء

---

(١) عارضت بهذا الكتاب العتيد أمير النثر الفرنسى شاتبريان فى كتابه القيم الممتع «عبقرية المسيحية Le Génie de christinisme

فكشف الرسول عن أطوار النفس البشرية فى طوايا الغيب فدعا دعوته الخالدة إلى تكريم الإنسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة ، من طريق التوحيد ، والمؤاخاة والمساواة ، والحرية ، والسلام فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هى الغايات التى ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية فلا تتكشف أمانيها بعد طول السُّرى وفرط اللغوب إلا عن سحاب خلب وسراب خادع .

هذه المبادى المثالية التى تضمنتها دعوة الإسلام معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة ، فلا موضوع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف . فالتوحيد ركن من أركان الدين وعنوان من عناوينه . وهو من الكلم الجوامع التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة . وهو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا وشواهد التوحيد فى أشتات معانيه مذكورة فى كتاب الله لا يختلف فى مدلولها أحد

وفكرة الوحدة الإنسانية هى مزية الدعوة المحمدية على كل دعوة وفى سبيلها صدق الإسلام بكل دين أنزل ، وبكل نبى أرسل ، ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً إلى خطة واحدة وكلمة سواء ثم وصل الدين بالدنيا وكانت اليهودية والنصرانية تفصل بينهما ؛ فالأولى كان همها الصفق والاجتراح؛[1] والأخرى كان سبيلها الرهبانية والتنسك ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد ، فلا تعمل إلا بوحيه ، ولا تسير إلا بهديه ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ويتعاونوا على لأواء العيش ، فلا يبغى قوى ،

---

(١) التجارة والعمل .

ولا يبخل غنى ، ولا يظلم متسلط بدأ ذلك بالتأليف بين الأوس والخزرج ، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ؛ ثم توثقت عرى الأخاء بين المجاهدين فى سبيل الله ، حتى صار المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وأصبح هؤلاء القلال الضعاف فى بضع سنين أئمة للناس وورثة لكسرى وقيصر !

كذلك فى سبيل الوحدة الانسانية والأخوة الاسلامية فرض الاسلام الزكاة وشرع الحج ، وأمر بالاحسان والبر ، ثم سوى بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم فى الحقوق والواجبات ، بمحو العصبية الوطنية ، وقتل النعرة الجنسية ، وجعل التقديم والتكريم للتقوى ، فقال الرسول الكريم فى خطبة الوداع « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وفى هذه الأصول الاسلامية كما ترى أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى الاشتراكية ، وأجمل ما فى المدنية . فهى حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا ولقد كانت كذلك يوم كان لحملتها دولة ولدعاتها صوت ولمعتقديها يقين . فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعاناً فى فدافد الأرض لا مرعى يجود ، ولا راع يذود ، ولا حظيرة تؤوى ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الاسلام فى رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل ، فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه

فليت شعرى متى يُتاح لدعوة محمد من يجدد حبلها ، وينشر فضلها ، ويقول لأولئك الذين يحاولون أن يرفعوا قواعد العالم على أساس جديد : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

من مآسى هذه الحرب

(١٤ فبراير سنة ١٩٤٤)

أجل، هى مأساة من مآسى هذه الحرب وإن وقعت فى قرية صغيرة لأسرة فقيرة. ولا تقل أين (منصور جراد)[1] من (استالين جراد)، ولا أين خمسة نفر أهلكهم الجوع من ملايين طحنتهم رحاً عرض شقيها كعرض السماء والأرض؟ فإن الموت فى معركة الدبابات، كالموت فى معركة الزهور. والشقاء الذى يكرب أنفاس أسرة، هو بعينه الشقاء الذى يفدح كواهل أمة. والموت لا يقاس أثره باتساع ميدانه وانتشار مداه ما دامت الجماعة لا تحسه إلا إحساساً جزئياً فى كل فرد منها والفرد مهما يقو شعوره لا يدرك من بحيرة السم غير القطرة التى تسرى فيه، ولا من أطنان القنابل غير الشظية التى تفتك به.

* * *

ما أظنك نسيت صديقنا الشيخ منصورا ومواقفه الجريئة من أصحاب الضياع والألقاب، أيام الانتخاب لمجلس النواب، فقد كان فى جرأة قلبه وعزة نفسه مثل الفلاح المؤمن بعظمة الله وكرامة الإنسان وحقارة الدنيا. وكان كما علمت من وصفى إياه قد تعاظمت فى نفسه الحرية حتى احتقر المالك، وألحت على جسمه السلامة حتى سئم العافية، ونفرت عن قلبه الهموم حتى ألف السعادة.

هذا الرجل الذى كان شخصه يتميز فى الزحام من بعد، قد استسرت على

---

(١) جراد معناها بالروسية بلد أو مدينة، فاستالين جراد: مدينة الزعيم ستالين. ومنصور جراد من باب المشاكلة بلد الشيخ منصور.

معرفته وهو أمامى ! لقد ذوى ذلك المحيا النضر ، وتهدم ذلك الجسد الوثيق ، وتخدد ذلك العضل المكتنز ، وتجرد ذلك الهيكل الريان ، حتى ليخفق جلبابه على ألواح !

لقد انقطع علم ما بينى وبينه منذ دهر طويل . وكان آخر العهد به لقاء ضاحك فى بعض قرى الريف وهو على حاله تلك من الوثاقة والطلاقة والصحة فلما علم أنى قدمت المنصورة فى هذا الأسبوع جاء يزورنى متحاملا على نفسه . فلما أقبل على أنكرته أول ما رأيته ، ثم لم ألبث أن عرفته بما بقى من سيماه على وجهه . فصافحته وأحسنت لقاءه ؛ ثم دعوته إلى الجلوس فسقط بجانبى على الكرسى كما يسقط كيس من العظام على الأرض . وعقل الدهش لسانى فلم أسأله عن أمره . وحدس هو ما يعتلج فى نفسى من الخواطر فقال بصوت غير صوته ، ولهجة غير لهجته :

١ — لعلك ظننتنى خارجاً من المستشفى ، أو بالحرى مبعوثاً من القبر ! ليت ما بى كان المرض ، فقد يكون للمرض دواء ! وليت ما بى كان الموت ، فقد ينحسم بالموت الداء ! إنما هو جسم يذوب فى نار من الهم لا تخبو ، وروح تزهق فى حشرجة من الكرب لا تنقطع !

— إذن أنت يا صديقى حزين ؟

— إذا كان لفظ الحزن يعبر عن هذا الذوبان الدائم وذلك الاحتضار المتصل فأنا حزين ؟

— هل فقدت عزيزاً عليك !

— لقد فقدت كل عزيز على !

وهنا خانه الجلد فلم يستطع المسكين أن يملك دمعه . فلما هدأت نفسه

وراجعه صبره قال :

— أنا فى حياتى ما شكوت ولا رجوت ، ولـكن الخطوب التى قوضت ركنى وسودت حياتى هى التى أكرهتنى على أن أشكو وأرجو ؛ وذلك وحده خطب الخطوب .

كان ذلك فى شتاء سنة ١٩٤٢ ، وكان لى عامئذ زوجة مخلصة وابنة عزيزة وثلاثة شباب بررة . وكنا نحن الستة ، ومعنا بقرتنا العاملة الحلوب ، وحمارنا القاره الدؤوب ، وكلبنا الحارس الأمين ، لا نفترق ولا نختلف ، ولا نرى الدنيا إلا فى بيتنا وحقلنا ، ولا نجد اللذة إلا فى لباسنا وأكلنا فإذا جار المالك علينا فى القسمة ، عدل الله فينا بالعوض . وإن جرى القضاء علينا بما نـكره ، انتهى الصبر بنا إلى ما نحب . حتى أزمت هذه الحرب الناس ، فضاق الرزق ، وامتنع الوارد ، وارتفعت البركة ، وفشا المرض ، وأعوز الدواء ، واختزن الملاك ما تنبت الأرض ، واحتكر التجار ما تجلب السوق ، ففحش الغلاء ، وطفف الـكيل ، حتى أصبح الأجير يعمل الأسبوع كله ليشترى كيلة من الذرة إذا وجدها . ثم قضت سياسة التموين أن تشترى الحـكومة مقداراً من القمح مفروضاً على كل زارع وقضى الله الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ألا تزيد غلة أرضى على حصة الحـكومة عندى ، فنقلت على حمارى ما فى الجرن إلى بنك التسليف ؛ وحجز المالك ثمن القمح استيفاء لبعض إيجاره ؛ فخرجت صفر اليدين من النقد والحب ، فلا فى الجيب ولا فى المخزن . ولـكننا ياسيدى أحياء ؛ والحى لا مناص له أن يأكل فقمت أنا وزوجتى وابنتى على زراعة الأرض ورعى البقرة ، واشتغل بنى الثلاثة أجراء عند الناس ، فـكنا نجمع أجرتهم فى كل ثلاثة أيام لنشترى بها كيلة واحدة . وماذا تصنع الـكيلة من غير إدام

فى ثلاثة أيام لستة أفواه ؟

على أن هذه الحال لم تدم ، وليتها دامت ! فقد نفدت الحبوب من القرية ، وحُرِم على الناس نقلها من بلد إلى بلد ، فكنت أقبض أجرة أولادى فى المساء ، ثم أذهب إلى المنصورة فى الصباح ، فأشترى بها من الخبز المخلوط مالا يسمن ولا يشبع وعلى هذا النمط النابى من سوء العيش قل الغذاء ، وكثر العمل ، و بلى الثوب ، واتسخ الجسد ، واعتلت الصحة . ووفدت على القرية حمى التيفوس فلم تجد مناعة فى جسم ، ولا وقاية من نظافة ، فأودت ببنى الأربعة واحداً بعد واحد . ونجت منها زوجتى لتندبهم فى النوا كل حتى لا يترك أولادى الحياة من غير عرس ولا مأتم ثم أمعن القدر فى ابتلائه فانتشر فى الماشية وباء التسمم الدموى ، فنفقت البقرة ، وهلك الحمار ، وأصبحت الدار والحمد لله خلاء مما صأى وصمت ! أما بقية القصة فإنك تقرأها الآن فى وجهى وإذا جاز أن يكون لمثلى بعد ذلك رجاء ، فإنى أرجو من الله الموت ومنك الكفن !

أبو العلاء المعري بمناسبة عيده الألفي

(٢٧ مارس ١٩٤٤)

في اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الأول عام ٣٦٣ والشمس في الغروب ، والقمر في المحاق (١) ، والمعرة في همود الكلال ، والطبيعة في فتور الكرى ، ولد الطفل النبيل الضئيل أحمد أبو العلاء !

كان في ظلام الرحم ، وولد في ظلام العشية ، ثم عاش في ظلام البصر ، وانتهى إلى ظلام القبر ! ومن هذا الظلام المتصل (٢) نسج القدر حياة أبي العلاء وأنشأ عواطفه ، وسود فلسفته ، وأبهم عقيدته ، وأوحش نفسه !

ومن هذا الظلام أيضاً تفجر النور كله على قلبه وعقله ، فكان آية من آيات ربه الكبرى في ذكاء الفهم ولطافة الحس وقوة الحفظ ودقة التخيل ، وهو القائل :

---

(١) المحاق : ثلاث ليال من آخر الشهر لا يرى فيها القمر .

(٢) لم يبصر أبو العلاء الدنيا إلا ثلاثة أعوام قبل أن يصاب بالجدري كانت عليه ظلاماً معنوياً لقلة وعيه وضعف إدراكه .

سواد العين زار سواد قلبي ليتفقا على فهم الأمـــور

وإذا كان لـكل عاهة من عاهات الحس تعويض من قوى الروح ، فإن لها كذلك أثراً شديداً فى حياة المعوه ، ترسم له الطريق وتعين له الغاية . فعاهة أبى العلاء فرضت عليه أن يجعل العلم شغل حياته ؛ واختارت له من العلم أنواعه النقلية والنظرية مما تغنى فيه الحافظة وتعين عليه المخيلة ، كاللغة والدين والشعر ، ووسائلها من الرواية والنحو والصرف والعروض ، فقضى عمره[1] الأول بين أيدى الشيوخ فى الشام و بغداد ، أو على مقاعد المـكتبات فى المساجد والأديرة ، يسمع و يعى ، و يجمع و يستوعب ، حتى لم يدع كلة فى معاجم اللغة و كلام العرب إلا علقها ، ولا مسألة من مسائل العلوم الأدبية إلا حذقها ثم قضى عمره الثانى معتـكفاً فى داره ، يعسّل الشهد تعسيل النحل امتلأت بطونها برحيق الزهر المختلف ، و يقطر الزلال تقطير المرشح الضخم أفعم جوفه بماء السيل المشوب . ولغلبة الأدب على حافظته لم ينضح فؤاده إلا به . وكتبه التى أملاها وهى تربى على المائتين لم تخرج عن فنون الأدب المختلفة أما علمه بالفلسفة وسائر العلوم فقد كان علم الأديب ، يأخذ منها ولا يعطيها ، و يشارك فيها ولا يختص بها . وأروع مظاهر النبوغ فى ثقافته الأدبية إحاطته باللغة إحاطة المستوعب ، حتى كانوا إذا عدوا من رزقوا السعادة فى شىء لم يؤته الله غيرهم ، عدوا أبا العلاء ممن تفرد بالاطلاع الواسع على لسان العرب . ومن هنا طغى الغريب على نظمه ونثره ، إذ كان همه مصروفاً إلى تقييد الأوابد اللغوية مما جمع عليه وعاء قلبه . وما كان فى نية أبى العلاء أن يـكتب لدهماء الناس ، إنما كان يكتب لنفسه ولتلاميذه . فهو ينظم ليرتاض ، و يؤلف ليسجل ، ويملى ليعلم ومن قوله

---

(١) العمر أربعون سنة ، وناهز فلان العمرين إذا قارب الثمانين

في مقدمة سقط الزند : « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس[1] » فاذا كتب للعامة أشرق لفظه وسهل أسلوبه ، كما صنع فى كتابه (سيف الخطيب) ، وهو مجموعة من الخطب المنبرية ألفها على حروف من حروف المعجم ، ثم قال :

« وتركت الجيم والخاء وما يجرى مجراها ، لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سجسجاً سهلا »

وعاهة أبى العلاء هى التى جذبت إليه العيون وشغلت به الألسن ؛ لأن الضرير الذى يجيد النرد والشطرنج ، ويدخل فى كل باب من أبواب الجد والهزل ، ويحفظ من مرة واحدة ما يرد على سمعه مما يفهم وما لا يفهم ، عجيبة من العجائب التى يجب أن ترى ، وتستحق أن تروى . واكتظاظ مجلسه بالناس سبيل إلى الفضول والتزيد منهم ، وإلى مقابلة الحال بالحال وموازنة الحظ بالحظ منه . وأبو العلاء الذى خلق بحكم منبته الكريم عزيز النفس رفيع الهوى ظاهر المزية ، كان يستشعر العجز والنقص بما يعلم من انطفاء بصره ودمامة وجهه وضآلة بدنه وقصر قامته ، فكان لذلك شديد التيقظ لحركات الجالس وكلمات المتكلم . وربما أساء الظن ببرىء ، وتوهم الإساءة من محسن . وهو فى طعامه وهندامه وسلامه وقيامه عرضة للخطأ ومظنة للمؤاخذة ؛ فكان لا ينفك متزايلاً[2] ضجراً يديم الحذر ويؤثر العزلة .

صاحب أبو العلاء الزمان ولابس الناس وراود السعادة حتى استحار شبابه فلم تزده الأيام إلا يقيناً بعجزه الطبيعى عن مجاراة الأنداد فى سباق الحياة وعن مرضاة النفس بلذات العيش ، وعن منازلة الخصوم بسلاح الإفك ؛

---

(١) السوس : الطبيعة ، تقول : الفصاحة من سوسه أى من طبعه (٢) متزايلا : منقبضا .

فانقلب إلى داره نافضاً كفيه من دهر لا رجية له فيه ، ومن عالم لا صديق له به ومن نعيم لا نصيب له منه . وساعد على إمضائه نية الاعتزال فجيعته فى أمه وهى الظل الذى يأوى إليه ، والسبب الذى يتعلق به ؛ فزهد فى الدنيا وصدف عن الناس ، وأخذ نفسه بالخشونة والحرمان خمساً وأربعين سنة لا يلبس غير القطن ، ولا يفترش غير اللبد ، ولا يأكل غير العدس ، ولا يتفكه إلا بالتين وهو فى أثناء ذلك الدهر الطويل منطو على نفسه ، متحامل على ذهنه ، يحوك القوافى ويصوغ الأسجاع فى التسبيح لله ، والتزهيد فى العيش ، والترغيب عن الزواج ، والزراية على أم دفر[1] ، والتنديد بأبى البشر ، والتشنيع على رياء أهل الدين وجور أصحاب الحكم ، والتشكيك فى صلاح الأنظمة والشرائع .

كان أبو العلاء فى شبيبته نسيم رحمة ، ثم صار فى كهولته عاصفة دمار ! ولعله لو كان بصيراً متفائلا كالجاحظ ، أو ضريرا شهوان كبشار ، لتبدل حكمه على الدنيا ، وتغير رأيه فى الناس !

---

(١) أم دفر : هى الدنيا فى شعر أبى العلاء